

دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير

دراسة نظرية تطبيقية
من خلال تفسير ابن جرير

د . عبد الحكيم بن عبد الله القاسم
الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جرى مناقشة هذه الأطروحة ليلة الثلاثاء ٢٧/١/٢٠٢١هـ

في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

وكانت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة مكونة من :

فضيلة الدكتور : حسن عبد العزيز علي عضو هيئة التدريس في الكلية مقررأ .

وفضيلة الدكتور : عبد العزيز بن ناصر السبر عضو هيئة التدريس في الكلية عضواً .

وفضيلة الدكتور : سعيد جمعه الفلاح عضو هيئة التدريس في الكلية عضواً .

وقررت اللجنة منح الباحث درجة الماجستير بتقدير : ممتاز

المقدمة

المقدمة :

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ ، وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا - .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِلْدٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي سَأَلَكُمُ بِهِ وَالرِّجَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

فإن خير ما بُدلت فيه الأوقات والجهود ، تدبرُ الكتابِ الكريمِ ، الذي أنزله اللهُ مَوْعِظَةً ، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى ، وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

ولا سبيلَ للاتِّعاضِ والاستشفاءِ والاهتداءِ بالقرآنِ إلا بمعرفةِ مراده ، وذلك بتفسيرِ ألفاظه ، وفهمِ تراكيبه ، ومن ثمَّ يصل السائرون إلى الله لثمرة هذا الكتاب المنزَّل ، وهي التَّدبُّرُ الدَّاعي إلى العمل ، ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] .

ولقد سلك العلماء طرقاً لفهم معاني كلام الله - عزَّ وجلَّ - وأحسنها الآتي :

الأولى : تفسير القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في موضعٍ ، فُصِّل في موضعٍ آخر ، وما اختُصِر في سورةٍ ، بُسِط في أخرى .

الثانية : تفسير القرآن بالسنة الصحيحة عن نبيِّنا محمدٍ - ﷺ - ، فإن السنة شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له - قال تعالى - : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾

[النحل: ٦٤] . وقال النبي - ﷺ - : " ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثله معه " .^(١)

الثالثة : تفسير القرآن بأقوال الصحابة - رضوان الله عليهم - الذين شاهدوا وقائع التنزيل ، وأعطاهم الله الفهم التام ، والعلم الصحيح ، وهم خير القرون .

الرابعة : تفسير القرآن بأقوال التابعين ، الذين أخذوا عن الصحابة ، وهم أفضل القرون بعد الصحابة ، وكذلك تفسيره بكلام تابعي التابعين ؛ لتزكية النبي - ﷺ - لهم حيث قال : " خير أممي قربي ، ثم الذين يلوهم ، ثم الذين يلوهم... " الحديث^(٢) .

الخامسة : تفسير القرآن باللغة ؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب ، - قال تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] . فاللغة العربية توضح معاني الكلمات ، والأساليب اللغوية^(٣) ، وأوضح دليل على ذلك جواب ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - على أسئلة الخارجي نافع بن الأزرق^(٤) بالأشعار^(٥) .

ولا شك أن أصح هذه الطرق وأحسنها : تفسير القرآن بالقرآن ؛ فلا أحد أعلم بمراد الله

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة (١٠/٥) حديث (٤٦٠٤) ، والترمذي كتاب العلم باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي - ﷺ - (٣٧/٥) حديث (٢٦٦٤) ، وابن ماجه ، في المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله - ﷺ - والتعليق على من عارضه (٦/١) حديث (١٢) ، والدارمي في مقدمة سننه ، باب السنة قاضية على كتاب الله (١٥٣/١) حديث (٥٨٦) ، وأحمد في المسند (١٣١/٤) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقال محقق المسند : إسناده صحيح ٤١١/٢٨ .

(٢) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب فضائل أصحاب النبي - ﷺ - ، باب فضائل أصحاب النبي - ﷺ - ومن صحب النبي - ﷺ - أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه ، صفحة (٧٤٧) حديث (٣٦٥٠) ، ومسلم (١٩٦٢/٤) ، في كتاب فضائل الصحابة ، باب (٥٢) فضل الصحابة ، ثم الذين يلوهم ، ثم الذين يلوهم ، حديث (٢٥٣٣) .

(٣) انظر أصول التفسير وقواعده ، للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك صفحة (٧٩-٨٠) .

(٤) هو أبو راشد ، نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي الأزرق الحروري ، لا عقب له ، قتل يوم دولا ب ، على مقربة من الأهواز ، سنة خمس وستين . المعارف لابن قتيبة صفحة (٦٢٢) ، والكامل لابن الأثير (٣٣٥/٣) ، والأعلام للزركلي (٣١٥/٨) .

(٥) أخرج بعضها الطبراني في المعجم الكبير (٢٤٨/١٠) في مسند ابن عباس ، وأوردها السيوطي في الإتقان (٣٨٣/١) ، وفي ثبوتها خلاف .

من الله ، والصلة بين الآية المفسرة والمفسرة لها قد يكونان في محل واحد وسورة واحدة ، وقد يفترقان ، وأغلب تفسير القرآن بالقرآن إذا أطلق ينصرف إلى المتفرق في القرآن ، وأقوى النوعين وأسلمهما ما كان في محل واحد وسورة واحدة^(١) ، وهذا هو موضوع هذه الرسالة الذي يتعلّق بالتفسير بدلالة السياق .

إذا عُلِمَ أن تفسير القرآن بالقرآن أحسن الطرق وأقواها وأفضلها ، فإن التفسير بدلالة السياق - موضوع هذه الرسالة - داخلٌ تحت هذه الأهمية والأولوية في التفسير ، إذ هو من تفسير الآية بما ورد في السورة الواحدة ، والذي ينبغي على المعنيين بتفسير القرآن ملاحظته ومراعاته ؛ ولذلك اخترت موضوع دلالة السياق .

والمقصود بالسياق : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده في الترتيب .

والمقصود بدلالة السياق بمعناها العام هي : فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده .

والمقصود بدلالة السياق في التفسير : هي بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن

السابق واللاحق .

ومن الأمثلة على التفسير بالسياق :

ما روي من جواب النبي - ﷺ - لعائشة - رضي الله عنها - لما سألته عن قوله - تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقالت : هم الذين يشربون الخمر

ويسرقون ؟ قال : " لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ، ويصلون ، ويتصدقون ، وهم يخافون

ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون " .^(٢)

(١) انظر البرهان في علوم القرآن (٣٢٣/٢) ، وقد مثل على ذلك : بتفسير محمد بن كعب القرظي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَلْحَمْدُ

﴿٤﴾ [الإخلاص: ٢] بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿٤﴾ وَكَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤] ،

وكذلك تفسير أبي العالية قوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ خَالِقٌ هَلُوعًا ﴾ ﴿١٩﴾ [المعارج: ١٩] بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الْجُرُوعُ ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ

مَسُّوعًا ﴿٢١﴾ [المعارج: ٢٠ - ٢١] ، ويقول ثعلب لما سئل ما الملح ؟ قال : " قد فسره الله تعالى " يعني في قوله : ﴿ إِذَا

مَسَّهُ النَّارُ جُرُوعًا ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَسُّوعًا ﴿٢١﴾ وغير ذلك .

(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة المؤمنون (٣٠٦/٥) ، حديث رقم (٣١٧٥) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ،

وهذا مثال من السنة واضح في استعمال اللاحق من الآيات ، في معرفة معنى الجملة المفسرة ، ورجع فيه النبي - ﷺ - إلى السياق ليحلّ المشكل في الأذهان ، قال المباركفوري - رحمه الله - (١) : " أولئك الذين... كذا في هذه الرواية ، وفي القرآن : ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ سُقُورٌ﴾ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٦١] " (٢) .

وقال رجل : لعلي بن أبي طالب - ﷺ - يا أمير المؤمنين : رأيت قول الله : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤١﴾ [النساء: ١٤١] ؛ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي : ادنه ، ادنه! ، ثم قال : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤١﴾ [النساء: ١٤١] يوم القيامة. " (٣) .

فبين علي - ﷺ - أن محل إشكال السائل هو ظهور بعض الكافرين على المسلمين في الدنيا؛ بينما هذا الوعد محدد باليوم الآخر بدلالة سياق الآية، وهي قوله : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

حديث (٢٥٣٧) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل (١٤٠٤/٢) ، حديث (٤١٩٨) ، والحاكم في المستدرک (٣٩٣/٢) وصححه ، ووافقه الذهبي في التلخيص للمستدرک ، وأحمد (١٥٩/٦) برقم (٢٥٣٠٢) ، وغيرهم ، إلا أن الدارقطني رجح إرساله في العلل ١٩٣/١١ ، وضعفه محقق المسند لانقطاعه ١٥٦/٢٤ .

(١) هو أبو العلى ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري -نسبة لبلدة في الهند- ، ولد سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ، له: تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذى ، توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته باختصار أول تحفة الأحوذى (٣/١) .

(٢) انظر تحفة الأحوذى (٢٠/٩) .

ومن الأمثلة على أهمية السياق : ما روى البخاري عن سهل بن سعد قال : أنزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة ١٨٧] ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أما يعني الليل من النهار ، فزال الإشكال عند الصحابة بعد نزول جملة ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وحين تحمل هذه الجملة في تفسير الآية يقع اللبس والخطأ في الفهم كما حصل من عدي بن حاتم- رضي الله عنه- .

(٣) جامع البيان (٣٣١/٤) وتحقيق شاکر (٣٢٧/٩) .

وبعدها مباشرة ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ .

ولما رد نافع بن الأزرق الخارجي على ابن عباس ، أن قوماً يَخْرُجُونَ من النار مستدلاً بقول الله - جلَّ وعزَّ - : ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] ^(١) ، فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها!! ، هذه للكفار . " ^(٢)

والآية التي فوقها -أي قبلها- هي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَكَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦] ^(٣) .

وهذا الموضوع واسع لا يحاط به على سبيل العموم ، فرأيتُ الاقتصار على تفسير جامع البيان لإمام المفسرين محمد بن جرير الطبري -رحمه الله- المتوفى سنة عشر وثلاثمائة ، ورأيتُ أن يكون موضوعُ البحث من خلاله ؛ للأسباب الآتية :

الأول : اهتمام الإمام -رحمه الله- بدلالات السياق تصريحاً أو تلميحاً ، حيث إنه يدقق النظر في تتابع الآيات والجمل ويلحظ الأقرب للمعنى ، فيرجحه ويدلُّ عليه .

قال الشيخ محمود شاكر -رحمه الله- ^(٤) فيه : " إنه كان مفسراً إماماً سبق ففات السابقين ، لم يلحقه لاحقٌ في البصر بمعاني كتاب ربِّه ، وفي الحرص على بيان معانيه ، وفي الدقة البالغة في ضبط روابط الآيات بعضها ببعض... وأبو جعفر -رحمه الله- لم يغفل عن هذا الترابط الدقيق بين معاني الكتاب ، سواء كان ذلك في آيات الأحكام ، أو آيات القصص أو غيرها من نصوص هذا الكتاب ، فهو يأخذ المعنى في أول الآية ثم يسير معه كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً ، ثم جملةً جملةً ، غير تاركٍ لشيءٍ منه ، أو

(١) المائدة (٣٧) ونصها : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ .

(٢) جامع البيان (٤/٥٦٧-٥٦٨) وتحقيق شاكر (١٠/٢٩٤) .

(٣) المائدة (٣٦) .

(٤) هو محمود بن محمد شاكر بن آل أبي علي ، أخت للشيخ أحمد شاكر ، ولد عام ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م ، محقق كبير من تحقیقاته : جمهرة نسب قريش لابن بكار ، وكتاب في التاريخ وأحوال العالم ، له : التاريخ الإسلامي ومحاوله السيطرة عليه ، وغيره ، اشترك مع أخيه في إخراج تفسير جامع البيان للطبري ، فأخرجنا منه إلى سورة إبراهيم (٢٧) ، فاز بجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب عام ١٩٨٣م ، توفي سنة ١٩٩٧م -رحمه الله- .

متجاوز عن معنى يدلُّ عليه سياقها... " (١)

الثاني : توسَّع الإمام الطبري في تناول هذه القاعدة وتوضيحها وتفسيرها ومناقشة الأقوال المخالفة للقاعدة تفصيلاً ، فلا يكتفي بأن هذا المعنى دلَّ عليه السياق فقط ، بل يوضِّحه ويدلُّ عليه بأسلوب مفصل ، وعبارات واضحة ، ويذكر سبب تقويته لهذا المعنى ، وما ينتقض على القائلين بغيره بذكر الناقض له.

الثالث : أقدمية هذا التفسير فإنه عمدة من لحقه ، ولم يؤلَّف بعده مؤلَّف متوسِّع في التفسير غالباً إلا نقل عنه ، وكذا منزلته عند المفسرين؛ فقد أجمعوا على أنه لم يؤلَّف مثله.

الرابع : اهتمام الإمام بأقوال السلف وروايتهم - حتى عدَّ تفسيره من أهم كتب التفسير بالمأثور - وتمسكه بعقيدة أهل السنة والجماعة ومدافعتة عنها .

الخامس : أن دراسة الموضوع الطويل عند مفسرٍ واحدٍ ، تجمع أصول الموضوع فلا يتشتت ، وتُبْرِرُ منهج المفسر ، وتوضِّح طريقته .

هذا وقد كان الحديث في هذا الموضوع شاقاً ؛ لصعوبة أسلوب الإمام أبي جعفر الطبري - رحمه الله - من جهة ، وللدِّقَّة مأخذه من أخرى ، ولكثرة المواضع المتعلقة بالموضوع من جهة ثالثة ، وقد حاولت ما وسعني الجهد عرض طريقة الإمام الطبري - رحمه الله - ، والتعليق على أهم المواضع التي هي داخلة في دلالة السياق .

وحين سجلت هذا الموضوع وأثناء دراسته لم أقف - حسب جهدي - على مؤلفات في الموضوع نفسه ، ولما قرب طبع هذا ونشره وجدت بحوثاً ورسائل ، ومن المؤلفات التي استقلت في السياق سواء كانت تفسيرية أو لغوية ما يلي :

١ - السياق القرآني وأثره في التفسير ، دراسة نظرية و تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ، لعبد الرحمن عبد الله سرور المطيري ، رسالة ماجستير ، بجامعة أم القرى ١٤٢٩هـ .

٢ - أثر السياق القرآني في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة ، لحمد بن

(١) جامع البيان بتحقيق شاکر (٤/٥٣٧) .

- عبد الله الربيعه ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية أصول الدين ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عام ١٤٢٧ هـ .
- ٣- السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري ، محمد بنعده ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية الآداب ، بجامعة محمد بن عبد الله بالمغرب ، عام ١٤١٨ هـ .
- ٤- دلالة السياق ، لردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى عام ١٤٢٤ هـ ، وهي دراسة نظرية ، وطبعت في جامعة أم القرى .
- ٥- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق مثل من سورة البقرة ، لخلود بنت إبراهيم سلامة العموش ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية ، مقدمة لكلية اللغة العربية في الجامعة العربية ، عام ١٤٠٨ هـ .
- ٦- السياق ودلالته في توجيه المعنى ، لفوزي إبراهيم عبد الرزاق ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية ، مقدمة لكلية الآداب ، بجامعة بغداد ، عام ١٤١٦ هـ .
- ٧- أثر السياق في النظام النحوي مع تطبيقات على كتاب (البيان في غريب القرآن لابن الأنباري) . لنوح بن يحيى الشهري ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى ، عام ١٤٢٦ هـ .
- ٨- السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة ، رسالة دكتوراه لسعيد بن محمد الشهراني ، مقدمة لكلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٢٧ هـ .
- ٩- دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام ، لفهد بن شتوي الشتوي ، رسالة ماجستير ، مقدمة لقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٢٦ هـ .
- ١٠- السياق وأثره في درس اللغوي ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث ، لإبراهيم محمود خليل ، رسالة دكتوراه ، مقدمة للجامعة الأردنية ، عام ١٤١١ هـ .
- ١١- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، لعبد النعيم عبد السلام خليل ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية بجامعة الإسكندرية ، عام ١٩٩٠ م .

- ١٢- الربط في سياق النص العربي ، لمحمد القرشي ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية اللغة العربية ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٠٨هـ .
- ١٣- السياق والمعنى عند الإمام أبي حامد الغزالي في ضوء علم اللغة الحديث ، لسالم بن محمد الخوالدة ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية الآداب والعلوم بجامعة آل البيت .
- ١٤- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، لعبد الفتاح عبد العليم البركاوي ، كتاب مطبوع ، القاهرة دار المنار ، الطبعة الأولى لعام ١٤١١هـ .
- ١٥- اللغة والمعنى والسياق ، لجون لايتز ، ترجمة الدكتور عباس صادق الوهاب ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، سلسلة المائة كتاب ، عام ١٩٨٧م .
- ١٦- اللغة ونظرية السياق ، للدكتور علي عزت ، مقال في مجلة الفكر المعاصر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، العدد (٧٦) ١٩٧١م^(١) .
- ١٧- السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني ، لشيخنا الأستاذ الدكتور : زيد عمر عبد الله ، ونشر هذا البحث في مجلة جامعة الملك سعود (ج١٥) عام ١٤٢٣هـ الرياض . وجمع أمثلة رائعة ، وتعليقات مسددة رائعة^(٢) .

(١) انظر مقال الدكتور محمد الربيعة في ملتقى أهل التفسير ، وقد وصف هذه البحوث وصفا توضيحيا وتقويميا .

(٢) فمن الأمثلة الرائعة التي ذكرها : لفظ ﴿بَلَّغْنَ﴾ ، حيث جاء في سورة البقرة في آيتين متجاورتين [٢٣١-٢٣٢] يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْجِدُوا آيَةَ اللَّهِ هُرُؤًا وَأَذْكُرُوا وَعَمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فالخطاب في الآية الأولى : للأزواج ، ومعنى بلوغ الأجل دنوه وقبل نهايته ، وفي الآية الثانية : خطاب للأولياء ، ومعنى بلوغ الأجل : نهايته بخروج المرأة من عدتها ، ونقل قول الشافعي : "دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين!!" ، [مختصر المزني في فروع الشافعية هامش الأمر ٨٧/٤ ، لمحمد بن أحمد المزني القاهرة ، طبع دار الشعب] .

- كما مثل على تنازع السياق مع بعض الأدلة ومنها : الحديث النبوي : ففي قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنِّي زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١ - ٢] وذكر أقوال المفسرين : فمنهم من وقت لهذا في آخر الدنيا وأول الآخرة ، واستدل بحجىء التاء في أرضعت فهي دالة على إقام التدي، وكذا سقوط الحمل وذهب له ابن عطية والقرطبي . ومنهم من حملها على يوم القيامة واستدلوا بحديث قدسي صريح [رواه البخاري ٤٤٦٤ ، ومسلم ٢٢٢] : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - : " يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف أراه ، قال تسعمائه وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد..." الحديث. وعند الترمذي [ح ٣١٦٨] عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - حين نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر: "أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ ؟ فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : "ذلك يوم يقول الله لِأَدَمَ أَبْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ..". ورجحه الطبري ، وابن كثير ، والشنقيطي . ومثل هذا التنازع يحصل أحيانا بين السياق وأسباب النزول ، أو الإجماع ، أو العموم .

ومن كلامه النفيس : "أسيء إلى السياق -على الرغم من أهميته - مرتين : الأولى: حين تم تجاهله من قبل بعض من اشتغل بالتفسير التحليلي التجزيي ، وحرص على تكثير المعاني وذلك بانتزاع اللفظ من نظمه وسياقه وتفسيره تفسيراً لغوياً معجمياً دون التفات إلى مدى مناسبة هذا المعنى للسياق .

كانت الثانية : حين قَدِّم السياق على غيره من القرائن مطلقاً كما صنعت مدرسة المنار في مواطن متعددة تحت تأثير المقررات السابقة فكان أن أخطأت في هذه المواضع ."

قلت : ويصلح أن يمثل الصنفين : الصنف الأول : بعض متقدمي أهل العربية الذين بالغوا في الاعتماد على اللغة دون السياق ، فعيب عليه ذلك ، ومنهم : أبو عبيد وابن قتيبة والأخفش ، ومن المتأخرين بعدهم نسبياً البيضاوي والخازن وابن الجوزي .

ويمثل الثانية من المعاصرين : من بالغ في الاعتماد على السياق ونبت ما سواه : مثل مدرسة المنار حيث يقول الأستاذ محمد عبده : "لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح" .

وكذلك المدرسة البيانية وعلى رأسها د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ حيث تقول : " نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً ونعرض عليه أقوال المفسرين" . وقد أشار الشيخ لهذين الصنفين وذكرهم ولكني قدمت وأحررت في كلامه، وبقي شيء كثير مهم ، وكان نقلي هذا مشوقاً للوقوف على بحثه النفيس .

وعنوان هذا البحث : دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير ، دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير .

وتشتمل خطة الرسالة على النحو الآتي :

مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة :

هذه المقدمة .

وأما التمهيد فيحوي ثلاثة أمور :

الأول : ترجمة موجزة للإمام : محمد بن جرير الطبري -رحمه الله- .

الثاني : التعريف بتفسير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

الثالث : عرضاً موجزاً لدلالة الألفاظ عند الأصوليين .

الباب الأول : دلالة السياق القرآني ، وطريقة تناول ابن جرير لها :

وينقسم الباب الأول إلى فصلين :

الفصل الأول : دلالة السياق القرآني ، وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريفُ السياقِ القرآنيِّ ، وأنواعه ، مع التَّمثيل .

المبحث الثاني : أهميَّة دلالة السياقِ القرآنيِّ في التَّفسير .

المبحث الثالث : أسبابُ الاعتماد على دلالة السياقِ القرآنيِّ .

المبحث الرابع : دلالة السياقِ القرآنيِّ ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن .

وأما الفصل الثاني فعن :

قواعد تناول ابن جرير -رحمه الله- لدلالة السياقِ القرآنيِّ : وفيه تسعة مباحث :

المبحث الأول : الكلام على اتِّصالِ السياقِ ما لم يدلّ دليلٌ على انقطاعه .

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعتٌ فإنَّها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السّورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معيّنٌ على معرفة مناسبة خاتمتها .

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ ينزّه القرآن عنه .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما أتسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشاءهم .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فُتِح به الخبر من الفعل المذكور السابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السّياق إلا بالظاهر من الخطاب .

أما الباب الثاني فعن : أثر دلالة السّياق القرآني في تفسير ابن جرير : وفيه تسعة فصول :

الفصل الأول : أثر دلالة السّياق في القراءات ، وتحتة مبحثان :

المبحث الأول : أثر دلالة السّياق في تصحيح القراءة .

المبحث الثاني : أثر دلالة السّياق في تضعيف القراءة أو ردّها ومناقشة ذلك .

الفصل الثاني : أثر دلالة السّياق في بيان الأصحّ من أسباب النّزول ،

وتحتة أربعة مباحث :

المبحث الأول : بيان الأصح من أسباب النزول .

المبحث الثاني : ترجيح سبب النزول لا يعني تخصيص الآية به ، بل يدخل من يشاءه .

المبحث الثالث : ترجيح المخاطب بالآيات .

المبحث الرابع : موضع لم يرجح فيه الإمام الأرحم من أسباب النزول .

الفصل الثالث : أثر دلالة السّياق في إظهار تناسب الآيات وترباطها ،

وتحتة سبعة مباحث :

المبحث الأول : علامات تظهر الترابط والتناسب بين الكلام .

المبحث الثاني : الترابط والتناسب في الآية الواحدة .

- المبحث الثالث : المناسبات بين الآيات .
- المبحث الرابع : الربط بين مقاطع السورة .
- المبحث الخامس : التناسب والتقسيم .
- المبحث السادس : مناسبات إشارية .
- المبحث السابع : مواضع لم يذكر فيها الإمام الطبري - رحمه الله - الربط بين الآيات.

الفصل الرابع : أثر دلالة السّياق في الدّلالة على المعنى ،
وتحتة خمسة مباحث :

- المبحث الأول : دلالة السّياق على المعنى في الآية الواحدة .
 - المبحث الثاني : دلالة السّياق على المعنى في الآيات .
 - المبحث الثالث : دلالة السّياق على المخاطب أو الموصوف .
 - المبحث الرابع : احتمال السّياق لمعان متعددة .
 - المبحث الخامس : مواضع لم يستعن فيها بالسّياق لإظهار المعنى .
- الفصل الخامس : أثر دلالة السّياق في ذكر المعنى المناسب للسّياق إذا حذف متعلّقه لعمومه
ولا ينافي العموم ، وتحتة أربعة مباحث :
- المبحث الأول : ذكر المعنى الخاص للسّياق دون الإشارة إلى عموم اللفظ فيما يشاهده .
 - المبحث الثاني : ذكر المعنى الخاص للسّياق مع الإشارة إلى عموم اللفظ فيما يشاهده .
 - المبحث الثالث : ذكر المعنى الخاص للسّياق من ختام الآيات بأسماء الله - سبحانه وتعالى - مع الإشارة للعموم أو بدونها .
 - المبحث الرابع : مواضع لم يستعمل فيه الإمام ابن جرير - رحمه الله - الطريقة السابقة.

الفصل السادس : أثر دلالة السّياق في الدلالة على المحذوف من الكلام ، وتحتة ستة مباحث:
المبحث الأول : اللغة واستعمالات العرب ، وطريقتهم في الحذف .

- المبحث الثاني : قد يدل سبب النزول على حذف .
- المبحث الثالث : أمثلة على بعض أنواع الحذف بدلالة السياق .
- المبحث الرابع : الحذف قد يكون محتملاً ، بسبب السياق ، أو القراءة .
- المبحث الخامس : تقدير الحذف بما يناسب السياق .
- المبحث السادس : مواضع قدر فيها الإمام -رحمه الله- الحذف ، والراجح أنهما ليست كذلك، أو لم يقدر فيها الإمام -رحمه الله- محذوفاً مناسباً للسياق .
- الفصل السابع : أثر دلالة السياق على وجود النسخ أو عدمه ، وتحت مبحثان :**
- المبحث الأول : الاستدلال بالسياق على وجود النسخ المحقق أو عدمه .
- المبحث الثاني : الاستدلال بالسياق على عدم وجود النسخ .
- الفصل الثامن : أثر دلالة السياق على وجود تقديم أو تأخير ، وتحت مبحثان :**
- المبحث الأول : أسباب القول بالتقديم أو التأخير .
- المبحث الثاني : قد يكون السياق محتملاً للتقديم أو التأخير ، ولغيره .
- الفصل التاسع : أثر دلالة السياق في تضعيف بعض الأقوال ، وتحت ثمانية مباحث :**
- المبحث الأول : الترجيح بسبب اللغة .
- المبحث الثاني : الخصوص والعموم .
- المبحث الثالث : مراعاة المخاطب والمتكلم .
- المبحث الرابع : دلالة الكلمة والسياق واللاحق وموضوع السورة .
- المبحث الخامس : مراعاة التقابل والتقسيم المتوازن .
- المبحث السادس : تضعيف ما لم يرد ذكره في السياق .
- المبحث السابع : مراعاة عود الكلام على القريب .
- المبحث الثامن : مواضع لم يكن فيها تطبيق للتعامل نفسه .
- الخاتمة : وفيها أهم النتائج ، والمقترحات .**
- الفهارس : ذُيِّلت البحث بفهارس للآيات ، والأحاديث ، والأعلام ، والمراجع ، والموضوعات .**

منهجي في البحث :

- عزوتُ الآيات بأرقامها إلى سورها ، ووُثقتُ القراءات ، وبيّنت المتواتر منها والشاذ .
- خرّجتُ الأحاديثَ النَّبَوِيَّةَ ، وحكمتُ على غير ما في الصّحّيحين ، أمّا ما ورد في الصّحّيحين فأكتفي بالإحالة عليهما .
- ووثقتُ المنقولَ عن تفسير جامع البيان للطبري ، فما كان من أوّل القرآن إلى نهاية الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم ، فإنّ المعتمد فيه الطبعة المحقّقة للشيخين : أحمد ومحمود شاكر^(١) ، وسأذكر الطبعتين ، والأولى منهما طبع دار الكتب العلمية، والثانية سميتها اختصاراً ، بـ "تحقيق شاكر" ، وما بعد الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم، فالمعتمد طبع دار الكتب العلمية .
- وقد نقلتُ كلام ابن جرير -رحمه الله- وعرضه الأقوال وترجيحه بينها ؛ ولو طال النقل لبيكون كلامه واضحاً ، وليكون للقارئ الحكم على الاستنتاج قبولاً أو رداً ، وليعتاد على أسلوب الإمام الطبري -رحمه الله- الذي قد صعبُ على كثيرين .
- إذا حذفْتُ شيئاً من النصّ المنقول وضعت مكانه نقطاً "... " ، وإذا كان هناك توضيح له جعلته بين معكوفتين [] ، وسأحيلُ غالباً على الجزء والصفحة لبداية النصّ ، أمّا المواضع التي في الحاشية فسأحيلُ على أوّل الآية ورقمها ، وأمّا الصّفحة فهي على الشاهد منها دائماً وقد حاولت حصر المواضع المتعلقة بالسياق وذكرها في الحاشية وإن طالت ؛ لتكون المواضع قريبة من المهتمين بهذا الموضوع .
- عرّفتُ بالأعلام غير المشهورين ، دون إشارة إلى من سبقت ترجمته ، وعرّفتُ بالأماكن غير المشتهرة ، وذكرتُ معنى الألفاظ الغريبة .
- وقد تبين لي من عود النَّظَر إلى البحث مرةً بعد أخرى ، أن تصحيح المكتوب لا يتناهى ، فلا يزال الكاتب يقول : ينبغي أن يقدم هذا ، ويؤخّر ذلك ، ويزاد في هذا وينقص من الآخر ، وهكذا ،

(١) سبقت ترجمة الأستاذ محمود شاكر صفحة (٨) ، وأما أخوه : فهو أحمد بن محمد شاكر بن آل أبي علي ، ولد سنة ١٣٠٩هـ ، تولى القضاء بمصر أكثر من ثلاثين سنة ، علامة في التخريج ودراسة الأسانيد ، حقّق جزءاً من مسند الإمام أحمد ، وجزءاً من تفسير جامع البيان للطبري ولم يتمهما ، والرسالة ، وغيرها ، ومن مؤلفاته : عمدة التفسير ، وهو مختصر من ابن كثير ، وله كتاب عن الطلاق في الإسلام ، وغيرها ، توفي سنة سبع وسبعين وثلاث مائة وألف -رحمه الله- . انظر ترجمة محمود لأخيه أحمد في مقدمة كتاب حكم الجاهلية ، لأحمد شاكر ، صفحة (١٩-٢٤) ، ومقدمة المجلد الثالث عشر من تفسير جامع البيان لمحمود شاكر (٥/١٣) .

فالكمال عزيز، وهو لكلام الله العزيز . فأمثل قول القاضي الفاضل ^(١) للعماد الأصبهاني ^(٢): " إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانُ كتاباً في يومه، إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر. " ^(٣)

ثم أشكرُ كلَّ من ساعدني في هذه الرسالة برأيٍ أو توجيهٍ أو نصحٍ أو تقويم ، أو دلالةٍ على كتاب أو إعارَةٍ ، أو غير ذلك ، وأخص منهم : لجنة المناقشة -سبق التنويه بهم أول الكتاب- فقد كان لآرائهم وتوجيهاتهم الأثر الحسن في تقويم البحث وتكميله ، كما أشكر فضيلة الدكتور مساعد بن سليمان الطيار ، وابن أخي فواز بن محمد القاسم ، على جهودهما ، فجزى الله الجميع خيراً الجزاء .
وبعدُ : فقد بذلتُ جهدي لتخرج هذه الرسالة على أحسن ما يُرام ، ولكن القصور والخطأ من بني البشر لازم ، وما منّا إلا رادُّ ومردود عليه إلا رسول الله -ﷺ- ، فإن أصبتُ فمن الله وحده ، وهو الكريم المنان ، وإن أخطأتُ فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله وأتوب إليه وهو الرحيم الرحمن .
والحمد لله رب العالمين .

وكتب :

عبد الحكيم بن عبد الله بن عبد الرحمن القاسم

الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود

١٤٣١/٢/١٩ هـ .

aabuhkeem@gmail.com

ص ب ٢٤٢٢١٠ الرياض ١١٣٢٢

(١) هو عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني ، إمام الأدباء ، وقائد لواء أهل الترسل ، وصاحب صناعة الإنشاء ، وكان صديق السلطان صلاح الدين الأيوبي وعضده ووزيره وصاحب ديوان إنشائه ، له كتب منها : ترسل القاضي الفاضل ، مات سنة ست وتسعين وخمسمائة للهجرة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٢٥٣/٤) والأعلام (٣٤٦/٣) .

(٢) هو محمد صفي الدين بن نفيس ، الأديب الكاتب ، ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة ، له كتاب خريدة العصر ، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٣٤٥/٢١) ، وشذرات الذهب (٣٣٢/٤) ، والأعلام (٢٥٣/٧) .

(٣) انظر شرح الإحياء للزبيدي ٣/١ .

التمهيد

ويحوي ثلاثة أمور :

- الأول : ترجمة موجزة للإمام : محمد بن جرير الطبري-رحمه الله- .
- الثاني : التعريفَ بتفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
- الثالث : عرضاً مختصراً لدلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين .

مدخل : أَلف علماء المسلمين مؤلفاتٍ كثيرةً في التفسير ، وكان من أشهرها : تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن - وهو محلّ البحث والدراسة - للإمام محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - ؛ ولا بد من التعرف على ترجمة موجزة للمؤلف ، ولحظة يسيرة مقتضبة عن تفسيره : جامع البيان .

- الأول : ترجمة موجزة للإمام محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - :

وفيها نتعرف على العناصر التالية :

- ١ - نسبه ، ومولده .
- ٢ - نشأته .
- ٣ - رحلاته .
- ٤ - شيوخه ، وتلامذته .
- ٥ - علومه .
- ٦ - تدريسه ، وتأليفه .
- ٧ - مذهبه العقدي .
- ٨ - مذهبه الفقهي .
- ٩ - صفاته : الخلقية ، والخلقية .
- ١٠ - وفاته ، وراثؤه .

١- نسبه ، ومولده :

- أ - نسبه : هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب .^(١)

وقيل : يزيد بن كثير بن خالد .^(٢)

ولم يكن ابن جرير مهتماً بهذا الأمر كثيراً ، فلما سُئِلَ عن نسبه ؟ قال : محمد بن جرير . قال السائل : زدني ، فردّ عليه بيت رؤبة بن العجاج^(٣) :

قد رفع العجاجُ ذكري فادعني باسمي إذا الأنسابُ طالتْ يكفني .^(٤)

وقال ابن خلّكان^(٥) : وأبو بكر الخوارزمي - الشاعر المشهور - ابن أخته .^(٦)

ولكن ردّ ذلك ياقوت^(٧) ؛ لأن أبا بكر رافضي ، ولما رأى الحنابلة سبّته ؛ اغتمم سبّه له ،

(١) تاريخ بغداد (١٦٢/٢) للخطيب البغدادي ، ومعجم الأدباء (٤٠/١٨) لياقوت الحموي .

(٢) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) لابن النديم ، ووفيات الأعيان (١٩١/٤) لابن خلّكان ، والوفاء بالوفيات (٢٨٤/٢) للصفدي .

(٣) هو أبو الحجاج ، رؤبة بن العجاج والعجاج هو عبد الله بن رؤبة بن النبيد بن صخر التميمي ، ولد تقريباً سنة خمس وستين ، الشاعر الأموي ، توفي سنة خمس وأربعين ومائة . انظر معجم الشعراء صفحة (١٢١) ، للمرزباني ، وقذيب التهذيب (٦١٣/١) لابن حجر ، ولسان الميزان (٤٦٥/٢) لابن حجر أيضاً .

(٤) معجم الأدباء (٤٧/١٨) .

(٥) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي البرمكي ، ولد سنة ثمان وستمائة ، المؤرخ الأديب الماهر ، تولى القضاء ، من مؤلفاته : وفيات الأعيان ، توفي سنة إحدى وثمانين وستمائة . انظر شذرات الذهب (٣٧١/٥) ، والأعلام (٢١٢/١) .

(٦) وفيات الأعيان (١٩٢/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٢٦/١٦) . وأبو بكر الخوارزمي هو : محمد بن العباس الطبرخزي ؛ لأن أمه من طبرستان وأبوه من خوارزم ، من الكتاب والشعراء والنسائيين ، له الرسائل المشهورة بالرسائل الخوارزمية ، وله ديوان شعر ، توفي بنيسابور ، سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وقيل غير ذلك . انظر الأنساب للسمعاني (٤٤/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٢٦/١٦) ، والأعلام (٥٢/٧) ، وأثبت الخوانساري أن هذا الخوارزمي ليس ابن خالة الطبري صاحب تفسير جامع البيان . انظر روضات الجنات صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

(٧) هو أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس ، الحموي المولد ، البغدادي الدار ، الوراق المهنة ، ولد سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ، أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة ، أديب شاعر ، له : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وغيرهما ،

ووصفه بأنه رافضي ، وليس كذلك .^(١)

- وكنيته : أبو جعفر ، ولم يتزوج ؛ فقد قال عن نفسه : "وما حَلَلْتُ سراويلي"^(٢) على حرامٍ ولا حلال قط"^(٣) .

- ب - مولده :

- مكان المولد ، وتاريخه :

- أما مكان مولد أبي جعفر فهو المسمّى - قديماً - : بمدينة أمْلُ - بضم الميم واللام - وهي أكبر مدن سهل طَبْرِسْتَان وأعرها ، وإقليم طَبْرِسْتَان مجاور لجيلان وديلمان ، وهو بين الرّي وقومس ، والبحر وبلاد الديلم والجبل .^(٤)

وحاليّاً : يتبع إقليم طَبْرِسْتَان لدولة إيران ، في شمالها ، جنوب بحر قزوين ، غربي بابل ، وجنوب محمود آباد ، على شاطئ نهر هراز .^(٥)

ويُنسَب إلى المدن والقرى في إقليم طَبْرِسْتَان فيقال : طَبْرِيّ ، وإذا نُسِب إلى بحيرة طَبْرِيسَ أو بلدة طبرية بالشام قيل : طَبْرَانِيّ^(٦) .

- أما تاريخ مولده : فقد كان سنة أربع ، أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين .^(٧)

تأثر بكتب بعض الخوارج ، توفي سنة ست وعشرين وستمائة ، عن نيف وخمسين سنة . انظر وفيات الأعيان (١٢٧/٦) ، وسير أعلام النبلاء (١٧٩/٢٠) ، وشذرات الذهب (١٢١/٥) .

(١) معجم البلدان (٥٧/١) لياقوت ، وأيد ذلك صاحب روضات الجنات صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

(٢) فارسية معربة ، وسراويل مفرد ، جمعه سراويلات . انظر ترتيب القاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٥٧/٢) .

(٣) معجم الأدباء (٥٥/١٨) .

(٤) انظر معجم البلدان (١٣/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٠/١٤) .

(٥) دائرة المعارف (٣٥٧/١) إدارة البستاني ، بيروت ١٩٥٦ م .

(٦) انظر الأنساب المتفقة صفحة (٩٥) ، لابن القيسراني ، وانظر الأنساب للسمعاني (٤٥٢/٤) .

(٧) معجم الأدباء (٤٠/١٨) .

وقد سأل ابنُ كاملٍ^(١) شيخَه ابنَ جريرٍ : عن سبب الشكِّ في ذلك ؟ فأجاب : لأنَّ أهلَ بلدنا يُؤرِّخون بالأحداث دون السنين ، فأرَّخَ مولدي بحدثٍ كان في البلد ؛ فلما نشأتُ سألتُ عن ذلك الحادث ، فاختلف المخبرون لي ، فقال بعضهم : كان ذلك في آخر سنة أربع ، وقال آخرون: بل كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين .^(٢)

- حالة مدينة آمل - التي نشأ وترعرع فيها الطبري - سياسياً :

اتَّخذَ الحسنُ بنَ زيدِ العلوي^(٣) "آمل" مقراً له ، عندما تغلَّبَ عليها في سنة : خمسين ومائتين للهجرة ، وبقيت كذلك في عهد أخيه محمد بن زيد^(٤) بعده ، حتى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة ، عندما تغلَّبَ عليها السامانيون ، الذين أقاموا إمارةً شبه مستقلةً في ما وراء النهر ، وجعلوا مدينةً بخارى قاعدةً لهم .^(٥)

وبالجملة فعصر الدولة العباسية الذي عاش الإمام الطبري منه خمسة وسبعين عاماً ، كانت العلوم الدينية فيه قويَّة العودِ يانعة الثمرِ ، وكانت دنيا العلم دائبة الحركة لا تهدأ ولا تترتُّ ؛ فكثرت المؤلفاتُ ، وعمَّت المناقشاتُ ، وعمَّقت المناظراتُ ، واستقرَّت دعائمُ المذاهبِ الفقهيةِ ، ونشطت

(١) هو أبو بكر ، أحمد بن كامل بن خلف البغدادي القاضي ، ولد سنة ستين ومائتين ، وهو تلميذ محمد بن جرير الطبري ، عالم بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر والتواريخ ، وله في ذلك مصنفات ، كان يختار ولا يقلد ، توفي سنة خمسين وثلاثمائة ، وله تسعون سنة . انظر سير أعلام النبلاء (٥٤٤/١٥) ، وشذرات الذهب (٢/٣) .

(٢) معجم الأدباء (٤٨/١٨) .

(٣) هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ظهر على طبرستان سنة خمسين ومائتين ، واستولى على جرجان سنة سبع وخمسين ومائتين ، كان عالماً فقيهاً متواضعاً ، وتوفي سنة سبعين ومائتين ، وكانت ولايته قرابة عشرين سنة . انظر الكامل (٣١٦/٥ و٣٦٣) و(٥٥/٦) .

(٤) هو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، تولى بعد أخيه سنة سبعين ومائتين ، وكان فاضلاً أديباً شاعراً حسن السيرة ، وقتل سنة سبع وثمانين ومائتين . انظر الكامل (٩٦٩٧ و٥٥/٦) .

(٥) انظر مجلة المؤرخ العربي ، عدد (٣٧) ، صفحة (١٤١) ، بحث أحمد عبد الباقي - عضو اتحاد المؤرخين العرب - بغداد .

مدارس الحديث... ودونت السيرة والتاريخ^(١).

وإن كانت حالة الدولة الإسلامية الانقسام السياسي، إلا أنه لم يؤثر على النهضة العلمية بالسلب؛ بل كان أصحاب الإمارات يكرمون العلماء، ويهدون لهم الجوائز على بحوثهم، فهو عصر من أزهى العصور تقدماً وإنتاجاً^(٢).

٢ - نشأته :

قال ابن جرير لتلميذه ابن كامل: حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين، ورأى لي أبي في النوم، أنني بين يدي رسول الله - ﷺ - وكان معي مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه، فقال له المعبر: إنه إن كبر: نصح في دينه، وذبح عن شريعته؛ فحرص أبي على معونتي على طلب العلم، وأنا حينئذ صبي صغير^(٣). فكان منذ نعومة أظفاره شغوفاً للعلم، فحفظ القرآن، وكتب الحديث، وكانت رؤيا والده مشجعةً له على تفرغه من كل شغل، إلا العلم الشرعي، وما انفك يرسل إليه بالنفقة والكسوة؛ رجاء تحقيق رؤياه التي يفرح بها كل مسلم.

وقال ابن كامل: فأول ما كتب الحديث ببلدة الرّي وما جاورها، وأكثر الشيوخ حتى حصل على كثير من العلم...^(٤)

وقال الفرغاني^(٥): رحل ابن جرير من مدينة "آمل" لما ترعرع، وسمح له أبوه بالسفر، وكان طول حياته يُنفذ إليه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان، فسمعتة يقول: أبطأت عني نفقة والدي؛

(١) الطبري ومنهجه في التفسير صفحة (٤٣)، للدكتور محمود بن الشريف .

(٢) انظر كتاب "الإمام الطبري" صفحة (٧-٨)، لعبد الله آل شاكر .

(٣) معجم الأدياء (٤٩/١٨) .

(٤) معجم الأدياء (٤٩/١٨) .

(٥) هو أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني التركي، ألف كتاب الصلة لوصول تاريخ ابن جرير، حدثت بدمشق،

توفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. انظر معجم الأدياء (٤٤/١٨)، وسير أعلام النبلاء (١٣٢/١٦) .

واضطُررتُ إلى أن فتقت كَمِّي القميصِ فبعتهما (١).
ومع حرص والده على إرسال النفقة ، إلا أنّها قد تتأخّر أحياناً ، ولكنّ الإمام أشدّ حرصاً على العلم ، وصبراً على التحصيل ، والتضحية من أجله ، فيبيع شيئاً من لباسه ؛ لينفق على نفسه في طلب العلم ، وذلك الحرص وقت ريعان شبابه ، فما بالك بما بعده .

٣ - رحلاته العلمية :

- رحل أبو جعفر -رحمه الله- رحلات كثيرة : منها :
- إلى بغداد ؛ ليسمع من أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، فلم يتفق ذلك ؛ لموته قبيل دخوله إليها ، فأقام أبو جعفر بمدينة السلام -بغداد- ، وكتب عن شيوخها فأكثر .
 - ثم انحدر إلى البصرة ، وكتب في طريقه عن شيوخه الواسطيين .
 - ثم صار إلى الكوفة .
 - ثم عاد إلى بغداد ، فكتب بها ولزم المقام بها مدّة وتفقه بها ، وأخذ في علوم القرآن .
 - ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ : بأجناد الشام ، والسواحل ، والثغور ، وأكثر منها .
 - ثم صار إلى الفسطاط (٢) ، سنة ثلاث وخمسين ومائتين للهجرة ، - وعمره تسع وعشرون سنة - وكان بها بقيّة من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثر عنهم الكتابة .
 - ثم عاد إلى الشام .
 - ثم رجع ثانية إلى مصر ، سنة ست وخمسين ومائتين للهجرة .
 - ثم رجع إلى بغداد .

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٦-٢٧٧) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢٥) للسبكي . والكُم : مدخل اليد ومخرجها من

الثوب ، ترتيب القاموس ، مادّة : ك م م (٤/٨٢) .

(٢) مدينة بناها عمرو بن العاص -رضي الله عنه- بمصر .

- ثم إلى طَبْرِسْتان : وهي المرة الأولى ، ثم الثانية : سنة تسعين ومائتين .
- ثم رجع إلى بغداد ، فنزل في قنطرة البردان ، واشتهر اسمه في العلم ، وشاع خبره في الفهم والتقدم^(١).

قال مسلمة بن قاسم^(٢): "...رحل من بلده في طلب العلم ، وهو ابن اثني عشرة سنة - سنة ست وثلاثين - ، فلم يزل طالباً للعلم ، مولعاً به إلى أن مات ."^(٣)
وهكذا ترى الإمام رحالة من قَطْرٍ إلى قَطْرٍ ، في جمع العلم ومدارسه ، وظهرت ثمرة ذلك الجهد والجلد ، في المصنّفات التي تركها للأمة الإسلامية .

- ٤ - شيوخه ، وتلاميذه :

- أ - شيوخه :

كان للإمام ابن جرير - رحمه الله - من الهمة العالية ، والصبر على المشقة ، ما يعجب له طلاب العلم في ذلك الوقت ، وقصته في إملاء كتاب التفسير والتاريخ شاهدة على ذلك - وستأتي في الحديث عن كتابه جامع البيان - ؛ ولتلك الهمة العالية ، والصبر على تحصيل العلم ، فقد رحل إلى أماكن كثيرة ، وأخذ عن مشايخ كثير ، أذكر أشهرهم ، على حسب العلم الذي أخذه عنهم ابن جرير - قدر المستطاع - .

- شيوخه في القراءات : قرأ القرآن على :

١ - أحمد بن يوسف التّغلي ، المتوفى سنة إحدى وخمسين ومائتين .

(١) معجم الأدياء (١٨/٥٠-٥٦) باختصار وتصرف .

(٢) هو مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم الأندلسي القرطبي ، ولد سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، مؤرخ محدث ، له التاريخ الكبير ، وتاريخ في الرجال ، توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٦/١١٠) ، ولسان الميزان (٦/١٤١) ، والأعلام (٨/١٢٢) .

(٣) لسان الميزان (٥/١٠٢) .

- ٢ - وسليمان بن عبد الرحمن الطلحي -صاحب خلاّد-، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ٣ - والعبّاس بن الوليد بن مزيد ، ببيروت ، المتوفى سنة ثمان وخمسين ومائتين .
- ٤ - وأبو كريب محمد بن العلاء الهمداني ، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين .
- ٥ - وقرأ على يونس بن عبد الأعلى الصّدفي ، بمصر ، المتوفى سنة: أربع وستين ومائتين .^(١)

- شيوخه في الفقه :

درس كتاب الأم : ببغداد على :

- ٦ - الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ، المتوفى سنة : ستين ومائتين .
- ٧ - وأبي سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري ، وكان أصغر سنّاً منه ، ولد سنة أربع وأربعين ومائتين ، وتوفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .^(٢)
- ٨ - وأخذ فقه الشافعي بمصر ، عن الرّبيع بن سليمان الأزدي ، المتوفى سنة سبعين ومائتين .
- ٩ - ودرس بمصر مذهب مالك على سعد ، وعبد الرحمن ، ومحمد بني عبد الله بن عبد الحكيم .
- ١٠ - ودرس مذهب أبي حنيفة بالرّيّ ، على أبي مقاتل .
- ١١ - ودرس على داود بن علي الظاهري - المتوفى سنة سبعين ومائتين - مذهبه .^(٣)

- شيوخه في الحديث والتفسير بالمأثور :

- ١٢ - محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي ، المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين .
- ١٣ - وإسحاق بن إسرائيل المروزي ، المتوفى سنة أربع وخمسين ومائتين .

(١) انظر معرفة القراء الكبار (٢٦٤/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢١/٣) ، وغاية النهاية (١٠٧/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١١٠ و١٠٧/٢) .

(٢) انظر معجم الأدباء (٥٣/١٨) ، وطبقات الشافعية (١٩٣/٢) .

(٣) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) .

- ١٤ - وأحمد بن منيع البغوي ، المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين .
- ١٥ - ومحمد بن حميد الرّازي ، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين .
- ١٦ - وأبي همام الوليد بن شجاع ، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .
- ١٧ - ويعقوب بن إبراهيم الدّورقي ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ١٨ - وهناد بن السّري ، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .
- ١٩ - وعمرو بن علي ، المتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين .
- ٢٠ - ومحمد بن بشّار ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ٢١ - ومحمد بن المثنّى ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ٢٢ - وعبداد بن يعقوب ، المتوفى سنة خمسين ومائتين .
- ٢٣ - وعبد الله بن إسماعيل الهبّاري ، المتوفى سنة خمسين ومائتين .
- ٢٤ - وبشر بن معاذ العقديّ ، المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين .
- ٢٥ - وأبو كريب محمد بن العلاء ، - شيخه في القراءة - قال ياقوت : أخذ عنه أكثر من مائة ألف حديث ^(١) .
- ٢٦ - وعمران بن موسى القزّاز ، المتوفى سنة خمس وثلاثمائة ^(٢) .
- أما في النحو والأدب واللغة والشعر :
- ٢٧- فأحمد بن يحيى ، الملقّب بثعلب ، إمام نخاة الكوفة ، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، فقد قال : " قرأ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء ، قبل أن يكثر الناس عندي بمدة طويلة " ^(٣) .
- هذا ولو كان المقصود حصر مشايخ الإمام لطلال عدّهم في هذا المقام ، ولكن هؤلاء أشهرهم ،
- غفر الله للجميع - .

(١) معجم الأديباء (١٨/٥١-٥٢) .

(٢) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) ، وتاريخ بغداد (٢/١٦٢) ، والمنتظم (٦/١٧٠) ، وكتاب الإمام الطبري صفحة (٢١-٢٢)

(٢٢) لعبد الله آل شاعر ، بتصرف واختصار .

(٣) معجم الأديباء (١٨/٥٣) .

ب - تلامذته :

لقد كان لمنزلة ابن جرير - رحمه الله - العلمية ، وسعتها للعلوم الشرعية واللغوية الأثر الكبير في كثرة التلاميذ ، مما يعيق حصرهم ، وما لا يدرك كله لا يترك جله ، فأذكر أشهرهم .

- تلاميذه في القراءات :

روى عنه الحروف - القراءات - :

- ١- أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد - مؤلف كتاب السبعة في القراءات - المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ، غير أنه دلّس اسمه ، فقال : حدثني محمد بن عبد الله ^(١) .
- ٢- وعبد الله بن أحمد الفرغاني ، المتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وقد روى بعض تفسير جامع البيان ^(٢) .

٣- وعبد الواحد بن عمر ، المتوفى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة .

٤- ومحمد بن أحمد الداجوني ، المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ^(٣) .

ومن تلاميذه في غير القراءات :

- ٥- أبو بكر محمد بن داود بن سليمان البغدادي الفقيه ، المتوفى سنة ست وثلاثين وستمائة وقد روى بعض التفسير ^(٤) .
- ٦- وأبو بكر أحمد بن كامل القاضي ، المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة ، وقد ترجم لشيخه الطبري .
- ٧- وأبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي .

(١) أنكر بعض المعاصرين تدليس الاسم هذا من ابن مجاهد ، وحثتهم : أن الإمام ابن الجزري ذكر من تلاميذ يونس بن عبد الأعلى : محمد بن عبد الله الفقيه ، ولعله الذي ذكره ابن مجاهد ، وابن مجاهد كان معظماً لابن جرير ، وقد روى الإمام الدارقطني وغيره من كبار المحدثين عن ابن مجاهد . انظر مقدمة شوقي ضيف على كتاب السبعة لابن مجاهد صفحة (٢٦-٢٧) ، وكتاب دفاع عن القراءات للدكتور : لبيب السعيد ، هامش صفحة (١١) .

(٢) انظر جامع البيان بتحقيق شاکر (٤٩٦/٦) .

(٣) انظر غاية النهاية (١٠٧/٢) لابن الجزري ، وطبقات المفسرين (١١٠/٢) للدواودي .

(٤) انظر جامع البيان بتحقيق شاکر (٤٩٦/٦) .

- ٨- ومُخَلد بن جعفر الباقِرْحِي ، المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة^(١) .
- ٩- وأبو شعيب عبد الله بن الحسن بن أحمد الحرّاني، المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .
- ١٠- وأبو عمرو محمد بن أحمد النيسابوري ، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة .
- ١١- وعلي بن الحسن بن علّان الحافظ ، المتوفى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة .
- ١٢ - وأبو الطيب عبد الغفار بن عبد الله السري الحُضَيْني المقرئ الواسطي ، المتوفى سنة سبع وستين وثلاثمائة .
- ١٣ - وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، صاحب المعجم الثلاثة ، المتوفى سنة ستين وثلاثمائة^(٢) .
- ١٤ - وأبو الفرج الأصفهاني ، صاحب كتاب الأغاني ، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة^(٣) .
- ١٥ - وأبو أحمد عبد الله بن عُديّ بن القَطّان الجرجاني ، صاحب كتاب الكامل ، المتوفى سنة خمس وستين وثلاثمائة .
- ١٦ - والقاضي محمد بن زُبَر ، المتوفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة .
- ١٧ - وأحمد بن القاسم الحشّاب ، المتوفى سنة أربع وستين وثلاثمائة^(٤) .
- وغير هؤلاء كثير كثير - غفر الله للجميع - .

٥ - علومه :

لقد جمع الإمام ابن جرير من العلوم ما لم يجتمع لغيره ، وإليك أقوال العلماء في ذكر علومه:

- قال أبو بكر محمد بن خزيمة -رحمه الله-^(٥) - لما استعار التّفْسيْر من ابن

(١) انظر تاريخ بغداد (٢/١٦٢) .

(٢) انظر طبقات المفسرين للداوودي (٢/١٠٧) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (١١/٣٩٨) ، ومعجم الأدباء (١٨/٨٧) .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء (١٤/٢٦٩) .

(٥) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ، ولد سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، محدث كبير ، شديد التحري في الحديث ، وله استخراج دقيق للنكت من الأحاديث ، من مؤلفاته : صحيح ابن خزيمة ، وهو يتلو صحيح مسلم على ما

بالويه^(١) وردّه بعد سنين - : " نظرتُ فيه من أوّلِهِ إلى آخِرِهِ ، وما أعلمُ على ظهِرِ الأرضِ أعلمَ من ابنِ جريرٍ . " ^(٢) .

- وقال الذهبي - رحمه الله - ^(٣) : " الإمامُ العَلَمُ المجتهدُ ، عالمُ العصرِ ، ... وكان من أفرادِ الدهرِ : علماً ، وذكاءً ، وكثرةَ تصانيفٍ ، قلَّ أن ترى العيونُ مثله " ^(٤) .

- أما في حسن قراءته خاصة :

- فقد قال أبو علي الطوماري^(٥) : " كنت أحملُ القنديلَ في شهرِ رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد ^(٦) إلى المسجد ؛ لصلاة التراويح ، فخرج ليلةً من ليالي العشرِ الأواخرِ من داره ، واحتاز على مسجده فلم يدخله - وأنا معه - ، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَشِ ، فوقف بباب مسجدِ محمدٍ

-
- =
- ذكره السيوطي في ألفيته ، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (١٠٩/٣) ، وشذرات الذهب (٢٦٢/٢) ، والرسالة المستطرفة للكتاني صفحة (٢٣ و٢٠) .
- (١) هو أبو بكر ، محمد بن أحمد بن بالويه الجلاب النيسابوري ، من كبراء بلده ، إمام كتب عن الأئمة ، توفي سنة أربعين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٤١٩/١٥) .
- (٢) معجم الأدباء (٤٢/١٨ - ٤٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) .
- (٣) هو شمس الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، التركماني ، الشافعي ، مؤرخ الإسلام ، ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، إمام في القراءات ، آية في نقد الرجال ، عمدة في الجرح والتعديل ، له مصنفات كثيرة منها : تاريخ الإسلام الكبير ، واختصاره : سير أعلام النبلاء ، توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى لتلميذه السبكي (١٠٠/٩) ، وشذرات الذهب (١٥٣/٦) .
- (٤) سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤) .
- (٥) هو عيسى بن محمد بن أحمد الجريجي الطوماري البغدادي ، من ذرية فقيه مكة ابن جريج ، ولد سنة اثنتين وستين ومائتين ، صحب ابن طومار الهاشمي فنسب إليه ، توفي سنة ستين وثلاثمائة . انظر تاريخ بغداد (١٧٦/١١) ، والأنساب (٨٢/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٦٤/١٦) .
- (٦) هو أبو بكر ، أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ، ولد سنة خمس وأربعين ومائتين ، شيخ القراء في وقته ، شافعي عابد ، ألف : كتاب السبعة في القراءات ، توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة . انظر معرفة القراء الكبار (٢٦٩/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٥٧/٣) ، وغاية النهاية (١٣٩/١) .

بن جرير ، ومحمدٌ يقرأ سورةَ الرحمن ، فاستمع قراءته طويلاً ، ثم انصرف ، فقلت له : يا أستاذ : تركتَ الناس ينتظرونك ، وجئتَ تسمعُ قراءةَ هذا ؟ ، فقال : يا أبا عليّ ، دع هذا عنك ، ما ظننتُ أنّ الله - تعالى - خلقَ بشراً يُحسِنُ يقرأُ هذه القراءة ، أو كما قال .^(١)

فهذا القولُ من عالمِ القراءات : أبي بكر ابن مجاهد ، له ميزانه وقدره .

-أما مَنْ ذَكَرَ عامّةَ علومه :- فمنهم ابنُ التّديم^(٢) فقد قال : " كانَ متفَنِّناً في جميعِ العلوم : علمِ القرآنِ ، والنحوِ ، والشعرِ ، واللغةِ ، والفقهِ ، كثيرَ الحفظِ . وقال : ورأيتُ أنا بخطّه شيئاً كثيراً : من كتبِ اللّغةِ ، والنحوِ ، والشعرِ ، والقبائلِ " ^(٣) .

- و الخطيبُ البغداديّ^(٤) - رحمه الله - حيث يقول : " وكان أحدَ أئمةِ العلماءِ ، يُحكّمُ بقوله ، ويُرجع إلى رأيه ؛ لمعرفته وفضله ، وكان قد جمَعَ من العلومِ ما لم يشاركهُ فيه أحدٌ من أهلِ عصره ، وكان حافظاً لكتابِ الله ، عارفاً بالقراءاتِ ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكامِ القرآنِ ، عالماً بالسننِ وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوالِ الصحابةِ والتابعينَ ، ومن بعدهم من الخالفينَ ، في الأحكامِ ، ومسائلِ الحلالِ والحرامِ ، عارفاً بأيامِ الناسِ وأخبارِهِم ، وله الكتابُ المشهورُ ، في تاريخِ الأممِ والملوكِ ، وكتابٌ في التفسيرِ ، لم يصنّفْ أحدٌ مثله ، وكتابٌ سمّاهُ : تهذيبَ الآثارِ ، لم أرَ سواهُ في معناه ، إلا أنّه لم يتمّه ، وله في أصولِ الفقهِ وفروعه كتبٌ كثيرةٌ ،

(١) انظر تاريخ بغداد (١٦٤/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢٤/٣) .

(٢) هو أبو الفرج ، محمد بن إسحاق النديم الوراق ، ولد سنة سبع وتسعين ومائتين ، وهو شيعي إمامي معتزلي ، له أقدم كتاب في التراجم : "الفهرست" ، وله التشبيهات ، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك. انظر لسان الميزان (٧٢/٥) ، والأعلام (٢٥٣/٦) .

(٣) الفهرست صفحة (٢٩١) .

(٤) هو أبو بكر ، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب ، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، مقرئ محدث فقيه شافعي مؤرخ أديب ، صنّف قريبا من مائة مصنف ، منها : تاريخ بغداد ، والفقيه والمتفقه ، وشرف أصحاب الحديث ، توفي ببغداد سنة ثلاث وستين وأربعمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٢٧٠/١٨) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٢٩/٤) ، وشذرات الذهب (٣٠٢/٢) .

واختياراً من أقاويل العلماء، وتفرّد بمسائل حُفِظَتْ عنه " (١).

- ومنهم الذهبي - رحمه الله - الذي يقول: " كان ثقةً ، صادقاً ، حافظاً ، رأساً في التفسير ، إماماً في الفقه ، والاجتماع ، والاختلاف ، علامةً في التاريخ وأيام الناس ، عارفاً بالقراءات وباللغة ، وغير ذلك " (٢).

- وقال فيه أبو علي الحسن بن علي الأهوازي المقرئ - رحمه الله - (٣): " كان أبو جعفر الطبري عالماً بالفقه ، والحديث ، والنحو ، واللغة ، والعروض ، له في جميع ذلك تصانيف ، فاق بها على سائر المصنّفين ، وله في القراءات كتابٌ جليلٌ كبيرٌ... " (٤).

- وقال هارون بن عبد العزيز - رحمه الله - (٥): " قال أبو جعفر: لما دخلتُ مصرَ ، لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلا لقيتني وامتنحتني في العلم الذي يتحقق به ؛ فجاءني يوماً رجلاً ، فسألني عن شيءٍ من العروض ، ولم أكن نشطتُ له قبلُ ذلك ، فقلتُ له : عليّ قولٌ ألا أتكلّم اليومَ في شيءٍ من العروض ؛ فإذا كان في غدٍ فصّرُ إليّ ، وطلبتُ من صديقٍ لي العروضَ ، للخليل بن أحمد (٦) ، فجاء

(١) تاريخ بغداد (١٦٣/٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٦٩/١٤) .

(٣) هو أبو علي ، الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي ، ولد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، محدث مقرئ مصنف في القراءات ، وله فيها غرائب ، متهم في روايته في القراءات ، والخطيب البغدادي يتهمه فيها وفي الحديث جميعاً ، أي : في تركيب الإسناد وأدعاء اللقاء ، وليس وضع الحروف والمتون ، توفي سنة ست وأربعين وأربعمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٣/١٨) ، وشذرات الذهب (٢٧٤/٣) .

(٤) انظر معجم الأدباء (٤٥/١٨) .

(٥) هو أحد تلامذة ابن جرير الطبري ، لم أجد له ترجمة ، روى عن الطبري ، وروى عنه الفرغاني صاحب صلة تاريخ ابن جرير . ورد في سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) عند ترجمة ابن جرير الطبري .

(٦) هو أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد بن تميم الأزدي الفراهيدي ، وفراheid بطن من الأزدي ، ولد سنة مائة ، لم يسم أحد بعد نبينا ﷺ - أحمد قبل أبي الخليل هذا ، إمام النحو ومنشئ علم العروض والعربية ، شيخ سيويه ، له كتاب العين ولم يتمه ، وله كتاب في العروض وآخر في الشواهد ، توفي بالبصرة سنة سبعين ومائة وقيل غير ذلك . انظر المعارف صفحة (٥٤١) ، وإنباه الرواة (٣٤١/١) ، وتهديب الأسماء واللغات (١٧٧/١) ، وسير أعلام النبلاء (٤٢٩/٧) ، وطبقات =

به ، فنظرتُ فيه ليلتي ، فأمسيتُ غير عروضيٍّ ، وأصبحتُ عروضياً...^(١) " وقال عبد العزيز بن محمد -رحمه الله-^(٢) : "...وكان أبو جعفر قد نُظِرَ في المنطق ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، وكثير من فنون أبواب الحساب ، وفي الطَّبِّ ، وأخذنا منه قسطاً وافراً؛ يدلُّ عليه كلامه في الوصايا... وكان كالفقير الذي لا يعرف إلا القراءة ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه ، وكالتحوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات ، جامعاً للعلوم "^(٣) .

- وقال أيضا : " كان أبو جعفر من الفضل ، والعلم ، والذكاء ، والحفظ ، على ما لا يجمله أحد عرفه ؛ لجمعه من علوم الإسلام ، ما لم يُعَلِّمه اجتماع لأحدٍ من هذه الأُمَّة ، وقد بَانَ فضلُه في علم اللغة ، والنحو ، على ما ذكره في كتاب التفسير ، وكتاب التهذيب ، مخبراً عن حاله فيه ، وقد كان له قَدَمٌ في علم الجدَل ؛ يدلُّ على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما أتى به "^(٤) .

- وقال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد -رحمه الله-^(٥) : "سمعتُ ثعلباً^(٦) يقول : قرأ عليّ أبو

النحويين واللغويين صفحة (٤٧) ، ونور القبس صفحة (٥٦) .

(١) انظر معجم الأدباء (٥٦/١٨) .

(٢) هو أحد تلامذة ابن جرير ، لم أجد له ترجمة ، وقد أُلِّفَ ترجمةً لشيخه ابن جرير ، نقل عنها ياقوت في معجمه كثيراً عند ترجمة الطبري . انظر معجم الأدباء (٩٤/١٨) .

(٣) معجم الأدباء (٦١-٦٠/١٨) .

(٤) معجم الأدباء (٦٠-٥٩/١٨) .

(٥) هو أبو عمر ، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم البغدادي الزاهد المعروف بـغلام ثعلب ، ولد سنة إحدى وستين ومائتين ، لازم ثعلباً فأكثر عنه ، له جزء فيه فضائل معاوية ، لا يقرأ عليه أحد إلا ويبدأ بهذا ، عالم بالعربية وبعض أهل العربية لا يوثقونه ، وهو موثق في الحديث ، توفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٥٠٨/١٥) ، وبغية الوعاة (١٦٤/١) .

(٦) هو أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي ، ولد سنة مائتين ، قال الخطيب : ثقة حجة دين صالح مشهور بالحفظ ، له كتاب اختلاف النحويين وكتاب القراءات وكتاب معاني القرآن ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين . انظر إنباه الرواة (١٧١/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٥/١٤) .

جعفر الطبري، شِعْر الشعراءِ ، قبل أن يكثر الناس عندي بمدّةٍ طويلةٍ" (١).

- وكان بالإضافة إلى دراسته للشعر شاعراً ، فمن شعره :

وَأَسْتَعْنِي فَيَسْتَعْنِي صَدِيقِي . إِذَا أَعَسَرْتُ لَمْ يَعْلَمْ رَفِيقِي
وَرَفِيقِي فِي مُطَالَبَتِي رَفِيقِي . حَيَائِي حَافِظٌ لِي مَاءٌ وَجْهِي
لَكُنْتُ إِلَى الْغِنَى سَهْلَ الطَّرِيقِ . وَلَوْ أَنِّي سَمَحْتُ بِيَدْلٍ وَجْهِي

وقال أيضاً :

بَطْرُ الْغِنَى وَمَذَلَّةُ الْفَقْرِ . خُلُقَانٍ لَا أَرْضَى طَرِيقَهُمَا
وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَتَهْ عَلَى الدَّهْرِ . فَإِذَا غَنَيْتَ فَلَا تَكُنْ بَطْرًا

ولما كتب إليه أحمد بن عيسى العلوي (٢) من البلد :

وَهَلْ لِي إِلَى ذَاكَ الْقَلِيلِ سَبِيلٌ . أَلَا إِنَّ إِخْوَانَ التَّقَاتِ قَلِيلٌ
فَكُلُّ عَلَيْهِ شَاهِدٌ وَدَلِيلٌ . سَلِّ النَّاسَ تَعْرِفْ غَثَّهُمْ مِنْ سَمِينِهِمْ

قال أبو جعفر : فأجبتة :

فَهَلْ لِي بِحُسْنِ الظَّنِّ مِنْهُ سَبِيلٌ . يُسِيءُ أَمِيرِي الظَّنَّ فِي جَهْدِ جَاهِدٍ
فَإِنَّ جَمِيلَ الظَّنِّ مِنْكَ جَمِيلٌ (٣) . تَأْمَلُ أَمِيرِي مَا ظَنَنْتُ وَقَلْتُهُ

وهذه العلوم التي جمعها الإمام ابن جرير ، جعلت من مؤلفاته عامة ، ذات قيمة علمية متميزة ،

وصار تفسيره جامع البيان - على وجه الخصوص - أوضح هذه المؤلفات ، وكلُّ ينهلُ منه على مرِّ

الأجيال ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(١) معجم الأدباء (١٨/٦٠) .

(٢) لم أجد له ترجمة ، وهو من أهل آمل بطبرستان بلد الطبري ، راسل الطبري بهذه الأبيات ، وقصَّ ابن جرير قصته هذه على

طلابه . انظر تاريخ بغداد (٢/١٦٥-١٦٦) .

(٣) تاريخ بغداد (٢/١٦٥-١٦٦) .

٦ - تدريسه ، وتأليفه :

أ - تدريسه : كان يصلي الظهر في بيته ، ويكتب تصانيفه إلى العصر ، فيخرج فيصلي ، ثم يجلس للناس يُقرئ ويُقرأ عليه إلى المغرب، ثم يجلس للفقهاء والدرس بين يديه إلى عشاء الآخرة ، فيدخل منزله^(١).

فكانت أوقات التدريس والجلوس للإقراء : من بعد صلاة العصر إلى العشاء .

ب - تأليفه : اشتهر ابن جرير بكثرة التأليف والكتابة، فقد حكى السمسmani^(٢) : أن ابن جرير مكث أربعين سنة ، يكتب في كل يوم : أربعين ورقة .
وحسب بعض تلامذة ابن جرير : مدة بلوغه إلى وفاته ، ثم قسموا المدة على أوراق مصنفاه ؛ فصار لكل يوم : أربع عشرة .

- قال السبكي - رحمه الله -^(٣) : " وهذا لا ينافي كلام السمسmani ؛ لأنه منذ بلغ ، لا بد أن يكون مضت له سنون في الطلب ، لا يصنف فيها " ^(٤) .
- وقال ابن النديم : " ورأيت أنا بخطه شيئاً كثيراً : من كتب اللغة ، والنحو ، والشعر ، والقبائل " ^(٥) .

وتأمل حرصه على التأليف والتصنيف ؛ لدرجة أنه يمنع أي أحد من الدخول عليه وقت

(١) انظر معجم الأدباء (٩٢/١٨) .

(٢) هو أبو الحسن ، علي بن عبد الله - وقيل عبيد الله - بن عبد الغفار ، اللغوي ، المعروف بالسمسماني ، أو السمسمي ، توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٢/٣) ، وبغية الوعاة (١٧٨/٢) .

(٣) هو أبو نصر ، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الشافعي ، ولد بالقاهرة ، سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، فقيه أصولي لغوي ، له تصانيف كثيرة منها : رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ، وطبقات الفقهاء الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى ، توفي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٣٩/٣) ، وشذرات الذهب (٢٢١/٦) ، والبدر الطالع (٤١٠/١) .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٣) .

(٥) الفهرست صفحة (٢٩١) .

التصنيف : كان أبو جعفر إذا دخل بيته لا يكاد يدخل إليه أحد ؛ لتشاغله بالتصنيف إلا في أمر مهم^(١).

والذي يظهر مما سبق : أن التصنيف عند الإمام ابن جرير في وقتين : بعد الظهر إلى العصر ، وبعد العشاء الآخرة .

وقد كان مقسماً ليله ونهاره في مصلحة نفسه ، ودينه ، والخلق ، كما وفقه الله - عز وجل -^(٢) .

وقد كثرت مصنفات الإمام ابن جرير - رحمه الله - ومنها ما يلي :

- في علم القراءات :

كتاب القراءات ، أو العدد والتنزيل ، وسمي بكتاب الفصل بين القراءات^(٣) ، قال فيه ياقوت الحموي : " ذكر فيه جميع القراءات ، من المشهور والشواذ ، وعلل ذلك ، وشرحه ، واختار منها قراءة لم يخرج فيها عن المشهور " ^(٤).

وقال ابن كامل - رحمه الله - : " قال لنا أبو بكر بن مجاهد - وقد ذكر فضل كتابه في القراءات - وقال : إلا أنني وجدت فيه غلطاً ، وذكره لي ، وعجبتُ من ذلك مع قراءته لحمزة وتجويده لها ، ثم قال : والعلة في ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام ؛ لأنه بنى كتابه على كتاب أبي عبيد فأغفل أبو عبيد هذا الحرف فنقل أبو جعفر على ذلك " ^(٥).

(١) معجم الأدباء (١٨/٨٨) .

(٢) انظر معجم الأدباء (١٨/٩٢) .

(٣) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، ومعجم الأدباء (١٨/٦٥) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢١) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/٤٥) .

(٥) معجم الأدباء (١٨/٦٧) .

- في علم التفسير :

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، وهو الاسم الصحيح ؛ لتسميته له في تاريخه^(١)، وسمي جامع البيان في تأويل القرآن^(٢) ، وهو الكتاب الذي ظهرت فيه علوم ابن جرير ظهوراً واضحاً ؛ فصار مرجعاً في العلوم الشرعية ، واللغوية ، وغيرها ، وسيأتي مزيد بيان عنه بعد قليل - إن شاء الله .

- في علم العقيدة :

التبصير في أصول الدين ، وهو رسالة إلى طبرستان ، يشرح ما تقلده من أصول الدين^(٣).

- صريح السنة .

- في علم الفقه :

- ١ - اختلاف علماء الأمصار ، أو اختلاف الفقهاء .^(٤) وهناك مخطوطة لاختلاف الفقهاء في أربعة أجزاء ، في مكتبة برلين ، ورقة : (٤١٥٥) .^(٥)
- ٢ - كتاب لطيف القول ، في أحكام شرائع الإسلام .^(٦)
- ٣ - كتاب الخفيف ، اختصار لكتاب اللطيف .^(٧)
- ٤ - وكتاب تبسيط القول ، في أحكام شرائع الإسلام ، أو البسيط في الفقه ولم يتمه .^(٨)

(١) تاريخ الأمم والملوك (٦٢/١)، وانظر معجم الأدباء (٤٤/١٨-٦١)، والطبري ومنهجه في التفسير صفحة (٦٥).
 (٢) معجم المؤلفين (١٤٩/٩) ، لعمر رضا كحالة .
 (٣) سير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤)، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢١/٣)، وطبقات المفسرين للداودي (١١١/٢) .
 (٤) الفهرست صفحة (٢٩١) ، ومعجم الأدباء (٤٥/١٨) ، ومعجم المؤلفين (١٤٩/٩) .
 (٥) تاريخ الأدب العربي (٤٩/٣) لبروكلمان .
 (٦) معجم الأدباء (٤٥/١٨) .
 (٧) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، ومعجم الأدباء (٧٤/١٨) .
 (٨) انظر الفهرست صفحة (٢٩١)، ومعجم الأدباء (٧٣/١٨)، وطبقات الشافعية لابن السبكي (١٢٢-١٢١/٣) .

- في علم الحديث :

١ - كتاب تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ - من الأخبار قال الخطيب البغدادي :
" لم أر سواه في معناه ، إلا أنه لم يتمه " (١) ، وقال ياقوت : " وهو كتاب يتعذر على العلماء
عمل مثله ، ويصعب عليهم تتمته " (٢) .

وقد خرجت أجزاء من تهذيب الآثار : وهي بقية من مسند عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي
طالب ، وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم - ، بتحقيق الأستاذ : محمود شاكر - رحمه الله - ، وقد
أسهمت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في إخراجه وطبعه .

وهناك أيضاً تحقيق له : للدكتور ناصر بن سعد الرشيد ، وعبد القيوم عبد رب النبي، عن
مخطوطة كوبرلي .

٢ - تاريخ الرجال : ذكر فيه من الصحابة ، والتابعين ، إلى شيوخه الذين لقيهم (٣) .

٣ - كتاب الفضائل : عن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وتكلم عن حديث "غدير خم" (٤) ،
واحتج لتصحيحه ، ولم يتم الكتاب (٥) .

(١) تاريخ بغداد (٢/٦٣) .

(٢) معجم الأدباء (١٨/٧٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٣) .

(٤) قال ياقوت : وغدير خم : بين مكة والمدينة ، بينه وبين الجحفة ميلان . انظر معجم البلدان (٤/١٨٨) ، وضبط: خم بضم
الخاء وتشديد الميم . انظر ترتيب القاموس (٢/١١١) . والحديث له روايات متقاربة منها : "من كنت مولاه فعلي مولاه"
رواه أحمد (١/٨٤) برقم (٦٤١) ، وفي لفظ : "اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه"
" رواه أحمد في المسند (١/١١٨) برقم (٩٥٠) وغيره ، قال ابن حجر : وهو كثير الطرق جداً... وكثير من أسانيدھا
صحاح وحسان . فتح الباري (٧/٧٤) ، وقال أحمد شاكر في إسناد أحمد ضعيف ؛ لجهالة بعض رواته ، وأما متن
الحديث فقد ورد بطرق كثيرة ، قال المناوي في شرح الجامع الصغير : نقلاً عن السيوطي : "حديث متواتر" ، وطرقه أو
أكثرها في مجمع الزوائد (٩/١٠٣-١٠٩) . انظر مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر (٢/٦٤١) ، وشرح الجامع الصغير
(٦/٢١٨) حديث (٩٠٠٠) .

(٥) طبقات المفسرين للدودي (٢/١١٣) .

- في علم التاريخ :

تاريخ الأمم والملوك^(١) وهو عمدة في التاريخ ، وآخر ما أُملِّ منه إلى سنة اثنتين وثلاثمائة^(٢).

- في تركية النفس والأخلاق :

كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة ، أو أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة ، وربما سُمّاه : بأدب النفس الشرعية والأخلاق الحميدة ، وهو آخر كتبه ؛ ابتدأه في سنة عشر وثلاثمائة ، ومات ولم يتمّه^(٣).

ومن توسّع في ذِكر مؤلفات ابن جرير ووَصَفَها : ياقوتُ الحمويُّ في معجمه^(٤) ولاشك أن القارئ لبعض مؤلفات ابن جرير ؛ يوقن بمكانة هذا الإمام في الفنون التي بحثها ، فكيف لو اطلع عليها كلها !.

ومع أنه كتب في العلوم المختلفة : من قراءات ، وتفسير ، وعقيدة ، وحديث ، وفقه ، وتاريخ ، وأشبع هذه الكتب من علومه المختلفة ، فإنه لم يكتف بذلك ، بل كتب في تركية الأخلاق والسلوك ، وهذه الشمولية ؛ تدل على العالم الرباني ، الذي يعتني بتكميل النفس البشرية ، وتطهيرها من الأخلاق الفاسدة ، كما يهتم بتطهيرها من جهلها بالعلوم الشرعية .

لقد كانت هذه المؤلفات في شتى العلوم والمعارف ، شاهد صدق على غزارة علم الإمام : محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - ، وتبوئه المكانة العالية بين العلماء ، وأكبر برهانٍ على ذلك ، ما سطره في كتابه جامع البيان ، من حيث : جمعه للمأثور ، ونظره فيها بالنظر الثاقب ، والترجيح بينها في الغالب ، وغير ذلك من الفرائد .

(١) طبقات المفسرين للدواودي (١٠٩/٢) ، ومعجم المؤلفين (١٤٩/٩) .

(٢) الفهرست صفحة (٢٩١) وقد أُلّف تلميذه الفرغاني المتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة : كتاب الصلة لوصل تاريخ الأمم والملوك . انظر طبقات المفسرين للدواودي (١١١/٢) .

(٣) معجم الأدباء (٧٦-٧٧/١٨) ، وطبقات المفسرين للدواودي (١١٢/٢) .

(٤) معجم الأدباء (٤٠/١٨) - (٩٤) .

٧- مذهبه العقدي :

كان أبو جعفر إماماً من الأئمة ، معتقداً لما ذهب إليه الصحابة والتابعون ، لا يبغى عنهم بدلاً ، عرف ذلك عنه العلماء ، وشهد به القراء في كتبه المشتهرة ، ولا يخفى ذلك على كل ذي عينين ، وقلب سليم .

وخاصة في تفسيره : جامع البيان ؛ فإنه يُعنى فيه بالمسائل العقدية ، التي حصل فيها خلاف بين الفرق ، كمسألة القضاء والقدر ، ورؤية الله في الآخرة ، والشفاعة ، واعتقاده على طريقة السلف ، وكتابه المسمّى : صريح السنة ، الذي ذكر فيه عقيدته ، برهان على مذهبه المتبع للكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة .

قال عبد العزيز بن محمد الطبري : " كان أبو جعفر يذهب في جلّ مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف ، وطريق أهل العلم المتمسكين بالسنن ، شديداً عليه مخالفتهم ، ماضياً على مناهجهم ، لا تأخذه في ذلك ولا في شيء لومة لائم . " (١)

ومع هذا الوضوح في اتجاه ابن جرير العقدي وسلامته ، إلا أنه لا زال هناك بعض الشبه والتّهم ، ومرجعها إلى سببين : إما معلومات خاطئة ، وإما تعصبات مذهبية وحسد .

- أما السبب الأول : فالمعلومات الخاطئة :

حيث تعدّدت هذه الأخطاء ، ولكنها منصّبة على قهمة التشييع ، ومنها :

أ - ما زعم أنه يقول : بالمسح على القدمين : ولكن ابن كثير -رحمه الله- (٢) يقول : "والذي عوّل عليه كلامه في التفسير ، أنه يوجب غسل القدمين ، ويوجب مع الغسل ذلكهما ولكن عبّر عن ذلك

(١) معجم الأدباء (١٨/٨١-٨٢) .

(٢) هو أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي ، البصري ثم الدمشقي الشافعي ، ولد تقريباً سنة السبعمائة ، تتلمذ على الإمام المزي ، وأخذ عنه ، وتزوج ابنته ، وأخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأكثر منه ، له مصنفات منها : البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم ، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (١/٣٩٩) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١/١١٠) ، وشذرات الذهب (٦/٢٣١) .

بالمسح ؛ فلم يفهم كثير من الناس مراده ، ومن فهم مراده نقلوا عنه أنه يوجب الغسل والمسح ، وهو الدَّلْك . -والله أعلم- .^(١)

وقال الذهبي -رحمه الله- : " وكان ابن جرير من رجال الكمال ، وشنَّ عليه بيسير تشييع ، وما رأينا إلا الخير ، وبعضهم ينقل عنه : أنه كان يميز مسح الرجلين في الوضوء ، ولم نَرَ ذلك في كتبه " ^(٢) .

ب - الاشتباه في الأسماء بين شخص وآخر :

قال ابن حجر -رحمه الله- ^(٣) : " أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ ^(٤) ، فقال: كان يضع للروافض - كذا قال السليماني - ، وهذا رجمٌ بالظنِّ الكاذب ؛ بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين ، وما ندعي عصمته من الخطأ ، ولا يحلُّ لنا أن نُؤذيه بالباطل والهوى ، فإنَّ كلام العلماء بعضهم في بعض ، ينبغي أن يُتأنَّى فيه ، ولا سيَّما في مثل إمامٍ كبيرٍ ، فلعلَّ السليمانيَّ أراد الآتي . انتهى ^(٥) . [يعني محمد بن جرير بن رستم ^(٦)] ؛ قال [: ابن حجر] : ولو حلفت على أنَّ السليمانيَّ ما

(١) البداية والنهاية (٦/١٤٦-١٤٧) ، وانظر قوله في تفسير آية الوضوء من المائدة (٦) جامع البيان (٤/٤١٧-٤٧٢) ، وتحقيق شاكر (١٠/٦٢-٦٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٧) .

(٣) هو أبو الفضل ، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ثم المصري ، وابن حجر لقب لبعض أبنائه ، الشافعي الحافظ الكبير الإمام بمعرفة الحديث وعلمه ورجاله ، ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة ، طلب الأدب والشعر ثم تفرغ للحديث وبرع فيه ، وأخذ كثيراً عن الحافظ العراقي ، له مصنفات قيمة منها : فتح الباري ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وتهذيب التهذيب ، والدرر الكامنة ، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة . انظر حسن المحاضرة للسيوطي (١/٣٦٣) ، والضوء اللامع للسخاوي (٢/٣٦٦) ، والبدر الطالع (١/٨٧) ، ودرة الحجال (١/٦٤) .

(٤) هو محدث ما وراء النهر ، أبو الفضل ، أحمد بن علي بن عمر بن محمد بن إبراهيم السليماني الحافظ ، ولد سنة إحدى عشرة وثمانمائة ، قال الذهبي : رأيت للسليماني كتاباً فيه حطُّ على كبارٍ [أي : جرح لحفاظ كبار] فلا يُسمع منه ما شدَّ فيه ، توفي سنة أربع وأربعمائة ، وله ثلاث وتسعون سنة . انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٢٠٠) .

(٥) أي : انتهى كلام أبي الفضل بن الحسين من كتاب له ذيله على الميزان . انظر مقدمة لسان الميزان (١/٤) .

(٦) هو أبو جعفر ، محمد بن جرير بن رستم الطبري الأملي ، رافضي من علماء الإمامية ، صاحب كتاب الإيضاح وكتاب

أراد إلا الآتي لبررت ، والسليماني حافظ متقن ، كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل. ^(١)

ونقل الحافظ ابن حجر عن الخطيب قوله : " وإنما ضره الاشتراك : في اسمه ، واسم أبيه ، ونسبه ، وكنيته ، ومعاصرته ، وكثرة تصانيفه... " ^(٢) .

وفعلًا مثل هذا التطابق ، وأقل منه ؛ يوصل إلى هذا اللبس ولا شك ، والواجب في مثل هذا التحري ، ودقة الملاحظة .

وقد ذكرت الرافضة هذا الاشتباه ، ونبّهت عليه ، ويّنت وجه الحقّ فيه : قال صاحب روضات الجنات ^(٣) : " محمد بن جرير الطبري رجلان : أحدهما ابن جرير الطبري ، الذي هو شافعيّ المذهب ، ومدحه النووي الشافعي ^(٤) في كتاب تهذيب الأسماء ، وهو صاحب التاريخ والتفسير المشهورين ، والآخر محمد بن جرير بن رستم الطبري : صاحب كتاب المسترشد ، وكتاب الإيضاح ، ولا شبهة في كونه من الشيعة ^(٥) . وقال في موضع : " ابن جرير بن رستم الطبري ، يكنى أبا جعفر ، دين فاضلٌ ، وليس هو

المسترشد في الإمامة ، وغيرها ، توفي ببغداد . انظر ميزان الاعتدال (٤٩٩/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) ، ولسان الميزان (١٠٣/٥) ، وروح المعاني (١١٥/٦) ، وروضات الجنات صفحة (٦٧٣) .

(١) لسان الميزان (١٠٠/٦-١٠١) .

(٢) انظر لسان الميزان (١٠٠/٦-١٠١) ، ولم أجد كلام الخطيب عند ترجمة الطبري في تاريخ بغداد .

(٣) هو محمد بن باقر الموسوي الأصبهاني الخوانساري ، توفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف ، وعنوان كتابه : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، وموضوعه تراجم الشيعة .

(٤) هو محيي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شرف النووي الشافعي ، ولد بنوى ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، له مصنفات كثيرة منها : رياض الصالحين ، والمجموع شرح المذهب في الفقه الشافعي ، وشرح صحيح مسلم ، وتهذيب الأسماء واللغات ، والتبيان في بيان آداب حملة القرآن ، توفي سنة ست وسبعين وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي

(٨/٣٩٥) ، والنجوم الزاهرة للأتابكي (٧/٢٧٨) ، والفتح المبين للمراغي (٢/٨١) .

(٥) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

صاحبُ التاريخ ، الذي هو عامِّي المذهب . " (١) وقال أيضاً : " ذاك عامِّي وهذا إمامي . " (٢) .
وهذه تزكيةٌ من الرافضة له ، ولو شَمَّ الرافضة منه رائحة التشيع ؛ لوضعوا له التبجيل ، ولأخذ
المدح من غير كيلٍ ولا وزنٍ ، ولو وضعت له التراجم الواسعة ، فذاك طريق يدعون به تصحيح مذهبهم .

ج - ومن أسباب التهمة بالتشيع : أنه صحح حديث " غدير خم " : (٣) .

فقد ألف كتاباً كبيراً ، قال الذهبي - رحمه الله - : " جمع فيه طرق حديث " غدير خم " ، في
أربعة أجزاء ، رأيتُ شطره ، فبهرتني بسعة رواياته ، وجزمتُ بوقوع ذلك ، وقد نفى الذهبي عنه
التشيع بقوله : وشنع عليه بيسير تشيع ، وما رأينا إلا الخير " . (٤)
والحقُّ : أنَّ التصحيح لأيِّ حديثٍ إذا كان بحثاً عن الحقِّ ، فليس عيباً ولا تشيئاً ، بل هو
الدين الحقُّ ، الذي يجب على المسلم عمله .

ويدل على أن قصده الحقُّ لا البدعة والرفض ، السببُ الذي من أجله جمَعَ روايات حديث " غدير خم " ،
وَدَرَسَ أسانيدَها :

فالسبب : أنه سمع من بعض مشايخ بغداد تكذيب هذا الحديث (٥) ، وأن علياً - عليه السلام -
كان باليمن ، في الوقت الذي كان فيه رسول الله - ﷺ - في غدير خم ، ووضع رَجْزاً (٦) بهذا المعنى ؛
فألف في حديث : " غدير خم " ، وفضائل علي ، فكثرت الناس واجتمع إليه قوم من الروافض ، ممن بسط
لسانه بما لا يصلح في الصحابة - ﷺ - فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - . (٧)

-
- (١) عامي المذهب عند الرافضة هم أهل السنة ، وهذا قدح عندهم لا مدح ، والممدوح عندهم من كان إمامي المذهب : أي
يؤمن بأئمة آل البيت ، ويغض بقية الصحابة، وخاصة الشيخين : أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - .
(٢) المرجع نفسه ، وانظر دراسة الطبري للمعنى صفحة (١٩٤) ، للأستاذ محمد المالكي .
(٣) لسان الميزان (١٠٠/٥) ، وانظر معجم الأدباء (٨٤/١٨) ، انظر نص الحديث هامش صفحة (٣٢) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/١٤) .
(٥) قيل تكلم في الحديث أبو بكر بن داود السجستاني . انظر طبقات المفسرين للداودي (١١٣/٢) .
(٦) الرَّجْزُ : ضرب من الشعر ، وزنه مستفعلن ست مرات . انظر ترتيب القاموس (٣٠٦/٢) .
(٧) انظر معجم الأدباء (٨٤/١٨-٨٥) ، ونسبه لأبي بكر من كامل التلميذ الذي ترجم لشيخه الإمام الطبري .

وأَسباب التآليف الماضية : توضح أنه لم يكن قصده نصر أهل الرفض ، وإنما أراد الدفاع عن مذهب أهل السنة ، وتصحيح الأخطاء العلمية ، والرد على المخطئ ، ولو كان من أهل السنة وقصده الخير ، وانظر إلى تغييره مسار الدرس من فضائل علي - ﷺ - إلى فضائل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لما تجمَّع أهل الرفض عليه ، ولو كان منهم لما غيرَّ ما يحبُّون إلى ما يكرهون .

بل إنه في مجتمعٍ كثر فيه الرفض ، يَجْهَرُ بفضائل الخليفين الراشدين : أبي بكر وعمر ، فلما رجع إلى طَبْرِسْتَانَ ؛ وَجَدَ الرفض قد ظهر ، وسبُّ أصحاب رسول الله - ﷺ - بين أهلها قد انتشر ، أملى فضائل أبي بكر وعمر ، حتى خاف أن يجري عليه ما يكرهه ؛ فخرج منها من أجل ذلك^(١) .
ومعلوم موقف الرافضة من الشيخين ، وما يتوقع منهم من الأذى ؛ إلا أن الجهر بالحق والتزام منهج السلف هو منهج إمامنا - رحمه الله - والله أعلم .

- ومما يدل على عدم تشيعه : أقواله في مذهب الرافضة ، المخالف للكتاب والسنة ، ورأيه فيهم :

قال محمد بن علي^(٢) : " سمعت أبا جعفر الطبري - وجرى ذكر علي - ، فقال أبو جعفر : من قال إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى ، أيش هو ؟ فقال له ابن صالح الأعمش^(٣) : مبتدع ، فقال له الطبري : منكرًا عليه : مبتدع !! مبتدع !! ، هذا يقتل ، من قال : إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى ، يقتل !! يقتل !! " .^(٤)

فهذا الحكم الواضح الصريح الصارم يدل على براءته من التشيع ، كبراءة الذئب من دم يوسف - عليه السلام - .

(١) معجم الأدباء (١٨/٨٥) .

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن سهل ابن الإمام - صاحب بن جرير - لم أجد له ترجمة، وهو من تلامذة ابن جرير .

(٣) لم أجد له ترجمة ، وأظنه من تلامذة ابن جرير أيضاً .

(٤) لسان الميزان (٥/١٠١) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٤/٢٧٥) .

- أما السبب الثاني لاثامه بالرفض : فالتعصب والحسد :

ففي زمانه اتم بالرفض وأحياناً بالإلحاد ، من بعض عوام الحنابلة ورعاعهم - وحاشاه من ذلك - بل كان أحد أئمة الإسلام ، علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري ^(١)؛ حيث كان يتكلم فيه ، ويرميه بالعظام ، وبالرفض ^(٢).
وقيل : لما أُلّف في اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر أحمد بن حنبل معهم فقليل له في ذلك ، فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ؛ فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا ببغداد لا يُحصون كثرة ^(٣).
وقال الذهبي - رحمه الله - : " وقد وقع بين ابن جرير وبين أبي داود ، وكان كل منهما لا ينصف الآخر ، وكانت الحنابلة حزب أبي بكر بن أبي داود ؛ فكثروا وشغبوا على ابن جرير ، وناله أذى ولزم بيته ، - نعوذ بالله من الهوى - " ^(٤).

- ٨ - مذهبه الفقهي :

سبق الحديث عن شيوخ الطبري في الفقه ^(٥)، ويتبين من ذكر أشهرهم ، أن الإمام الطبري - رحمه الله - تعلم الفقه على أغلب المذاهب الفقهية في عصره وهي :
المذهب الشافعي ^(٦) قال أبو جعفر الطبري : " أظهرت مذهب الشافعي واقتديت به ببغداد

-
- (١) هو أبو بكر ، محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري ، أبوه صاحب المذهب الظاهري ، فقيه أديب مناظر ، له : كتاب الزهرة في الآداب والشعر ، وآخر في الفرائض ، وغيرها ، وله بصر تام في الحديث ، وبأقوال الصحابة ، مجتهد لا يقلد أحداً ، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (٢٥٦/٥) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٩/١٣).
- (٢) انظر البداية والنهاية (١٤٦/٦-١٤٧) لابن كثير .
- (٣) انظر الكامل (١٧١/٦) لابن الأثير .
- (٤) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/١٤) .
- (٥) انظر صفحة (١٦) .
- (٦) انظر معجم الأديباء (٥٣/١٨) ، وقد نسبته أبو عاصم العيادي الشافعي إلى أنه من أفراد علمائهم . انظر تمذيب الأسماء واللغات (٧٩/١) .

عشر سنين ، وتلقاه مني ابن بشار الأحول^(١) - أستاذ ابن سريج -^(٢) .
وكذا درس المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الظاهري على داود صاحب
المذهب^(٣) .

ومن بعد تلك الدراسات الواسعة للمذاهب الفقهية ، اختار الإمام ابن جرير لنفسه ، مذهباً في
الفقه^(٤) ، نُسِبَ إليه وعُرفَ بعُدِّ بالمذهب الجريري .

قال هارون : " فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبخته ، إلى ما اختار في كتبه ."^(٥)
وقد اشتهر أبو الفرج المعافي بن زكريا ، المتوفى سنة تسعين وثلاثمائة هجرية ، بتمذهبه على
كتب الطبري وحفظها^(٦) .

ومن تمذهب على المذهب الجريري أيضاً : علي بن عبد العزيز بن محمد الدولابي ، وأبو بكر
محمد بن أحمد بن أبي الثلج الكاتب ، وأبو القاسم بن العرّاد ، وأبو الحسن أحمد بن يحيى بن علي

(١) هو تلميذه عثمان بن بشار الأنماطي ، شيخ الشافعية ، المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائتين . انظر سير أعلام النبلاء
(٤٢٩/١٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٣) . وابن سريج هو : أبو العباس ، أحمد بن عمر
ابن سريج البغدادي القاضي ، له مصنفات منها : شرح المذهب ، والرد على ابن داود في إبطال القياس ، ولد سنة بضع
وأربعين ومائتين ، وتفقّه على ابن بشار الأنماطي ، الذي أخذ فقه الشافعي عن ابن جرير الطبري ، توفي سنة ست
وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢٥١/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠١/١٤) ، والمنظم
(١٤٩/٦) ، والفتح المبين (١٦٥/١) .

(٣) هو أبو سليمان ، داود بن علي بن خلف الأصهباني ، الظاهري البغدادي ، قيل : ولد بالكوفة سنة مائتين ، وكان بصيراً
بالفقه عالماً بالقرآن حافظاً للأثر ، وصنف التصانيف ، وتوفي ببغداد سنة سبعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (٣٦٩/٨) ،
وسير أعلام النبلاء (٩٧/١٣) .

(٤) انظر طبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٨٣) ، وانظر معجم المؤلفين (١٤٩/٩) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) .

(٦) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، هو المعافي بن زكريا بن يحيى بن طرارا أو طرار ، الجريري النهرواني القاضي ، ولد سنة
ثلاث أو خمس وثلاثمائة ، وتمذهب على كتب الطبري وحفظها ، وله مصنفات منها : تفسير في ست مجلدات ، والجلس
والأنيس . انظر وفيان الأعيان (٢٢٣/٥) ، وبغية الوعاة (٢٩٣/٢) ، والأعلام (١٦٩/٨) .

المنجم، وقد ألف كتباً في نصرته مذهب الطبري، وأبو إسحاق إبراهيم بن حبيب السقطي، وغيرهم^(١).

ولكن لم يكتب لهذا المذهب البقاء؛ ولا شك أن للتلاميذ دوراً كبيراً في نشر مذهب شيخهم، كما قال الشافعي - رحمه الله - : " الليث^(٢) أفقه من مالك، إلا أنه ضيَّعه أصحابه " ^(٣)، وفي رواية عنه : " إلا أن أصحابه لم يقوموا به " ^(٤).

قال الذهبي - رحمه الله - : " اشتهر مذهب الأوزاعي^(٥) مدَّةً، وتلاشى أصحابه وتفانوا، وكذلك مذهب سفيان^(٦) وغيره... وانقطع أتباع أبي ثور^(٧) بعد الثلاثمائة، وأصحاب داود إلا القليل، وبقي مذهب ابن جرير إلى ما بعد الأربعمائة " ^(٨). - والله أعلم وأحكم - .

(١) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) بتصرف .

(٢) هو أبو الحارث، الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولا هم المصري، ولد بمصر، سنة أربع وتسعين، الإمام البارع من تابعي التابعين، كان فقيه مصر ورئيسها وكل يرجع إليه، أجمع العلماء على جلالته وعلو مرتبته في الفقه والحديث، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك. انظر تهذيب الأسماء واللغات (٧٤/٢)، وسير أعلام النبلاء (١٣٦/٨)، وتهذيب التهذيب (٤٨١/٣)، وحسن المحاضرة (٣٠١/١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٧٤/٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٥٦/٨).

(٥) هو أبو عمرو، عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد الأوزاعي الحافظ، والأوزاع محلة بدمشق، ولد سنة ثمان وثمانين كان له مذهب مستقل، عمل به فقهاء الشام والأندلس فترة ثم فني، توفي ببيروت مرابطاً، سنة سبع وخمسين ومائة، وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء (١٠٧/٧)، وتهذيب التهذيب (٥٣٧/٢).

(٦) هو أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ولد سنة سبع وتسعين، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وعلمه، له تفسير مشهور رواه عنه أبو حذيفة النهدي، وتوفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة. انظر تهذيب التهذيب (٥٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٢٩/٧)، وطبقات المفسرين للداوودي (١٨٦/١).

(٧) هو أبو ثور، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي، ولد في حدود سبعين ومائة، إمام مجتهد، كان من أهل الرأي، ثم رجع إلى الحديث لما حضر إلى الشافعي، له كتاب: أحكام القرآن، وتوفي ببغداد سنة أربعين ومائتين. انظر تاريخ بغداد (٦٥/٦)، وسير أعلام النبلاء (٧٢/١٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (٧/١).

(٨) سير أعلام النبلاء (٩٢/٨).

٩- صفاته الخلقية والخلقية :

أ - من صفاته الخلقية :

أنه كان أسمر مائلاً إلى الأدمة ، أعين نحيف الجسم ، مديد القامة ، كبير اللحية ، لم يغير شبيهه ، وكان السواد في رأسه ولحيته كثيراً^(١) .

ب - ومن صفاته الخلقية ما يلي :

الزهد ، والقناعة ، والصبر على الأذى في الدعوة :

قال الفرغاني - رحمه الله - : " كان محمد ابن جرير لا تأخذه في الله لومة لائم ، مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات ، من جاهل ، وحاسد ، وملحد ، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه ، وزهده في الدنيا ، ورفضه لها ، وقناعته بما كان يرد عليه من حصة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة " .^(٢) .

وقال أيضا : " وكان عالماً زاهداً ورعاً فاضلاً... " .^(٣) .

وقال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري - رحمه الله - : " وكان فيه من الزهد ، والورع ، والخشوع ، والأمانة ، وتصفية الأعمال ، وصدق النية ، وحقائق الأفعال ، ما دلّ عليه كتابه في آداب النفوس " .^(٤) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - : " وكان من العبادة ، والزهد ، والورع ، والقيام في الحق ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم " .^(٥) .

وكان لا يسأل ولو احتاج : قال أبو جعفر : " أبطأت عني نفقة والدي ، واضطرت إلى أن

(١) تاريخ بغداد (١٦٦/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢٦/٣) ، وانظر معجم الأدباء (٩١/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٥/٣) .

(٣) طبقات المفسرين للداوودي (١١٤/٢) .

(٤) معجم الأدباء (٦٠/١٨) .

(٥) البداية والنهاية (١٤٦/٦) .

فتفتت كُمي القميص فبعتهما .^(١)

ومما يدل على بعده عن السلاطين : أنه لما تقلد الخاقاني^(٢) الوزارة ، وجه إليه بمال كثير ، فأبى أن يقبله ، فعرض عليه القضاء فامتنع ، فعاتبه أصحابه ؛ وقالوا له : لك في هذا ثواب ، وتحيي سنة قد درست ، وطمعوا أن يقبل ولاية المظالم ، فانتهرهم ، وقال : قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه ، فانصرفوا خجلين^(٣) .

الأخلاق العالية والجد في جميع الأحوال : قال ياقوت : "وكان متوقفاً عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ، ولا يؤثرها إلى أن مات ، وكان يحب الجد في جميع أحواله"^(٤) .

حسن المظهر وطيب العشرة : قال عبد العزيز بن محمد : " وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره ، نظيفاً في باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقداً لأحوال أصحابه ، مهذباً في جميع أحواله ، جميل الأدب في مأكله وملبسه ، وما يخصه في أحوال نفسه ، منبسطة مع إخوانه ، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وربما جيء بين يديه بشيء من الفاكهة ، فيجري في ذلك المعنى ، ما لا يخرج من العلم والفقهاء والمسائل ، حتى يكون كأجد جد ، وأحسن علم"^(٥) .

العزوف عن الزواج : وإن لم يكن محمداً - إذ الزواج سنة الأنبياء : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً** ﴾ [الرعد: ٣٨] - ، بل ذكرت عزوفه عن الزواج ؛ قصداً لمعرفة أحوال الإمام ، فقد قال عن نفسه : " وما حللت سراويلي على حرام ولا حلال قط"^(٦) .

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١٢٥/٣) .

(٢) هو أبو علي ، محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، تولى الوزارة زمن المقتدر سنة تسع وتسعين ومائتين ، وعزل سنة ثلاثمائة . انظر الكامل (١٤١ و ١٣٩/٦) .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/٧٨-٧٩) .

(٥) معجم الأدباء (١٨/٨٦) .

(٦) معجم الأدباء (١٨/٥٥) .

وقال مسلمة بن قاسم: " كان حصوراً^(١) لا يقرب النساء ".^(٢)

١٠ - وفاته ، وراثؤه :

أ - وفاته : توفي على الأشهر : لأربع بقين ، أو ليومين بقيا من شوال ، سنة عشر وثلثمائة^(٣)

وقيل : مات ببغداد سنة عشر وثلثمائة ، أو إحدى عشرة ، أو ست عشرة^(٤) .
وقال ابن كثير : وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين^(٥) . وقال الذهبي : وله ست وثمانون وثمانون سنة^(٦) .

ب - رثاؤه : رثاه خلق كثير من أهل الدين ، والأدب ، كما هو حال مشاعر المسلمين ، عند فقد علمائهم الأفاضل ، الذين وهبوا أرواحهم ومهجهم ، في تعليم المسلمين ونصحهم :
ومن ذلك قول ابن الأعرابي^(٧) ، في مراثية له طويلة :

حَدَّثَ مُفْطَعٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ دَقَّ عَنْ مِثْلِهِ اصْطَبَارُ الصَّبُورِ
قَامَ نَاعِي الْعُلُومِ أَجْمَعُوا لَمَّا قَامَ نَاعِي مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ .

(١) الحصور : هو من لا يأتي النساء وهو قادر ، أو من لا يشتهيهن ، أو منع منهن ، أو هو محبوب . انظر ترتيب القاموس المحيط (٦٥٣/١) .

(٢) لسان الميزان (١٠٢/٥) .

(٣) تاريخ بغداد (١٦٦/٢) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) .

(٤) انظر معجم الأدباء (٩٤/١٨) .

(٥) انظر البداية والنهاية (١٤٦/٦) .

(٦) انظر دول الإسلام (١٣٧/١) .

(٧) هو أبو سعيد ، أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي ، ولد سنة ثيِّف وأربعين ومائتين ، محدث حافظ عابد صوفي ، صحب الجنيد ، صدوق له أوهام ، له : طبقات النساك ، وتاريخ البصرة ، توفي سنة أربعين وثلثمائة ، وله أربع وتسعون سنة . انظر سير أعلام النبلاء (٤٠٧/١٥) ، ولسان الميزان (٣٠٨/١) ، وشذرات الذهب (٣٥٤/٢) .

وقال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ^(١) في قصيدة طويلة :

لا يأمنُ العجزَ والتقصيرَ مادحُه
ولا يخافُ على الإطنابِ تكذيبًا .
ودتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلتْ
قبراً له فحبَّها جسمُـه طيبًا .
كنتَ المقومُ من زيغٍ ومن ظلعٍ ^(٢)
وفاكُ نصحاً وتسديداً وتأدياً .
وكنتَ جامعَ أخلاقٍ مطهِّرةٍ
مهذباً من قرافِ الجهلِ تهدياً . ^(٣)

رحم الله الإمام محمد بن جرير الطبري ، وأسكنه فسيح جناته ، ونفعنا بعلمه ومؤلفاته . آمين .

الثاني : التعريف بتفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن :

إنَّ الدخولَ إلى علم التفسير ، ليس بالأمر السهل الهين ؛ لأنه إرادة وقصد توضيح مراد الله - عز وجل - من كلامه ، فالمفسر بحاجة إلى جهد كبير في الوصول إلى المراد ، خاصة إذا أراد تفسير القرآن كاملاً ، ولكن الله - عز وجل - حبا للإمام ابن جرير من عطائه ، ما جعله قدوة وعمدة لمن بعده ، في ميزاته التي امتاز بها عن غيره .

وسيكون الحديث عن جامع البيان هنا ، منقسماً باعتبار الزمن إلى زمنين :

- ١- ما قبل خروج جامع البيان ، إلى الانتهاء منه .
- ٢- ما بعد خروج جامع البيان ، إلى وصوله المطابع .

(١) هو أبو بكر ، محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي ، ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، إمام في الأدب والنحو واللغة ، من مصنفاته : الجمهرة في اللغة ، وأدب الكاتب ، عاش ثمان وتسعين سنة ، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . انظر إنباه الرواة للقفطي (٩٢/٣) ، وشذرات الذهب (٢٨٩/٢) .

(٢) الظالع : المتهم . انظر ترتيب القاموس المحيط (١٢٤/٣) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (١٦٦/٢-١٦٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٠/١٤-٢٨٢) ، وديوان ابن دريد (٣٨-٤٠) والأبيات مختارة من المرتبة على الترتيب .

١- ما قبل خروج جامع البيان ، إلى الانتهاء منه :

أ - التفكير في التفسير منذ الصغر:

ليحصل الإبداع والإتقان لشيء ما ، فلا بد من وجود رغبة وميل إليه ، وكذلك الميل إلى هذا الفن أو ذلك ؛ لقد كانت رغبة وميل ابن جرير إلى تفسير القرآن قديمة ، يدل عليها قوله : " حدثني به نفسي وأنا صغير " (١).

ب - الشعور بضرورة التفسير الملحة :

ويؤكد هذه الرغبة العارمة والإرادة الحبية إليه : معرفته بثمرة القرآن والمقصود من إنزاله ، وهو التدبر ، - قال تعالى - : ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَرُوكَ وَيَتَذَكَّرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] فأبو جعفر يقول : " إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله ، كيف يلتذ بقراءته ؟ ! " (٢).

ج- الاستخارة قبل الإقدام :

من سنن الرسول ﷺ - الاستخارة ، حال الهمّ بالأمر أياً كان ، وقد كان النبي ﷺ - يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن ، فما بالك بأمر التفسير ، قال أبو جعفر : " استخرت الله - تعالى - في عمل كتاب التفسير ، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين ، قبل أن أعمله فأعاني " (٣).

د - الشورى مع أهل الشأن :

ومن تربية أبي جعفر لتلاميذه على تطبيق الشورى ، أنه قال لهم : أنتشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفتنى فيه الأعمار قبل تمامه ، فأخذوه في نحو ثلاثة آلاف ورقة . -ومثل ذلك حصل في كتاب التاريخ- ؛ فقال : إنا لله ! ماتت

(١) معجم الأدباء (٦٢/١٨) .

(٢) معجم الأدباء (٦٣/١٨) .

(٣) معجم الأدباء (٦٢/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) .

الهمم!!^(١).

وفي هذا فائدة للمعلم : أن يراعي حال طلابه ، فيعرف ما يناسبهم ، وما تسمح به قدرتهم ؛ وإن كان مرغوبهم أدنى منزلة ، ويبيّن لهم خطأهم .
وقوله : إنا لله ! ماتت الهمم ! ! . أصبحت عبارة مشهورة عن الإمام - رحمه الله - ولا أدري ما حال هممنا إذن في هذا الزمن ، الذي كثرت فيه الملهيات والمغريات ، إلا إن تكون الهمم قد دفنت إلا من رحم الله ، وقليل ما هم . - والله المستعان - .

هـ- مراحل كتابة تفسير جامع البيان :

لقد كانت دروس تفسير جامع البيان كلها إملاءً في فترتين :
الفترة الأولى : ذكرها أبو بكر بن كامل فقال : أملى علينا من كتاب التفسير ، مائة وخمسين آية - الجزء الأول من القرآن ، وقد حواه حالياً المجلد الأول من الكتاب - ، ثم خرج بعد ذلك إلى آخر القرآن ، فقرأه علينا ، وذلك سنة سبعين ومائتين .^(٢)
والفترة الثانية : ذكرها ابن بالويه ، لما سأله أبو بكر بن خزيمة فقال : بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير ؟ قال : نعم ، كتبنا التفسير عنه إملاءً ، قال : كله ؟ قال : نعم ، قال : في أي سنة؟ قال : من سنة ثلاث وثمانين ، إلى سنة تسعين ومائتين.^(٣) وهذه الفترة استغرقت سبع سنين .
ثم بعد الإملاء كانت القراءة مما أملي ، ففي أول جامع البيان قرئ على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في سنة ست وثلاثمائة .^(٤)
وقد تبين من مخطوطات التفسير : أنه كان رواية عن بعض تلامذة الإمام الطبري - رحمه الله ،

(١) انظر معجم الأدباء (٤٢/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) .

(٢) معجم الأدباء (٦٢/١٨) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (١٦٤/٢) ، ومعجم الأدباء (٤٢/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) ، والطبري ومنهجه في التفسير صفحة (٦٦) للدكتور محمد بن الشريف .

(٤) انظر جامع البيان (٢٥/١) ، وتحقيق شاكر (٣/١) .

فقد كان أوله رواية عن أبي محمد الفرغاني ، وذلك مذكور أول مرة عند الآية الخامسة والعشرين بعد المائتين من البقرة^(١) ، وفي أول آل عمران وجد نص ، أخبرنا أبو جعفر...^(٢) فيبدو أنه من قول الفرغاني ، ثم جاءت رواية تلميذ آخر هو : أبو بكر محمد بن داود بن سليمان ، وذلك عند الآية الثامنة والستين من آل عمران^(٣) ولم يجئ بعد ذلك في تحقيق أحمد ومحمود شاكر غير هذين -والله أعلم- .

٢- ما بعد خروج جامع البيان :

أ - وقع كتاب تفسير ابن جرير -رحمه الله- من قلوب العلماء موقعه ، فقالوا فيه المديح ، والثناء ، ومنه :

قول أبي بكر محمد بن خزيمة : " لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره ، وما أعلم على ظهر الأرض أعلم من ابن جرير . " ^(٤)

وقال الفرغاني في تاريخه : " فتمّ من كتب ابن جرير كتاب : تفسير القرآن ، وجوده وبين فيه أحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله وغريبه ، ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، وإعراب حروفه ، والكلام على الملحددين فيه ، والقصص وأخبار الأمة ، والقيامة ، وغير ذلك ، مما حواه من الحكم والعجائب ، كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة وإلى أبي جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب ، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد ، عجيب ، مستقصى ، لفعل . " ^(٥)

وقال ابن النديم : " كتاب التفسير لم يعمل أحسن منه . " ^(٦)

(١) انظر تحقيق شاكر في جامع البيان (٤/٤٥٢) ، وتكرّر في (٤/٤٩٥ و٥٣٩) ، و(٥/٩٥ و٢٤٠ و٣٢٣) .

(٢) جامع البيان تحقيق شاكر (٦/١٤٩) .

(٣) انظر جامع البيان (٦/٤٩٦) و(٧/٢٣ و١٥٤ و٢٨١ و٣٨٤) .

(٤) انظر تاريخ بغداد (٢/١٦٤) ، وسير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٣) ، ومعجم الأدباء (١٨/٤٢-٤٣) .

(٥) طبقات المفسرين للداوودي (٢/١١١) .

(٦) الفهرست صفحة (٢٩٢) .

وقال أبو حامد الإسفراييني -رحمه الله-^(١): " لو سافر رجل إلى الصين ، حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير ، لم يكن ذلك كثيراً " .^(٢)

وقال ابن عطية -رحمه الله-^(٣): " إن محمد ابن جرير الطبري -رحمه الله- جمع على الناس أشتات التفسير ، وقربّ البعيد ، وشفى في الإسناد " .^(٤)

وقال ابن تيمية -رحمه الله-^(٥): " وأما التفاسير التي في أيدي الناس ، فأصحها : تفسير ابن جرير الطبري ؛ فإنه يذكر مقالات السلف ، بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين " .^(٦)

وقال أيضاً : " وهو من أجلّ التفاسير المأثورة ، وأعظمها قدراً " .^(٧)

(١) هو أبو حامد ، أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني ، نسبة لبلد بخراسان ، ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وهو شيخ الشافعية ببغداد ، من مصنفاته : تعليق على شرح المزني في نحو خمسين مجلداً ، وكتاب في أصول الفقه ، توفي ببغداد سنة ست وأربعمائة . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٠٨) ، ووفيات الأعيان (١/٧٢٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٩٣/١٧) ، والفتح المبين (١/٢٢٤) .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٢) ، ومعجم الأدباء (١٨/٤٢) .

(٣) هو أبو محمد ، عبد الحق بن غالب بن عطية الحاربي الغرناطي الأندلسي القاضي ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، كان فقيهاً عارفاً بالتفسير والحديث واللغة والنحو والأدب ، له : تفسير المحرر الوجيز ، وكتاب جمع فيه مروياته وأسماء شيوخه ، وتوفي بالرقّة سنة ست وأربعين وحمسمائة ، وقيل غير ذلك . انظر الديباج المذهب (٢/٥٧) وشجرة النور الزكية (١٢٩) ، وبغية الوعاة (٢/٧٣) .

(٤) المحرر الوجيز (١/٤٢) .

(٥) هو شيخ الإسلام ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحاربي ثم الدمشقي ، ولد سنة إحدى وستين وستمائة ، إمام أهل السنة في زمانه ، مقارع أهل الكتاب والزنادقة والمنتدعة ، مجاهد التتار ، شيخ الإسلام حقاً ، مجلّد في علوم الدين ، مجتهد مطلق ، له مصنفات كثيرة منها : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ومنهاج السنة ، وفتاوى ورسائل كثيرة ، توفي بسجن القلعة بدمشق ، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٢/٣٨١) ، والبداية والنهاية (١٤١/١٤) ، وكتاب المقفّي الكبير للمقريزي (١/٤٥٤) ، وشذرات الذهب (٦/٨٠) .

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٨٥) جمع : الشيخ عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله- .

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/٣٦١) .

وقال ابن كثير -رحمه الله-: وله التفسير الكامل ، الذي لا يوجد له نظير ^(١) .
وقال السيوطي -رحمه الله- ^(٢) : " وله التصانيف العظيمة منها تفسير القرآن ، وهو أجملّ التفسير ، لم يؤلف مثله ؛ كما ذكره العلماء قاطبة منهم النووي في تهذيبه ؛ لأنه جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه في ذلك أحد ، لا قبله ولا بعده " ^(٣) .

ب - منهج الإمام ابن جرير في تفسيره جامع البيان :

يعتبر تفسير جامع البيان من أشهر التفاسير ، وأعظمها ، وأقدمها ، وأقومها ؛ امتاز تفسير جامع البيان عن غيره بأوليتين :

الأولى : الأولوية الزمانية ؛ لأنه أقدم تفسير شامل للقرآن يصل إلينا ^(٤) .
والثانية : الأولوية الفنية الصناعية ؛ في تميّز وحسن العرض ، والترتيب ^(٥) .
وقد ألفت في منهج هذا التفسير مؤلفات ، منها :

(١) البداية والنهاية (١٤٥/٦) .

(٢) هو جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن الكمال الحضيري -نسبة لرحلة في بغداد- السيوطي -بلد أسيوط بمصر- الشافعي ، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وكان يلقب بابن الكتب ، مفسر محدث فقيه نحوي لغوي وله شعر ، بلغت مؤلفاته قريناً من ألف ، منها : الإتيقان ، والدر المنثور ، وفسر من الفاتحة إلى الكهف ، مكماً تفسير جلال الدين المحلي ؛ فسّمّي تفسير الجلالين ، تفرغ بعد الأربعين للعبادة والتأليف ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة . انظر حسن المحاضرة له (٣٣٥/١) ، وطبقات الداوودي (٨٠/٢) ، والضوء اللامع (٦٥/٤) ، والبدر الطالع (٣٢٨/١) .

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٨٢) ، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٨٧/١) .

(٤) ذكر الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور : أن يحيى بن سلام التميمي البصري الأفرقي المتوفى سنة مائتين ، ألف تفسيراً جمع فيه الآثار ، ونقدها ، واختار منها ، واهتم فيه باللغة ، والإعراب ، وذكر القراءات ، وهو في ثلاث مجلدات ضخام ، ويعتبر الحلقة المفقودة في مراحل تدوين التفسير بين : القرن الأول والثالث ، وأن ابن الجزري ، وأبا عمرو السداني شهدا بأنه : لم يتقدمه مثله ، واعتذر ابن عاشور لمن أهمل ذكره بالأقدمية بذكر جامع البيان ، أنه لا يوجد إلا نسخة واحدة من التفسير ؛ ولكن أخبر عنها بما يقرب من سبعين سنة . انظر التفسير ورجاله (٤١-٤٤) . ولو قيل إن جامع البيان أقدم ؛ لأنه أوسع التفاسير الواصلة إلينا لكان له وجه -والله أعلم- .

(٥) انظر التفسير والمفسرون (٢٠٩/١-٢١٠) .

- كتاب الطبري ومنهجه في التفسير ، للدكتور : محمود بن الشريف .
- وكتاب ابن جرير الطبري ، ومنهجه في التفسير ، للدكتور : محمد بكر إسماعيل .
- وبحث الإمام الطبري ، لعبد الله آل شاكر ، بإشراف الأستاذ : مناع القطان -رحمه الله-، وغيرها .
ولكن أذكر معالم مختصرة من منهجه :
- المقدمة : لقد قدّم الإمام ابن جرير للتفسير ، بمسائل من علوم القرآن ، وسار على هذه الطريقة كثير من المفسرين ، وكان فيها :
- وجه كون القرآن معجزاً ، والحكمة من كونه عربياً .
- وهل في القرآن لفظ أعجمي ؟ .
- وما اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب ؟ .
- ومعنى الأحرف السبعة ، التي نزل بها القرآن . وما يتعلّق بها .
- ومن أي طريق نصل إلى التأويل .
- وذكر الخلاف في جواز التفسير بالرأي .
- ذكر بعض الآثار في الحض على تعلم التفسير ، ومن كان يفسره من الصحابة .
- وذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرها القول في تأويل القرآن .
- ثم ذكر من مُدِح بالتفسير ومن ذمّ .
- وختم المقدمة : بمعنى القرآن ، والسورة ، والآية .^(١)
- أما طريقته في تفسير القرآن ، فإن له نهجاً متميّزاً في جامع البيان ، ومن ذلك :
- أنه يبدأ تفسيره للآية بقوله : القول في تأويل -قوله تعالى- :... ويعني بالتأويل التفسير .
- ثم يفسر الآية تفسيراً إجمالياً .
- وهو يعتمد على السياق " ويفصح ببيانه عن المعنى المراد معتمداً ربط السياق والعود بمراجع الكلام إلى

(١) مقدمة جامع البيان (٢٥-٧٣) ، وتحقيق شاكر (١٦٠-٣/١) ، ومحتويات المقدمة المذكورة بمعناها على الترتيب .

- معاقدها الواردة في مواضع أخرى من القرآن الكريم"^(١).
- ثم يستشهد على ذلك برواياته المسندة إلى الصحابة والتابعين .
- وإذا تعددت الأقوال في الآية : فإنه يعرض القول الأول ، ويذكر فائليه ، ثم الأقوال الأخرى كذلك ، ولا يسكت عنها غالباً ، بل يوجهها ويرجح بينها ، بالحجج الشرعية ، واللغوية ، والعقلية .
- وقد يذكر المذاهب الفقهية ، وأدلتها ، وقد تصل إلى بعض مذهبه من خلال تفسيره .
- وكان معتنياً بأقوال السلف ، من الصحابة والتابعين ، وراداً على من خالفهم .
- وقد كان لابن جرير مذهب في الإجماع ، يوجب الرجوع إليه ، وينكر على مخالفه^(٢).
- وكذلك كان له مذهب في الترجيح بين القراءات ، ووصف بعضها بالشذوذ ، سيأتي بحث شيء منه - إن شاء الله - ، وقد كان من كبار علماء القراءات ، وألف فيها كتاباً .
- وكان في تفسيره يذكر الأخبار الإسرائيلية ، ويفصل في ذكرها ، وقد ينقدها أحياناً في سندها أو متنها .
- وإذا كان التفصيل لا فائدة منه في تأويل الآية ، يذكر الروايات التي عنده ، ثم يعقب عليها : بأنه غير نافع العلم بها ، ولا ضارُّ الجهل بها...^(٣).
- وكان يجمع بين علم الرواية والدراية^(٤).
- ويذكر الأقوال بأسانيدها ، ويرتبها مع الأقوال المماثلة لها ، ثم يقارن ويرجح .
- الاعتناء بالدليل النقلى ، والعقلي ، في الترجيح والتضعيف .
- العناية بالمفردات اللغوية الأصلية ، والمعاني المنقولة إليها ، مع بيان مناسبة النقل ، ويذكر الشعر الذي
-
- (١) التفسير ورجاله صفحة (٥١) للأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور .
- (٢) ومنهجه في الإجماع : عدم الاعتداد بمخالفة الواحد والاثنين ، وليس الإجماع بعناه الاصطلاحى المشهور عند الأصوليين . انظر الإجماع في التفسير صفحة (١٣٩-١٤١) ، رسالة ماجستير في جامعة الإمام ، للشيخ : محمد بن عبد العزيز الحضيرى ، ١٤١٦هـ .
- (٣) انظر تفسير الآية (١١٤) من المائدة : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ .
- (٤) انظر في ذلك قول السيوطي - رحمه الله - ، صفحة (٥٧) .

يدل على استعمال اللفظة في المعنى الذي حمّله عليه .
 - يذكر ما يتعلق بالآية من إعراب يقرب إلى التأويل ، وقد يفصل في الإعراب عند مدرستي البصرة والكوفة ؛ مما جعله مرجعاً مهماً له مكانته المرموقة .

- نصره مذهب السلف ، والدفاع عنه ، والرد على المبتدعة ، في كل موضع من كتابه .^(١)
 - أما أسلوب ابن جرير في تفسيره : فيحتاج إلى صبر وأناة لفهمه ، وتتبع دقيق لمعانيه ؛ ليسهل بعد ذلك فهمه ، يقول الأستاذ محمود شاكر في مقدمته : " كان يستوقفني في القراءة كثرة الفصول في عبارته ، وتباعد أطراف الجمل ، فلا يسلم لي المعنى ، حتى أعيد قراءة الفقرة منه ، مرتين أو ثلاثاً... ثم يقول : ولما راجعت كتب التفسير ، وجدت بعضهم ينقل عنه ، فينسب إليه ما لا أجده في كتابه ، فتبين لي أن سبب ذلك هو هذه الجمل ، التي شئت علي قراءتها ، يقرؤها القارئ ، فربما أخطأ مراد أبي جعفر ، وربما أصاب... " ^(٢).

ولنختتم هذا العرض المختصر لمنهج ابن جرير ، بوصف الفرغاني في تاريخه ، يقول: "فتم من كتب ابن جرير ، كتاب تفسير القرآن ، وجوده ، وبيّن فيه أحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله ، وغريبه ، ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، وإعراب حروفه ، والكلام على الملحين فيه ، والقصص ، وأخبار الأمة ، والقيامة ، وغير ذلك ، مما حواه من الحكم والعجائب ، كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة ، وإلى أبي جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم ، مفرد ، عجيب ، مستقصى ، لفعل" ^(٣).

ج - وصول الكتاب إلى المطابع الحديثة :

كان هذا التفسير يسمع ويقرأ عنه ، ولم يكن له الوجود ، إلا من زمن قريب ؛ حين وجد عند

(١) انظر التفسير والمفسرون (٢١٠/١-٢٢٠) ، والإمام الطبري ، لعبد الله آل شاكر صفحة (٥٩-٧٤) .

(٢) مقدمة تحقيق شاكر لجامع البيان صفحة (١١) الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

(٣) طبقات المفسرين للداوودي (١١١/٢) .

أمير حائل^(١) ، وكانت نسخة كاملة ، وطبع أول مرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، ثم طبع طبعة مصححة سنة اثنتين وعشرين ، في ثلاثين جزءاً .^(٢)

ثم تتالت الطبعات فمنها : المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، والطبعة الحلبية ، بعناية الأستاذ مصطفى السقا ، سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ثم طبع بدار المعارف ، بتحقيق الشيخين أحمد ومحمود شاكر ، في ستة عشر مجلداً ، من أول التفسير ، إلى الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم ، وذلك من سنة ١٣٧٤ - ١٣٨٨ هـ ، وهي متقنة النقول ، محسنة التحرير .

ثم طبع بدار الكتب العلمية ، سنة اثني عشرة وأربعمائة وألف ، وهذه الطبعة والتي حققها الشيخان أحمد ومحمود شاكر ، كان عليهما العزو للمواضع المنقولة من تفسير ابن جرير - رحمه الله - . فكم جمع هذا الكتاب من محاسن ! ، وكم حوى من أثر ! ، وكم طوى من فن ، رحم الله الإمام الفذ ، والعالم البارع ، ونفعنا بعلومه . آمين .

كانت هذه الوريقات نبذة مختصرة ، عن الإمام ابن جرير وتفسيره ، عسى أن تكون مرغوبة لاستزادة القارئ الكريم ، من التراجم الموسعة له . - والله الموفق - .

الثالث : دلالات الألفاظ على المعاني عند الأصوليين :

من الأمور المهمة جداً والتي لها تعلق بدلالة السياق ما يتعلق بدلالات الألفاظ ، ومرتبطة كثيراً بأصول الفقه ؛ لأنهم أوسع من تكلموا عن هذه الدلالات ، وسأذكرها على وجه الاختصار^(٣) .

(١) وهو : جمود بن الرشيد . انظر مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٧٤) لشيخنا مناع القطان - رحمه الله - .

(٢) انظر مذاهب التفسير الإسلامي صفحة (٨٦) ، للمستشرق : جولد تسيهر ، ترجمة علي حسن عبد القادر .

(٣) من بعض كتب أصول الفقه ، وانظر أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي ص ٢١٤ - ٤٠٥ فقد عرضه باختصار شديد ، وتصرف يسير ، وقد أحلقت هذه الدلالات بالبحث بعد الانتهاء منه لأهميتها ، وقد أشار بها علي فضيلة الدكتور سعيد بن جمعة الفلاح وفقه الله في مناقشة الرسالة .

ولتصور الدلالات من البدايات : " اعلم أن الأمور منقسمة إلى : ما يدل على غيره وما لا يدل .

فأما ما يدل فينقسم إلى : ما يدل بذاته : كالأدلة العقلية ...
وما يدل بالوضع : وهو ينقسم : إلى صوت وغير صوت : كالإشارة والرمز .
والصوت ينقسم في دلالاته إلى : مفيد وغير مفيد .
والمفيد كقولك : زيد قائم ، وزيد خرج راكباً .
وغير المفيد كقولك : زيد لا وعمرو في ، فإن هذا لا يحصل منه معنى ، وإن كان آحاد
كلماته موضوعة للدلالة .

وقد اختلف في تسمية هذا كلاماً : فمنهم من قال : هو كمقلوب رجل وزيد لجر وديز ،
ومنهم من سماه كلاماً ؛ لأن آحاده وضعت للإفادة .

والمفيد من الكلام ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف - كما في علم النحو - .
وهذا لا يكون مفيداً حتى يشتمل على :

اسمين أسند أحدهما إلى الآخر ، نحو : زيد أخوك ، والله ربك .
أو اسم أسند إلى فعل : نحو قولك : ضرب زيد ، وقام عمرو .
وأما الاسم والحرف : كقولك : زيد من وعمرو في ، فلا يفيد حتى تقول : من مضر ،
وفي الدار .

وكذلك : ضرب قام ، لا يفيد ؛ إذ لم يتخلله اسم ، وكذلك : من في قد على .
والمركب من الاسم والفعل والحرف تركيباً مفيداً ينقسم إلى : مستقل بالإفادة من كل وجه ،
وإلى ما لا يستقل بالإفادة إلا بقريئة ، وإلى ما يستقل بالإفادة من وجه دون وجه .

مثال الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُؤُوا الزُّرِّيَّةَ ﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] ، وذلك يسمى نصاً ؛ لظهوره . والنص في السير هو الظهور فيه...

والنص ضربان : ضرب هو نص بلفظه ومنظومه كما ذكرناه ، وضرب هو نص بفحواه
ومفهومه نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنْفِي ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿ وَلَا تَطْلُمُونَ فَيَلًا ﴾ [النساء: ٧٧]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ آمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ﴾ (آل عمران: ٧٥) فقد اتفق أهل اللغة على أن فهم ما فوق التأنيف من الضرب والشتم ، وما وراء الفتيل والذرة من المقدار الكثير ، أسبق إلى الفهم منه من نفس الذرة والفتيل والتأنيف .
ومن قال : إن هذا معلوم بالقياس ، فإن أراد أن المسكوت عنه عرف بالمنطوق فهو حق ، وإن أراد به أنه يحتاج فيه إلى تأمل أو يتطرق إليه احتمال فهو غلط .

وأما الذي لا يستقل إلا بقريئة فكقوله تعالى : ﴿أَوْيَعْمُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الرِّجَالِ﴾ (البقرة: ٢٣٧) وقوله : ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) وكل لفظ مشترك ومبهم ، كقوله : رأيت أسدا وحمارا وثورا، إذا أرد شجاعا وبليدا ، فإنه لا يستقل بالدلالة على مقصوده إلا بقريئة .

وأما الذي يستقل بوجه دون وجه فكقوله تعالى : ﴿وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١) وكقوله : ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩) فإن الإيتاء ويوم الحصاد معلوم ، ومقدار ما يؤتى غير معلوم ، والقتال وأهل الكتاب معلوم ، وقدر الجزية مجهول ، فخرج من هذا : أن اللفظ المفيد بالإضافة إلى مدلوله : إما أن لا يتطرق إليه احتمال فيسمى نصا ، أو يتعارض فيه الاحتمالان من غير ترجيح فيسمى مجملا ومبهما ، أو يترجح أحد احتمالاته على الآخر فيسمى بالإضافة إلى الاحتمال الأرجح ظاهرا ، وبالإضافة إلى الاحتمال البعيد مؤولا ، فاللفظ المفيد إما نص أو ظاهر أو مؤول.^(١) وإليك بيان دلالات الألفاظ على وجه مبسّط :

لقد اهتم علماء الأصول بالألفاظ ، من جهتين :

من حيث تقسيماتها وأنواعها . ومن حيث دلالتها على المعاني .^(٢)

(١) المستصفي من علم الأصول لأبي حامد الغزالي ومعه كتاب فواتح الرحموت لعبد العلي الأنصاري ، تقدم وضبط الشيخ إبراهيم رمضان ، طبع دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت (١/٦٧١-٦٧٤).

(٢) ذكر الدكتور نور الدين الخادمي أن الدلالات على ثلاثة أنواع : ١- باعتبار وضعها لمعانيها : عام وخاص وأمر ونهي ومطلق ومقيد ومشترك ، ٢- باعتبار وضوحها وخفائها : حقيقة ومجاز وواضح وخفي ، ٣- باعتبار كيفيتها : منطوق ومفهوم . انظر تعليم علم الأصول ص ٣٣٢ .

وسبب ذلك : أن استنباط الأحكام الشرعية إنما يكون استفادتها من دلالات الألفاظ ، واستخراج هذه الدلالات من طريق الدلالة المباشرة ، أو الإشارة والإيماء .
ويذكر الأصوليون أن علماء أصول الفقه أحاطوا بما قرره علماء اللغة والنحو والتصريف ، وأضافوا عليه تفاصيل لا توجد عند غيرهم ، حتى من أهل اللغة أنفسهم ، حتى مع تعدد المؤلفات اللغوية ووفرقتها .

فمن الموضوعات التي لها تعلق بدلالات ألفاظ الشرع : الأمر والنهي ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمنطوق والمفهوم ، والنص والظاهر والمجمل والمبين .
فتكلم الأصوليون عن هذه الدلالات حسب أهميتها :

فاهتم الأصوليون بالأمر والنهي : وهو أساس التكليف ، سواء أكان من باب الصراحة أو ما يدل عليها : فذكروا ألفاظ الأمر ، وما يصدق عليه من الألفاظ ، وبينوا المراد بالأمر ، وصيغته ، وما يقتضيه من الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة ، وهل هو على الفور أو التكرار ، وإذا ما ذهب وقته فهل يسقط ؟ ، ونحو ذلك من التفاصيل وغيرها .

وتحدثوا عن النهي وتعريفه ، وصيغته وأساليبه ، وهل يقتضي التحريم أم الكراهة ؟ ، وهل يقتضي الفورية والاستمرار ، وهل النهي عن الشيء أمر بضده ، وحكم النهي بعد الأمر ، وهل يقتضي النهي الفساد ، وغير ذلك .

وتطرق الأصوليون للعام والخاص : فعرفوا العام ، وفرقوا بينه وبين المطلق ، وذكروا أقسام العام من حيث معرفة عمومته إلى عام لغة وعام عقلا ، وعام عرفا . وغير ذلك ، ثم يذكرون صيغ العموم ، وتحدثوا عن النكرة في سياق النفي هل هي عموم أم لا؟ ، وفصلوا في قوة دلالة العام هل هي قطعية أم ظنية ، وما العمل مع العام بعد تخصيصه هل هو حجة فيما بقي ؟

ثم عرف علماء الأصول الخاص بعد ذكر العام ، وما هو التخصيص ؟ وفرقوا بين التخصيص ونسخ حكم بعض أفراد العام ، وأركان التخصيص وشروطه ، وبينوا المخصصات المتصلة والمنفصلة ، فمن المتصلة الاستثناء والشرط والصفة والغاية والبدل ، وذكروا قواعد متعلقة بهذه المخصصات المتصلة في كل نوع ، ودرسوا المخصصات المنفصلة ومنها الحس والعقل والنص والقياس والإجماع والمفهوم

وغير ذلك ، ثم تحدثوا كذلك عن المطلق والمقيد ، وكذلك تحدثوا عن المنطوق والمفهوم ، وقد جرى علماء الأصول إلى تقسيم الدلالة إلى قسمين : دلالة منطوق ودلالة مفهوم ، ومنهم من قسمها إلى منظوم وغير منظوم :

فمن قسمها إلى منطوق ومفهوم : فقد عرفوا المنطوق بأنه المعنى المستفاد من صريح اللفظ ، أو : ما دل عليه اللفظ في محل النطق .

والمفهوم بعكسه : فهو ما دل عيه اللفظ في غير محل النطق أي : في مقدر خارج عن المنطوق به ، ومثال ذلك : دلالة قوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَىٰ** ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريم الضرب والشتم ، ودلالة قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ فَنَائِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [النساء: ٢٥] على أن الأمة غير المؤمنة لا يصح نكاحها لمن لم يجد مهر الحرة .

ومن قسم الدلالات إلى منظوم وغير منظوم :

فكل دلالة يكون الدال فيها دل بالوضع اللغوي ، وهي تشتمل على دلالة المطابقة ودلالة التضمن .

والثانية : غير المنظوم : وهي دلالة الالتزام ، وهي دلالة اللفظ لا بصريح صيغته ووضعها ، ويشمل دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة ودلالة الإيماء ودلالة المفهوم :

١ - دلالة الاقتضاء : هي دلالة اللفظ على معنى مسكوت عنه يجب تقديره لصدق الكلام أو لصحته شرعا أو عقلا ، والمعنى المدلول عليه بالاقتضاء يسمى المقتضى [اسم مفعول] وهو ثلاثة أنواع ، واضحة في التعريف . فمما يجب تقديره لصحة الكلام شرعا قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٤] فهذا هنا محذوف حتى يصبح الكلام شرعا وهو عبارة : "فأفطر" للاتفاق على أن من كان مريضا أو على سفر ولم يفطر فلا قضاء عليه ، ولو لم نقدر العبارة السابقة لوجب القضاء على المريض والمسافر حتى لو صاما ، ولم ينقل هذا إلا عن بعض الظاهرية ، وهذه الدلالة قد تسمى عند بعض الأصوليين دلالة الإضمار ، والمعنى المقدر يسمى المضمّر أو المقتضى .

واختلفوا في عموم المقتضى أو هو لا عموم له :

ففي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ ﴾ [المائدة: ٣] قال الأولون : نقدر الانتفاع حتى يكون أعم ، وقال الآخرون : نقدر الأكل .

والأقرب أن يقدر ما دل عليه العرف هنا ، ففي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] فيحمل على ما دل عليه العرف : وهو تحريم الوطاء ودواعيه من عقد أو غيره ، ولا يحمل على النظر واللمس بلا شهوة .

٢- ودلالة الإشارة : وهي المعنى اللازم من الكلام الذي لم يسق الكلام لبيانه ، مثل فهم جواز أن يصبح المسلم جنباً في رمضان ، من قوله تعالى : ﴿ أَهْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فإذا جاز له الجماع طوال الليل إلى الفجر ، جاز أن يطلع عليه الفجر وهو جنب ولا يفسد صومه بذلك .

٣- الإيماء : وهو فهم التعليل من ترتيب الحكم على الوصف المناسب ، مثاله قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقِ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] ، فهذا يدل على أن العلة السرقة ، لأن الله رتب الحكم بالفاء على وصف مناسب وهو السرقة ، وهذا يرمي إلى العلة وبينه عليها ؛ ولذا سماه بعضهم الإيماء أو التنبيه إلى العلة .

٤- المفهوم : وهو نوعان : مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة :

الأول : مفهوم الموافقة : وهو المعنى الثابت للمسكوت عنه الموافق لما ثبت للمنطوق ؛ لكون المسكوت أولى بالحكم من المنطوق أو مساوياً له .

ومثال المفهوم الأولي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإنه يدل بطريق الأولى على تحريم الضرب والشتيم .

ومثال المفهوم المساوي : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء: ١٠] فإنه يدل على تحريم الأكل بمنطوقه ، وعلى تحريم كل ما فيه تفويت لمال اليتيم بمفهوم الموافقة المساوي ، فلا يجوز التصدق بمال اليتيم ولا إنفاقه في الجهاد ونحوه .

ومفهوم الموافقة حجة عند جميع الأئمة ، وخالف فيه الظاهرية ولا يلتفت إلى خلافهم .
ودلالة مفهوم الموافقة منه ما هو قطعي الدلالة ومنه ما هو ظني ، فالتطعي كما في المثاليين
آنفا، وقد يكون مظنوناً أو ضعيفاً :

فمثال المظنون : كما في قولهم : "إذا ردت شهادة الفاسق للكافر من باب أولى"، وهذا
مندرج تحت قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦] فهذا المفهوم
ظني؛ لأنه لا يبعد أن ترد شهادة الفاسق لأنه متهم بالكذب، ولا ترد شهادة الكافر لأنه يحتزر من
الكذب ، والراجح رد شهادة الكافر .

ومثال الضعيف : قول الشافعية : تجب الكفارة في قتل العمد ؛ لوجوبها في قتل الخطأ من باب
أولى ، وذلك لأن الكفارة وجبت في قتل الخطأ لقلّة الجرم ، وأما القتل العمد فإن الكفارة لا تكفره ؛
لكونه جرماً عظيماً لا يكفره إلا القود .

الثاني : مفهوم المخالفة : ويسمى : "دليل الخطاب " :

وهو الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم المذكور في المنطوق عما عداه .
وسمي مخالفة ؛ لأن الحكم الذي يثبت للمسكوت نقيض للحكم المنطوق به مختلف عنه .

ومفهوم المخالفة ستة أنواع :

- ١- مفهوم الصفة : ويشمل ما هو أعم من النعت عند النحاة ، فيشمل النعت والحال والجار
والجرور والظرف والتمييز . مثاله : قوله - ﷺ - : " في سائمة الغنم إذا كانت أربعين ففيها شاة" .^(١) ،
فتخصيص السائمة بالذكر يدل على أن المعلوفة لا زكاة فيها .^(٢)
- ٢- مفهوم الشرط : مثاله حديث : "أعلى المرأة من غسل -يا رسول الله- إذا هي احتملت؟

(١) رواه أبو داود حديث ١٥٦٧ ، وهو من كتاب أبي بكر رضي الله عنه لأنس رضي الله عنه ، وعليه خاتم النبي - ﷺ - ،
وبنحوه في البخاري ١٤٥٤ .

(٢) هذا إذا لم تكن الغنم عروض تجارة ، وإنما هي للدر والنسل فقط ، فيشترط في زكاتها السوم أكثر السنة .

- قال: "نعم إذا رأت الماء" ^(١). فيفهم من هذا أنها إذا لم تر الماء فلا غسل عليها .
- ٣- مفهوم العدد : وهو ما يفهم من تخصيص العدد بالذكر ، أو ما يفهم من تعليق الحكم على عدد مخصوص . مثاله قوله تعالى : ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] دل بمنطوقه على الثمانين، وبمفهومه على عدم أجزاء ما نقص عنها ، وعلى المنع من الزيادة عليها. والذي يظهر أن هذا النوع داخل في مفهوم الصفة ؛ لأن المقدار أحد صفات الشيء .
- ٤- مفهوم الغاية : وهو ما يفهم من مد الحكم إلى غاية بإحدى أدوات الغاية وهي (إلى ، وحتى واللام). مثاله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] منطوقه دال على وجوب استمرار الصيام من طلوع الفجر إلى الليل ، ومفهومه يدل على أن الليل لا يجوز صيامه ، فيبطل الوصال ، كما لو قال : لا تصوموا الليل .
- ٥- مفهوم التقسيم : وهو ما يفهم من تقسيم المحكوم عليه قسمين فأكثر ، وتخصيص كل منهما بحكم . مثاله قوله - ﷺ - : "الطيب أحق بنفسها ، والبكر تستأذن" ^(٢). فمنطوقه واضح ، ومفهومه أن كل قسم يختص بحكمه ، ولا يشارك الآخر في حكمه ، فالطيب أحق بنفسها فتكون البكر ليست أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن يدل على أن الطيب لا تستأذن ؛ لأن الإذن منها لا يكفي بل لا بد من التصريح . والذي يظهر أيضا أن هذا النوع داخل في مفهوم الصفة (وقد سبق) .
- ٦- مفهوم اللقب : وهو ما يفهم من تخصيص الاسم المجرد بالحكم من نفي الحكم عما عداه ، وسواء كان الاسم لإنسان أو حيوان ، اسم علم أم اسم جنس . مثاله قوله - ﷺ - : "لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل" ^(٣) . منطوقه ظاهر ، ومفهوم اللقب أن ما ليس ذهباً يجوز بيعه بمثله أو غيره من غير مماثلة.
- حجية مفهوم المخالفة : بأنواعه الخمسة المتقدمة -دون السادس- حجة عند الجمهور ، مع

(١) البخاري ١٣٠ ، ومسلم ٣١٣ ، من حديث أم سليم رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم حديث ١٤٢١ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه البخاري ٢١٧٧ ، ومسلم ١٥٨٤ ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

اختلافهم في كل نوع من أنواعه.

واستدلوا على ذلك بأدلة منها: ١- قوله - ﷺ - : بعد نزول قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] : "لأزيدن على السبعين". أخرجه البخاري بنحو هذا اللفظ^(١). وجه الدلالة: أن النبي - ﷺ - فهم من النص على السبعين أن ما زاد عنها قد يكون حكمه مختلفا عن المقتصر على هذا العدد، فوعد بالزيادة على السبعين، لكنه نهي نهيًا صريحًا عن الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم.

٢- أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا من تخصيص الوصف بالذكر انتفاء الحكم عما خلا عنه ويدل لذلك وقائع، منها: أ- ما روى يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١] فقد أمن الناس؟ فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله - ﷺ - فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته".^(٢)

ب- لما قال النبي - ﷺ -: "يقطع الصلاة الكلب الأسود"، قال عبد الله بن الصامت لأبي ذر: ما بال الأسود من الأحمر من الأصفر؟ فقال: سألت رسول الله - ﷺ - كما سألتني فقال: "الكلب الأسود شيطان".^(٣)

فهؤلاء من فصحاء العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وقد فهموا من تخصيص الحكم بوصف انتفاؤه عما لم يوجد فيه ذلك الوصف.

٣- أن النبي - ﷺ - سئل عما يلبس المحرم، فأجاب بذكر ما لا يلبسه المحرم، فقال: "لا يلبس القميص ولا السراويلات ولا البرانس"^(٤). وجه الدلالة: أنه لولا أن تخصيص الممنوع بالذكر

(١) انظر البخاري ٤٦٧٠، ولفظه: "وسأزيدن على السبعين".

(٢) أخرجه مسلم ٦٨٦.

(٣) أخرجه مسلم ٥١٠.

(٤) البخاري برقم ٣٤، ومسلم برقم ١١٧٧، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يدل على إباحة ما عداه لما كان قول الرسول - ﷺ - جواباً لسؤالهم ؛ لأنهم سألوه عما يجوز لبسه أو يجب ، فأجاب بذكر ما لا يجوز لبسه ، فدل على أن ما عداه يجوز لبسه .

٤- أن تخصيص الشيء بالذكر لا بد له من فائدة ، فإذا لم نعلم فائدة غير انتفاء الحكم عما عداه جعلنا التخصيص دالاً على ذلك .

وذهب أكثر الحنفية إلى عدم حجية مفهوم المخالفة مطلقاً ، واستدلوا بأدلة ، أهمها :
الأول : أن القرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بالنصوص التي فيها تعليق الحكم على وصف أو عدد أو غاية ، ولا سكون نفي الحكم عما سوى المذكور مراداً باتفاق الصحابة . ومن ذلك :
أقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّبْتُمْ كُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ولا خلاف في تحريم الربية إن لم تكن في الحجر .

ب- قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ١٠١] ولا خلاف في جواز القصر للمسافر وإن لم يكن خائفاً .

ج- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَبَدَّالَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ أَحَدُهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٢٠] ولا خلاف في أنه لو رغب طلاق المرأة ولم يرد الزواج بغيرها أنه داخل في النهي عن أخذ شيء من المهر ، ولو كان المفهوم حجة لما كان ذلك إلا لمن رغب الاستبدال بها .

د- قوله تعالى : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ولم يدل هذا على خروج حليلة الابن من الرضاة ، مع أنها ليست من الصلب .

الثاني : أن الله قد نص على المفهوم المخالف حين يريد نفي الحكم عنه في آيات كثيرة ولو كان المسكوت عنه كافياً لما كانت هناك حاجة إلى النص عليه . ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا بَوَيْهٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ وَلَدٌ وَوَرِثَةُ آبَاؤِهِ فَلَا مَوْلَى لَكُمْ ﴾ [النساء: ١١] .

الثالث : أن ما سوى المنطوق مسكوت عنه والمسكوت عنه ليس له حكم يؤخذ من اللفظ

فليطلب حكمه من دليل آخر .

والراجح هو قول الجمهور ، أن مفهوم المخالفة بأنواعه كلها سوى مفهوم اللقب .
وقول الأحناف : إن في القرآن والسنة كثيرا من مفاهيم المخالفة المتفق على عدم حجيتها ،
يجاب بأن تلك المواضع لم تتوافر فيها شروط الاحتجاج الآتي ذكرها .
وقولهم : إن الله قد نص على المفهوم حيث أراده يجاب بأن ما نص فيه على المفهوم قصد
تأكيده ولا يدل على أن غيره ليس بحجة .
وأما مفهوم اللقب فليس بحجة على الصحيح عند جماهير العلماء ؛ لأنه لو كان حجة لكان
الثناء على الرسول - ﷺ - ووصفه بالرسالة وقدحا في بقية الرسل وإنكارا لرسالتهم .
ولأن الرسم لا يشعر بالتعليل ؛ ولهذا لا يدل ذكره على نفي الحكم عن غيره .
ولأن الاحتكام في ذلك إلى لغة العرب واللغة لا تدل على أن ذكر الاسم والنص على حكمه
دليل على نفي الحكم عن غيره .

شروط العمل بمفهوم المخالفة : للعمل بالمفهوم شروط ، أهمها :

- ١- أن لا يكون تخصيص المذكور بالذكر جرى مجرى الغالب ، فإن كان كذلك فلا يحتج به ،
ومثاله قوله تعالى : ﴿ **وَرَبِّبْتُكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٣] فوصف الرائب
بكونهن في الحجور جرى مجرى الغالب ، إذ الغالب أن تكون بنت الزوجة معها عند زوجها الثاني .
- ٢- وإنما اشترطوا ذلك لأن ما جرى مجرى الغالب يكون حاضرا في الذهن عند التكلم
فيذكره في كلامه ولا يقصد نفي الحكم عنه .
- ٣- أن لا يكون حكم المذكور جاء لكونه مسئولا عنه ، أو بيانا لحكم واقعة ، فإن سئل عنه
فرتب الحكم عليه أو كان أمرا واقعا جاء بيان حكمه على صفة التي هو عليها ، لم يدل ذلك على نفي
الحكم عما عداه ، ومثله بقوله تعالى : ﴿ **لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الرِّبَا إِذَا ضَعِفَتْ مُضَاعَفَةً** ﴾ [آل عمران: ١٣٠] ،
فإنه لا يدل على جواز أكل الربا إذا كان قليلا ؛ لأن الآية بيان لحم أمر واقع .
- ٣- أن لا يكون المذكور في اللفظ سبق ذكره حتى يكون معهودا ، فإن كان معهودا فلا يدل
ذكره على قصر الحكم عما عداه ، وهو أعم من الذي قبله ؛ لأن المسئول عنه معهود ؛ لسبق ذكره .

٤- أن لا يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المذكور فإن كان كذلك فإنه يكون من مفهوم الموافقة ويثبت للمسكوت حكم المنطوق من باب أولى .

ومثله بعضهم بقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلَيْهِ** ﴾ [النساء: ٩٢] قالوا : فإن قتله عمدا وجبت الكفارة من باب أولى . وهذا ليس صحيحاً عند الأكثر ؛ لأن الكفارة تطهير للمكلف ، والقتل العمد لا تكفره الكفارة؛ لأنه جرم عظيم لا يطهره إلا القود ، ولذا لم تجب فيه كفارة .

وأظهر منه قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ** ﴾ [الإسراء: ٣١] حيث لا يفهم منه جواز قتلهم دون خشية الفقر ؛ لأنه إذا حرم قتلهم مع خوف الفقر والعجز عن نفقاتهم فتحریم قتلهم مع القدرة على نفقاتهم أولى بالتحريم .

ويجمع هذه الشروط السابقة التي ذكروها أنها ترجع إلى شرط واحد ، وهو أن لا يظهر لتخصيص المذكور بالذكر فائدة سوى اختصاصه بالحكم عما لم يشاركه في الصفة المذكورة . ولهذا الخلاف أثر في مسائل كثيرة منها : هل يجوز نكاح الأمة لمن لم يجد مهر الحرة؟ وهل يشترط لمن أراد نكاح الأمة أن تكون مؤمنة ؟

ففي المسألة الأولى : اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [النساء: ٢٥] وخلافهم يبني على خلافهم في الاستدلال بمفهوم الشرط :

فالجمهور قالوا : الآية تدل بمفهوم المخالفة في قوله : ﴿ **وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ** ﴾ على أن المستطيع لمهر الحرة القادر على نكاحها ليس له أن ينكح أمة .

والحنفية قالوا : الآية بينت حكم من لم يستطع مهر الحرة وسكتت عن المستطيع ، فيطلب حكم نكاحه من دليل آخر ، وقد وجدنا الدليل في عموم قوله تعالى : ﴿ **فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ [النساء: ٣] والأمة من النساء .

وفي المسألة الثانية : اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ **مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [النساء/٢٥]

وخلافهم يبني على خلافهم في الاستدلال بمفهوم الصفة :

فذهب الجمهور إلى اشتراط إيمان الأمة أخذاً بمفهوم الصفة المتقدم ، فقلوه : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ يدل بمفهوم المخالفة أن غير المؤمنة لا يجوز نكاحها .

وذهب الحنفية إلى جواز نكاح الأمة الكتابية ، وقالوا : النص على المؤمنة لا يدل على نفي الحكم عما عداها ، وإنما يدل على أن ما عداها يطلب حكمها من دليل آخر ، وقد وجدنا الدليل يدل على التفريق بين الكتابيات وغيرهن من الكافرات في قوله : ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْ تَابُوا** ﴾ [المائدة: ٥] فالكتابية يجوز نكاحها سواء أكانت حرة أم أمة بخلاف بقية الكفار .

منهج الحنفية في تقسيم كيفية الدلالة :

سبق ذكر الدلالة عند الجمهور وأنها على نوعين : منطوق ومفهوم ، أو منظوم وغير منظوم .
وأما الحنفية فإنهم يجعلون الدلالة أربعة أقسام :
الأولى : دلالة العبارة (عبارة النص): وهي دلالة اللفظ على المعنى المتبادر فهمه من الصيغة.
مثالها قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ [الأنعام: ١٢١] فعبارة النص تدل على تحريم متروك التسمية ، وهي تقابل دلالة المنطوق عند الجمهور .
الثانية : دلالة الإشارة (إشارة النص): وهي دلالة اللفظ على معنى غير مقصود بسياق الكلام ، ولكنه لازم للمعنى إلى سيق له الكلام .مثالها : قوله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ** ﴾ [الحشر: ٨] قالوا : هذه الآية تدل بطريق الإشارة على أن الكفار إذا استولوا على أموال المسلمين يملكونها ؛ لأن الله سماهم فقراء مع أن أموالهم تحت أيدي الكفار .
ومثلها الأمثلة السابقة في دلالة الإشارة عند الجمهور ، فإن مصطلح الفريقين متقارب في الدلالة .

الثالثة : دلالة الاقتضاء: (اقتضاء النص): وهي زيادة على المنصوص يشترط تقديرها ليصير المنظوم مفيداً أو موجبا للحكم ، وبدونها لا يمكن إعمال المنظوم وتصحيحه . ومثالها قوله تعالى :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ﴾ [المائدة: ٣] لا بد من تقدير محذوف وهو أكل الميتة ، قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ﴾ [النساء: ٢٣] يقتضي تقدير محذوف وهو الوطاء ودواعيه . ومصطلحهم في هذه كمصطلح الجمهور ، وإنما وقع الخلاف في عموم المقتضى أو المقدر . الرابعة : دلالة النص : وهي دلالة المنطوق على أن حكمه ثابت للمسكوت ؛ لكونه أولى منه . وهي التي يسميها الجمهور مفهوم الموافقة ، وأمثلتها تقدمت . وأما مفهوم المخالفة فيسميه الحنفية دلالة المخصوص بالذكر على نفي الحكم عما عداه ، وهو عندهم ليس بحجة .

دلالة اللفظ من حيث الظهور والخفاء :

جرى جمهور الأصوليين على تقسيم اللفظ من حيث ظهور دلالاته وخفاءها إلى ثلاثة أقسام هي : النص والظاهر والمحمل :

أولا النص : وهو ما دل على معناه دلالة لا تحتل التأويل .

مثل دلالة قوله تعالى : ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] على مقدار الجلد .

وقيل ما دل على معناه ولم يحتل غيره احتمالا ناشئا عن دليل .

وعلى هذا فالاحتمال الذي لا دليل عليه لا ينقض قوة الدلالة ، ولا يجعل اللفظ ظاهرا بل

يبقى في مرتبة النص .

ويطلق النص في مقابل الدليل العقلي أو الدليل من المعنى فيكون المقصود به النقل ، سواء أكان

نصا صريحا أم ظاهرا أم محتملا ، كقول الفقهاء في مسألة: دليلنا النص والقياس .

ثانيا : الظاهر : وهو ما احتل معنيين هو في أحدهما أظهر . وهذا يدل على أن الظاهر صفة

لفظ ، لأن اللفظ هو الذي احتل معنيين .

وقد يطلقون لفظ الظاهر على المعنى الراجح الذي دل عليه اللفظ مع احتمال غيره احتمالا

مرجوحا ، فيقولون : هو الاحتمال الراجح .

ومثاله : دلالة الأمر على الوجوب مع احتمال الندب ، ودلالة النهي على التحريم مع احتمال الكراهة : كقوله تعالى في الأمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .
 وكقوله تعالى في النهي حكاية عن نبينا محمد - ﷺ - : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .

وهكذا كل حقيقة احتملت الجواز ولم تقم قرينة قوية على ذلك فهي ظاهرة في المعنى الحقيقي . وقد يعرفون الظاهر بما كانت دلالاته على المعنى دلالة ظنية لا قطعية ؛ تفريقا بينه وبين النص ، وقد وقع للشافعي تسمية الظاهر نصا كما نقل ذلك الإمام الجويني وغيره .
 المؤول : إذا ذكر الظاهر ذكر المؤول ، وهو اصطلاحا : اللفظ المحمول على الاحتمال المرجوح بدليل ، سمي بذلك ؛ لأن المؤول يرجع معنى اللفظ إلى المعنى البعيد الذي لم يكن موضوعا له للدليل يذكره .

والتأويل : حمل اللفظ على الاحتمال المرجوح بدليل . وهذا يشمل التأويل الصحيح والتأويل الفاسد .
 فالتأويل الصحيح : حمل اللفظ على الاحتمال غير المتبادر بدليل قوي يقتضي ذلك .
 والتأويل الفاسد : حمل اللفظ على الاحتمال غير المتبادر بدليل ضعيف لا يقوى على صرف اللفظ عن ظاهره .

والمؤول هو اللفظ عن ظاهره بدليل ، فإن كان الدليل قويا يقتضي رجحان الاحتمال الذي كان مرجوحا لولاه فهو تأويل صحيح وإلا كان باطلا .

مثال التأويل الصحيح : تخصيص العام بدليل خاص ، مثل تخصيص قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] بالأحاديث الدالة على تحريم البيع على بيع أخيه ، والبيع مع النجش ، وبيع الحصة ، ونحوه من بيوع الغرر .

فحينئذ تكون الآية مصروفة عن عمومها الذي كانت هو المتبادر من اللفظ، والصارف لها الأدلة السابقة .

ومثله : تأويل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] على أن المراد : إذا أردت قراءة القرآن ، وليس المراد إذا فرغت من قراءته كما يفيد ظاهر اللفظ من حيث الوضع .

ومثله : تأويل قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] فإنها مؤولة عن ظاهرها ، والمقصود : إذا أردتم القيام إلى الصلاة ؛ لأن الوضوء يسبق القيام إلى الصلاة . ومثال التأويل الباطل : تأويل الحنفية حديث غيلان عندما أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي - ﷺ - : "أمسك منهن أربعاً وفارق سائرهن". ^(١) على أن المراد : أمسك الأربع الأول منهن أو على أن المراد ابتدئ نكاح أربع منهن .

ومما يبطل هذا التأويل أن الشبهة التي استندوا إليها لا تقوى على ترجيح ما ذكره من احتمال بعيد ؛ لأنهم قالوا : إن المتأخرات نكاحهن باطل فلا يجوز أن يختار منهن أحداً إلا بعقد جديد. والجواب عن هذا : أن الرجل الذي جاء الحديث في شأنه حديث الإسلام ولا يعرف شروط النكاح وأركانها ولو أراد النبي - ﷺ - اشتراط أن تكون الأربع هن المتقدم نكاحهن لبيّن له ذلك، ولما سكت النبي - ﷺ - عن بيان ذلك عرفنا أن الأمر متروك لاختيار الزوج .

ثم إن النبي - ﷺ - قد أقر الكفار الذين أسلموا على أنكحتهم ولم يغيرها ولم يأمر بتجديدها مما يدل على أن الفرقة لم تحصل بمجرد الإسلام ؛ إذ لو حصلت لم يغير .

وكذلك تأويلهم حديث : "أبما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل". ^(٢) بأن المراد به الصغيرة أو الأمة أو المكاتبه ولا يخفى بعد هذا الاحتمال .

وشروط التأويل الصحيح شرطان :

(١) رواه أحمد ٤٦٠٩ ، والدارقطني ٤٧٥٦ ، وابن حبان ٣٦٨٤ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال محقق المسند : حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده ويعمل الأئمة المتبوعين به ٢٢١/٨-٢٢٥ .

(٢) رواه أحمد ٢٥٣٢٦ ، وأبو داود ٢٠٨٣ ، والنسائي في الكبرى بنحوه ٥٣٩٤ ، وابن ماجه ١٨٧٩ ، وقال محقق المسند : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن ... وهو في مصنف عبد الرزاق ١٠٤٧٢ ، والدارقطني في السنن ٢٢١/٣ ، والحاكم في المستدرک ١٦٨/٢ .

الأول : أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذي يراد صرفه إليه في لغة العرب أو في عرف الاستعمال ، وهذا يعرف بمعرفة وضع اللفظ في اللغة أو معرفة عرف الاستعمال عند أهل اللغة أو عرف الشرع وعادته .

الثاني : أن يقوم على التأويل دليل صحيح ، إما من السياق الذي جاء فيه اللفظ أو من دليل آخر لا يمكن الجمع بينه وبين هذا الدليل إلا بتأويل أحدهما .

مثال ما دليل تأويله السياق : قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فلفظ الناس الوارد أولا يجب تأويله عن ظاهره ؛ ليكون المراد به فئة قليلة من الناس ، بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وبدليل قوله في صدر الآية : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فالسياق يدل على أن هناك قائلا ومقولا له ومخبرا ومخبرا عنه بالإضافة إلى دلالة الحس ، على أن أكثر الناس في أقطارهم لا علاقة لهم بالواقعة . ومثله حمل اللفظ على المجاز لقيام القرينة ، كقولك : رأيت أسدا متقلدا سيفاً . ومثال ما كان دليل التأويل فيه مستقلا : التخصيص بالمخصصات المنفصلة ، وحمل المطلق الوارد في موضع على المقيد الوارد في موضع آخر .

الثالث : الجمل : والجمل اصطلاحاً : ما دل على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه . فهذا الإجمال موجود بالنظر إلى النص ذاته .

مثال الجمل الذي قد بين : قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١] فقد قام الدليل على أن الحق الواجب في المال هو الزكاة ومقاديرها معلومة ، وذهب بعض العلماء إلى أن المقصود بالحق هنا : الصدقة المطلقة منه في يوم الحصاد بما تجود به نفس المالك من غير تحديد . ومثال الجمل الباقي على إجماله ؛ لكونه لم يتعلق به تكليف : الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، كقوله : ﴿ آت ﴾ [البقرة: ١] ، و ﴿ كَهَيْعَتِ ﴾ [مرم: ١] ونحوهما .

وقد خص بعض العلماء هذا النوع من الجمل باسم خاص هو المتشابه . وعلى ذلك فلا يكون هناك جمل لم يبين ، ولكن يوجد متشابه استأثر الله بعلمه أو علمه الراسخون في العلم دون غيرهم

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران ٧] وقد اختلف القراء في الوقف أين يكون؟ فمن وقف عند لفظ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال: إن التشابه ما استأثر الله بعلمه، مثل له بحقائق ما يقع يوم القيامة: من وزن الأعمال ونصب الصراط والعبور ليه ونحو ذلك، وبكيفيات صفات الله تعالى.

ومن وقف عند لفظ العلم في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: إن الراسخين في العلم يعلمون التشابه، وفسر التشابه بما غمض معناه حتى لا يعرفه إلا الراسخون في العلم. ولكل من الفريقين حجج، والآية محتملة للأمرين. وللإجمال أسباب، منها ثلاثة:

١- الاشتراك اللفظي: وهو تردد اللفظ بين معنيين فأكثر، ولا يكون هناك ما يدل على المراد من المعنيين صراحة، مثاله قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرِيضُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فالقرء يحتمل الطهر والحيض، ولا يوجد في السياق ما يدل صراحة على المراد منهما، وإن كان كل من المختلفين استظهر من النص ما يؤيد قوله.

٢- اشتهاار الجواز وكثرة استعماله: فإذا اشتهاار الجواز وشاع حتى ساوى الحقيقة في استعمال صار الدليل محتملا للمعنيين على السواء، مثل لفظ العين الباصرة حقيقة، ويطلق على الجاسوس مجازا. ومثله لفظ النكاح، فإنه في أصل اللغة للوطء، ثم أطلق على العقد مجازا، واشتهاار حتى ساوى الحقيقة، فإذا ورد لفظ النكاح في الدليل الشرعي احتمل المعنيين فصار مجملا ما لم يصحبه بيان، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا مَحْلُ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فلفظ: ﴿تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ يحتمل الاكتفاء بالعقد ويحتمل لزوم الوطء بعد العقد.

ولولا بيان الرسول - ﷺ - بقوله: "حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك" -^(١) لكان مجملاً.
 ٣-الإطلاق أو التعميم في موضع لا يمكن العمل فيه بالمعنى الظاهر من اللفظ لافتقاره إلى
 التحديد: ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ﴾ [الأنعام: ١٤١] فالحق مطلق من غير
 محدود ولا معروف المقدار، وكذلك الأمر بالصلاة قبل بيان صفتها .

الفرق بين الجمل والمشارك : أن الجمل بالنسبة إلى فهم الشخص ، والمشارك بالنسبة لوضع
 اللفظ واستعماله ، وأيضا فالإجمال في الأدلة الشرعية قد بين ، ولم يبق لفظ مجمل لا بيان له على
 الأرجح من قولي العلماء، أما الاشتراك فلا أحد يدعي انتهاءه من اللغة العربية ؛ ولذلك فالإجمال أصل
 في أصول الفقه ، والمشارك بحث لغوي ليس في منزلة الجمل من علم الأصول .

تقسيم الحنفية دلالة اللفظ من حيث الوضوح والخفاء :

يقسم الحنفية اللفظ إلى قسمين : واضح الدلالة ، وخفي الدلالة .

وقسموا واضح الدلالة إلى أربعة أقسام من الأدنى ظهورا إلى الأعلى فقالوا : الظاهر ، والنص ،
 والمفسر ، المحكم .

وقسموا خفي الدلالة إلى أربعة أقسام من الأدنى خفاء إلى الأعلى فقالوا : الخفي ، والمشكل ،
 والمجمل ، والمتشابه . وإليك التعريف بما مع التمثيل :

أقسام واضح الدلالة : الظاهر : ما ظهر المراد به للسامع بصيغته ، مثاله قوله تعالى : ﴿وَاحْلُ اللَّهُ
 أَبْيَعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] فالآية ظاهرة في إباحة البيع الخالي من الربا وتحريم الربا . وعندهم أن
 الظاهر يقبل التأويل والتخصيص والنسخ .

١ - النص : وهو ما زاد وضوحا على الظاهر بمعنى لا في نفس الصيغة ، مثاله قوله تعالى : ﴿فَأَنْكِحُوا مَا

كَبَّابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُلْتُمْ وَرَبَّعٌ﴾ [النساء: ٣] فالآية نص في جواز نكاح الأربع فما دون .
 وفرق بعض الحنفية بين النص والظاهر : بأن النص هو الدال على معنى سيق الكلام للدلالة عليه ،

(١) رواه البخاري برقم ٥٣١٧ ، ومسلم برقم ١٤٣٣ ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

- والظاهر هو ما دل على معنى لم يستق الكلام للدلالة عليه ، واعترض عليه .
- ٢ -المفسر : وهو ما ازداد وضوحا على النص .معنى في النص أو بغيره ، أي : سواء كان وضوحه لأجل قرينة في النص أو لدليل خارجي أخرجه من الإجمال إلى الوضوح أو من التأويل إلى عدم احتمالها . مثاله قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠، وص: ٧٣] فهذا مفسر لكونه أكد فيه العموم على وجه يمنع احتمال التأويل والتخصيص .
- والمفسر عند الحنفية لا يقبل التأويل ولا التخصيص ، ولكنه يحتمل النسخ في عهد الرسالة .
- ٣ -المحكم : وهو ما ازداد قوة وأحكم المراد به عن احتمال النسخ والتبديل .مثاله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ونحوها من الآيات التي تقرر حكما كلياً أساساً في الإسلام ، ولا يمكن أن يتطرق إليه التأويل أو التخصيص أو النسخ .
- أقسام خفي الدلالة أربعة : الخفي : وهو ما اشتبه معناه وخفي المراد منه بعارض في الصيغة يمنع نيل المراد بها إلا بالطلب . والمعنى أن الخفي لم يظهر المراد منه ، والسبب في خفائه راجع إلى عارض عرض للصيغة ، فجعلها ليست ظاهرة الدلالة عليه . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] في دلالاته على النباش الذي ينش القبور فيأخذ أكفان الموتى ، فإن دلالة الآية على قطع النباش دلالة خفية ، والسبب في خفائها أن النباش اختص بالسم يخصه ، فقد يكون إطلاق هذا الاسم عليه لا يخل بمعنى السرقة الذي علق عليه القطع ، وإنما هو لبيان سبب السرقة ، وقد يكون اختصاصه بهذا الاسم؛ لبيان اختلاف حاله عنه حال السارق ، كما نقل عن أبي حنيفة: أن السارق يأخذ المال خفية وهو يسارق عين مالكة أو حارسه ، أما النباش فلا يسارق عين صاحب الكفن ؛ أنه ميت . وأيضاً فالسارق أخذ ما لا يستفيد منه صاحبه لو لم يسرق ، وأما النباش فإنه أخذ ما لا آيلاً للتلذذ ، ولهذا ذهب أكثر الحنفية إلى عدم قطع النباش ، ولم يأخذوا بالدلالة الخفية الموجودة في الآية .
- والواجب على المجتهد زيادة الطلب حتى يتبين له المراد من اللفظ .
- ٢- المشكل : وهو ما اشتبه المراد منه بدخوله في أشكاله على وجه لا يعرف المراد إلا بدليل يتميز به من بين سائر الأشكال ، وهو عندهم ضد النص ، وهو قريب من الجمل ، ويختلف عنه بأنه يعرف المراد منه بزيادة التأمل . مثاله قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فيحتمل

أنه يدل على إتيان المرأة في دبرها ، ودلالته على المنع من ذلك دلالة خفية تتبين بالنظر إلى فائدة الحرث وهو الإنتاج ، ومعلوم أن الوطء في الدبر لا ينتج الولد فيكون غير داخل في مقصود الشارع بالآية ، وحكمه اعتقاد أنه حق والتأمل فيه إلى تبين المراد .

٣-المحمل : وهو اللفظ الذي لا يعرف المراد منه إلا باستفسار المحمل وبيان من جهته يعرف به المراد . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الزَّيْوَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن الربا في اللغة الزيادة، وليس ذلك المعنى مرادا ؛ لأن البيع ما شرع إلا للاسترباح وطلب الزيادة ، ولذا فإن لفظ الربا كان مجملا حتى جاء بيانه من قبل الشارع نفسه ، ولا يمكن أن يعرف المراد منه في الآية إلا ببيان من جهة الشارع . وهذا هو الفرق بين المحمل والمشكل ؛ فإن المشكل قد يعرف المراد منه بالتأمل والنظر في القرائن المصاحبة ونحو ذلك ، وأما المحمل فيخلاف ذلك فلا يمكن معرفة المراد منه إلا ببيان من المتكلم نفسه . وحكمه اعتقاد أنه حق ، والتوقف فيه إلى الوقوف على البيان من قبل الشارع .

٤-المتشابه : وهو ما انقطع رجاء المعرفة به لمن اشتبه فيه . مثاله : الحروف المقطعة في أوائل السور، وكيفيات صفات الله تعالى ، فإنها من المتشابه مع أن أصل الصفات معلومة وإنما التشابه في كيفياتها .

وحكمه : اعتقاد أنه حق ، والإيمان به على مراد الله سبحانه ومراد رسوله - ﷺ - .
وتبين مما تقدم أن الأقسام الثلاثة الأولى يدخلها الجمهور في المحمل عندهم ، ولكن بينها تفاوت في درجة الإجمال ، فبعضها يزول بالتأمل اليسير وبعضها يحتاج إلى مزيد من التأمل ، وبعضها لا لابد فيه من البحث في أدلة الشرع الأخرى ؛ لمعرفة المراد .
وأما القسم الرابع المتشابه : فهو الذي انقطع الأمل في بيانه ويطلق عليه الجمهور الاسم نفسه^(١) .

(١) انظر أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي ص ٢١٤ - ٤٠٥ .

الباب الأول

دلالة السياق القرآني ،
وطريقة تناول ابن جرير لها :

وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : دلالة السياق القرآني .

الفصل الثاني : طريقة تناول ابن جرير لدلالة السياق القرآني .

الفصل الأول

دلالة السياق القرآني ، وتحتة أربعة مباحث :

- المبحث الأول : تعريف السياق القرآني ، وأنواعه ، مع التمثيل .
- المبحث الثاني : أهمية دلالة السياق القرآني في التفسير .
- المبحث الثالث : أسباب الاعتماد على دلالة السياق القرآني .
- المبحث الرابع : دلالة السياق القرآني ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن .

المبحث الأول : تعريف السياق القرآني ، وأنواعه ، مع التمثيل :

وينقسم إلى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف السياق لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني : أنواع السياق القرآني .

المطلب الثالث : الأمثلة على السياق القرآني .

- المطلب الأول : تعريف السياق لغة واصطلاحاً : (١).

أ - تعريف السياق في معاجم اللغة :

قال ابن دريد -رحمه الله- : " والسُّوقُ معروفةٌ... وأصل اشتقاقها من سَوَّقِ الناسِ إليها

بضائعهم . " (٢)

وقال ابن فارس -رحمه الله- (٣) : " السَّيْنُ والواو والقاف أصلٌ واحدٌ ، وهو حَدْوُ الشيءِ .

يقال : سَاقَهُ يَسْوَقُهُ سَوْقًا ، والسَّيِّقَةُ ما اسْتَيْقَ من الدَّوَابِّ ، ويقال : سَقَّتْ إلى امرأتِي صَدَاقَهَا وأسَقَّتَهُ ،

(١) قبل تعريف السياق أذكر معنى الدلالة في اللغة والاصطلاح :

ففي اللغة : قال الجوهري : "دلل : الدليل: ما يُسْتَدَلُّ به، والدليل: الدالُّ. وقد دَلَّه على الطريق يَدُلُّهُ دَلَالَةً ودِلَالَةً ودُلُولَةً، والفتح أعلى "كتاب الصحاح ، مادة دلل . فهو المرشد والكاشف ، من دلت على الشيء ودلت إليه". الموسوعة الفقهية الكويتية مادة دليل ٢٢/٢١ .

وفي الاصطلاح : ما يتوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري ولو ظناً ، وقد يخصه بعضهم بالقطعي .الموسوعة الفقهية الكويتية ، مادة دليل ٢٢/٢١ ، وانظر مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي ص ٦٢ .

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد (٤٣/٣-٤٤) ، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ - مكتبة المثنى ببغداد .

(٣) هو أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المالكي ، المعروف بالرازي ، مفسر لغوي محدث ، من أهل السنة ، على مذهب أهل الحديث ، مؤلفاته قيمة منها : معجم مقاييس اللغة ، والمجمل في اللغة ، وجامع التأويل في تفسير القرآن مفقود، توفي بالري سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك . انظر إنباه الرواة (٩٢/١) ، ومعجم الأدباء (٨٠/٤) ، ووفيات الأعيان (٣٥/١) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٣/١٧) وبغية الوعاة (٣٥٢/١) .

والسُّوقُ مشتقةٌ من هذا لما يُسَاقُ إليها من كلِّ شيءٍ ، والجمع أسواق ، والسَّاقُ للإنسان وغيره ، والجمع سواقٍ إنما سُمِّيَتْ بذلك ؛ لأنَّ الماشي يَنسَاقُ عليها .^(١)

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله -^(٢): " سَوَّقُ الإِبِلِ جَلْبَهَا وَطَرْدُهَا ، يُقَالُ : سَوَّقْتُهُ فَأَسَاقَ... والسُّوقُ : الموضع الذي يُجَلَبُ إليه المتاعُ للبيع ، والسَّوِيْقُ سُمِّيَ بذلك ؛ لأنَّ سِيَاقَهُ فِي الحَلْقِ من غير مَضْغٍ . " ^(٣)

وقال ابن منظور رحمه الله -^(٤): " وقد انْسَاقَتِ الإِبِلُ تَسَاقُوتًا إِذَا تَتَابَعَتْ ، وكذلك تَقَاوَدَتْ فِيهَا مُتَقَاوِدَةً وَمُتَسَاوِقَةً... والمُسَاوِقَةُ المتابعة ، كأنَّ بعضَهَا يَسُوقُ بعضًا... والسِّيَاقُ المهر ، قيل للمهر سَوَّقٌ ؛ لأنَّ العرب كانوا إِذَا تزوجوا سَاقُوا الإِبِلَ والغنمَ مَهْرًا... والسِّيَاقُ نَزْعُ الروح... وهو فِي السُّوقِ ، أَي النَّزْعِ ، كأنَّ رُوحَهُ تُسَاقُ ؛ لِتَخْرُجَ من بدنه . " ^(٥)

وقال الفيروز آبادي رحمه الله -^(٦): " تقول العرب : ولدتُ ثلاثةً بنين على سَاقٍ ، أَي : متتابعة لا جارية بينهم... وسَاقُ الماشية سَوَاقٌ وَسِيَّاقَةٌ وَمَسَاقًا ، واستَاقَهَا فهو سَاقٌ وَسَوَاقٌ وسَاقٌ إِلَى

-
- (١) معجم مقاييس اللغة (١١٧/٣) ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة دار الجليل .
- (٢) هو أبو القاسم ، الحسين بن محمد بن الفضل ، وقيل الفضل بن محمد ، وقيل غير ذلك ، أهم مؤلفاته : مفردات ألفاظ القرآن ، وجامع التفسير ، طبعت منه المقدمة وسورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة ، ليس معتزلياً كما قد يتوهم ، توفي حدود سنة خمس وعشرين وأربعمائة . انظر بغية الوعاة (٢٩٧/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٣٢٩/٢) ، ومقدمة محقق مفردات ألفاظ القرآن صفوان داوودي ، صفحة (١-٢٧) .
- (٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٤٣٦) .
- (٤) هو أبو الفضل ، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري الأفيقي ، ولد سنة ثلاثين وستمائة ، القاضي بطرابلس ، له لسان العرب وغيره ، قال الذهبي فيه : عنده تشييع بلا رفض ، توفي سنة إحدى عشر وسبعمائة ، وله اثنتان وثمانون سنة . انظر الدرر الكامنة (٣١/٥) ، وشذرات الذهب (٢٦/٦) .
- (٥) لسان العرب (١٦٦/٤٠-١٦٧) طبعة دار صادر .
- (٦) هو أبو طاهر ، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي ، ولد بفارس ، سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، لغوي أديب ، له القاموس المحيط ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، وتوفي باليمن ، سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وثمانمائة . انظر بغية الوعاة (٢٧٣/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٧٤/٢) .

المرأة مهرها : أرسله كأساقه ، والسيّاق ككتاب : المهر ، والسُّوقَةُ بالضم الرِّعِيَّةُ سُمُوَ بذلك ؛ لأن الملوك يَسُوقُونَهُمْ فَيَنْسَاقُونَ لهم ، والمنسَاقُ : التَّابِعُ والقريب ، وتَسَاوَقَتِ الإِبِلُ : تَتَابَعَتْ وَتَقَاوَدَتْ ^(١) .
وقال الزبيدي - رحمه الله - ^(٢) : " وأصل السيّاقِ سِوَاقٌ ، قُلِبَتِ الوَاوُ يَاءً لكسرةِ السَّيْنِ... ومن الحجاز : هو يَسُوقُ الحديثَ أحسنَ سِيقًا ، وإليك يُسَاقُ الحديثُ ، وكلام مَسَاقُهُ إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سَوَاقِهِ : على سَرْدِهِ " ^(٣)

ب - تعريف السياق اصطلاحاً عند أهل اللغة ، وهم في ذلك على قسمين :

الفئة الأولى : أهل اللغة البيانين ^(٤) : حيث عرفوه بما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى ، وقد يكون التوضيح بما ترد فيه اللفظة من الاستعمال ، وقد يكون ما يصاحب اللفظ من غير الكلام مفسراً للكلام ^(٥) .

وهذا يدل على أن السياق عند هؤلاء على نوعين :

- النوع الأول : **السياق اللغوي** : وهو سابق الكلام ولاحقه . فالكلام حين يُرَاعَى سياقه ؛ يُتوصل

(١) انظر ترتيب القاموس المحيط (٦٤٩/٢-٦٥٠) للفيروز آبادي ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي . ونحو هذا في لسان العرب

(٢) (١٧٠-١٦٩/٤٠) ، وتاج العروس (٣٨٩-٣٨٦/٦) للزبيدي ، والمحكم والمحيط (٣٢٥/٦) لابن سيده .

(٣) هو أبو الفيض ، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق ، الملقب بمرتضى ، الحسيني الواسطي الزبيدي - بلد أو قبيلة باليمن ، الحنفي ، ولد سنة خمس وأربعين ومائة وألف ، علامة في الحديث واللغة والأدب والأنساب ، نزل مصر ، له تاج العروس ، وإتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ، وتوفي بالطاعون ، سنة خمس ومائتين وألف . انظر كتاباً بعنوان: الزبيدي وكتابه تاج العروس ، للدكتور هاشم طه شلاش ، والأعلام (٢٩٧/٧) .

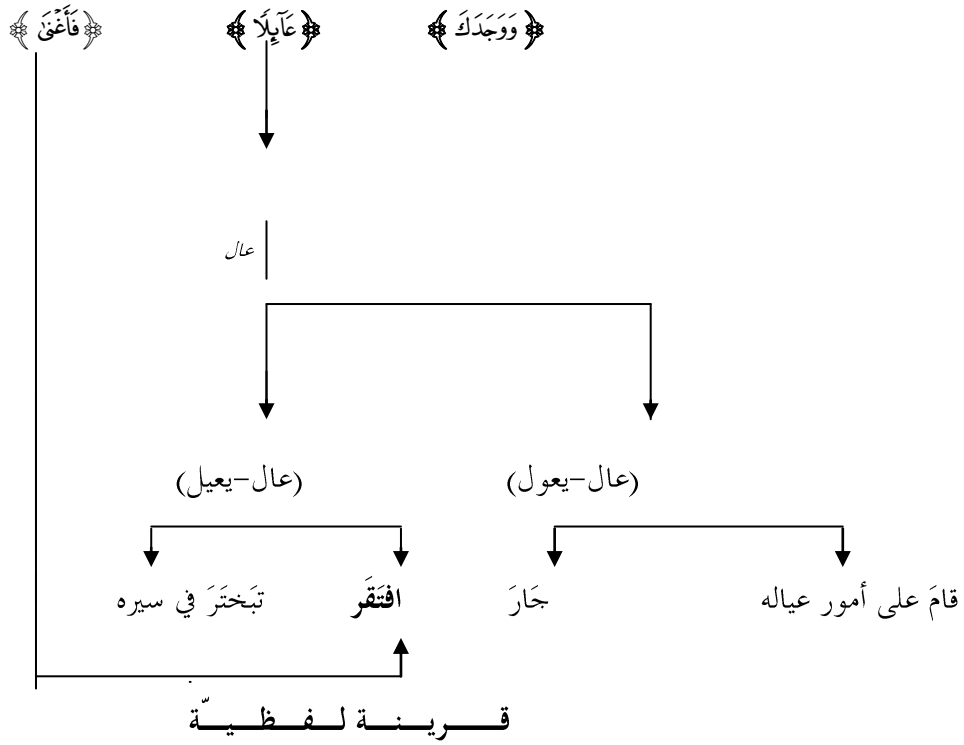
(٤) تاج العروس (٣٨٩ و ٣٨٧/٦) .

(٥) علم البيان : هو الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، والمقصود بالطرق تراكيب الكلام ، والوضوح في المعنى بحسب وضوح القرينة المنصوبة وخفائها ، وموضوع علم البيان اللفظ البليغ من حيث إنه يستفاد منه المعنى الزائد على أصل المعنى . انظر موسوعة كشاف اصطلاح الفنون والعلوم ، للتهانوي (٢٦/١-٢٧) ، وكتاب التبيين في علم المعاني والبديع والبيان صفحة (١٧٩) للدكتور هادي الهلالي .

(٥) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث صفحة (١١٦) ، لمحمد أحمد أبو الفرج .

إلى تعيين المقصود وتحديد المراد ، ويُعبّر عنه أحياناً بقولهم : وهو ها هنا...^(١) أو قولهم : المعنى هنا في هذا الموضوع... وتحديد دلالة اللفظ ، يجيء وفقاً لمعطيات السياق اللغوي ، المتمثلة في القرينة اللفظية.^(٢) ويمثّل على ذلك بقوله -تعالى-: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨] فالعائل في اللغة يحتمل أن يكون واوي العين ، أو يائيها ، وكل أصل له معنيان : فاليائي : عال - يعيل : يحمل على الافتقار ، أو على التبخر في المشي . والواوي : عال - يعول : يحمل على الجور والميل ، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ آلًا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] أو يحمل على قيام الرجل على أمور عياله .

فاسم الفاعل : "عائل" يطلق على أحد المعاني السابقة ، ولكن ورود القرينة اللفظية : ﴿فَأَغْنَى﴾ إلى جواره ؛ جعل دلالته على الفقير هي الدلالة المقصودة . كما في الرسم التوضيحي :



(١) انظر في علم الدلالة صفحة (٦٣) ، للدكتور عبد الكريم محمد حسن جيل ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧ م .

(٢) في علم الدلالة صفحة (٧٠) .

- النوع الثاني : السياق الاجتماعي ، أو المقام ، أو سياق الحال : وهو مجموع العناصر

الاجتماعية ، والثقافية ، المتصلة بالنص الكلامي ، والتي تؤثر في فهمه ، وذلك يكون في أمرين :

١- ذكر مناسبة النص ، كسبب للكلام ، وهو في التفسير سبب النزول .

٢- ذكر عادات وتقاليد تضمّنها النص ، واعتبارها في توجيه الدلالات .^(١)

ولا تزال الاحتمالات الدلالية ، تتوارد على ذهن القارئ ، وما زال بعضها يعالج بعضاً ، حتى

يحدث (الانفراج الدلالي) بذكر مقام النص ، فتتضح الرؤية ، ويتبدد الغموض ، وتحدّد الدلالات^(٢) .

فإذا كانت الكلمة لها معان متعددة ، فهي معان محتملة ، ويتحدد المعنى ضمن السياق المعين ،

فالكلمة لها : معنى أساسي ، ومعنى سياقي ، يحدد معنى الجمل ، وتصبح الكلمة في كل سياق لها معنى

مفهوم .^(٣)

الفئة الثانية من أهل اللغة : من قسمت السياق اللغوي إلى قسمين :

الأول : السياق النحوي : أو البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة ، فالكلمات لا تؤثر في

الجملة على نحو عشوائي ، بل تخضع لقواعد التركيب النحوي في اللغة ، والتغيير في البنية النحوية يغيّر

المعنى ، ولو لم تتغير الكلمات ، فالذي يفرّق بين الجملتين :

عارضَ عليٌّ خالدًا ، وعارضَ خالدٌ عليًّا ، هو السياق النحوي .

الثاني : السياق المعجمي : وهو العلاقة بين المفردات في الجملة ، بوصف المفردات وحدات

معجمية دلالية ، تأمل :

جملة : أسعفَ الطبيبُ الحجرَ .

وجملة : لمَ عادَ بكاءً يُسَعِفُ .

فالجملة الأولى : أسعفَ الطبيبُ الحجرَ ، تصحّ بالنسبة للسياق النحوي ، ولكن ورائها المدقق

(١) انظر "في علم الدلالة" صفحة (٧٤-٧٥) .

(٢) في علم الدلالة صفحة (٨١) بتصرف .

(٣) انظر علم الدلالة صفحة (٥٦) لبيرجيو ، ترجمه عن الفرنسية : الدكتور منذر عياشي .

الآخر : وهو السياق المعجمي ، فهي شاذة في بنية الدلالة المعجمية ، أي : شاذة من الناحية الدلالية ، فبين كلمة الحجر ، وما يسبقها شذوذ ؛ إذ نتوقع في العادة أن يكون الإسعاف للإنسان أو لكائن حي على الأقل .

أما الجملة الثانية : لَمْ عَادَ بُكَاءُ يُسْعِفِ ، فهي شاذة ؛ بسبب اختلال العلاقات النحوية التركيبية بين الكلمات .^(١)

وعُرِّفَ السياق في المعجم الأدبي بأنه : من الكلام أسلوبه الذي يجري عليه .^(٢)
هذه لمحة عن السياق عند اللغويين : من أهل المعاجم ، والمهتمين بدلالات الألفاظ ، وشرّاح النصوص اللغوية .

- أما تعريف السياق عند علماء الشريعة : من الأصوليين ، والمفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء : فلم أجد لديهم تعريفاً محدداً ، إلا أنهم يسمّونه بهذا الاسم ، ويمكن تعريفه من خلال بعض تعبيراتهم ومنها :

- تبويب الشافعي - رحمه الله - باباً في كتابه الرسالة فقال : " باب الصنف الذي يبين سياقه
معناه : قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فابتدأ - جل ثناؤه - ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ الآية ، دلّ على أنه إنما أراد أهل القرية؛ لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره ، وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون ، وقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [١١ - ١٢] وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها ، فدكر قصم القرية ، فلما ذكر أنّها ظالمة ؛ بأنّ للسامع أن الظالم إنما هم أهلها دون منازلها التي لا تظلم ، ولما ذكر القوم المنشئين بعدها ، وذكر

(١) انظر التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ، صفحة (٧٥-٧٧) بتصرف ، لعودة خليل .

(٢) المعجم الأدبي صفحة (١٤٣) ، تأليف : جبور عبد النور ، الطبعة الأولى لدار العلم للملايين ١٩٧٩ م .

إحساسهم بالبأس عند القصم أحاط العلم أنه إنما أحسّ بالبأس من يعرف البأس من الآدميين.

[وقال]: الصنف الذي يدل لفظه على باطنه دون ظاهره : قال الله - تبارك وتعالى - وهو

يحكي قول إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ^(١) إِلَّا يَمًا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١) وَمَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٨٢) [يوسف: ٨١ - ٨٢] فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها ، لا تختلف عند أهل العلم باللسان : أهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير ؛ لأن القرية والعير لا يبتنان عن صدقهم . " (٢)

وقال أيضاً: فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها اتساع لسانها ، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً ، يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا عن آخره ، وعماماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ، وعماماً ظاهراً يراد به الخاص ، وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود علمه ، في أول الكلام أو وسطه أو آخره . " (٣)

- وقال ابن قتيبة - رحمه الله - (٤): في تفسير غريب القرآن : " وكتابتنا هذا مستنبط من

(١) قوله : { مَا شَهِدْنَا } نصّ الآية بالواو : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ ، ولكن بعض العلماء قد يكتفي بذكر موضع الشاهد من الآية فلا يذكر حرف العطف كالواو والفاء عند الاستدلال ، ومن هؤلاء : الإمام الشافعي في الرسالة ، كما تبّه على ذلك الشيخ أحمد محمد شاكر في الرسالة فقرة (٦٤٣ و٦٧٤ و٩٧٥) ، ومقاتل بن سليمان في كتابه الأشباه والنظائر في أكثر من اثني عشر موضعاً ، والجاحظ في الحيوان ، بل وقع مثل ذلك في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً ثم تلا آية (١٨٠) من آل عمران : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ ﴾ بترك الواو . صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة ، صفحة (٢٧٨) حديث (١٤٠٣) . وانظر تحقيق النصوص ونشرها صفحة (٥١-٥٢) لعبد السلام هارون ، وتحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل صفحة (١٨٢) ، للدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيان .

(٢) الرسالة صفحة (٦٢-٦٤) ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - رحمه الله - .

(٣) الرسالة صفحة (٥١-٥٢) .

(٤) هو أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري القاضي الكاتب ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين ، العلامة ذو الفنون ، عالم بالعربية والأخبار ، من مؤلفاته : تأويل مشكل القرآن ، وإعراب القرآن ، وتفسير غريب القرآن ، والمعارف ، توفي سنة ست وسبعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (١٧٠/١٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢٩٦/١٣) ، وشذرات الذهب (١٦٩/٢) .

كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأفاويل في اللغة وأشبهها بقصة الآية .^(١) وعلى ما سبق فيمكن تعريف السياق عموماً بأنه : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده . ويمكن تعريف دلالة السياق بأنها : فهم النص بمراعاة ما قبله ، وما بعده . ويمكن تعريف دلالة السياق في التفسير : بأنها بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرجها عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له . كما سيأتي تفصيله في القواعد - إن شاء الله - .

فُيُفهم كلام الله - عز وجل - من السياق ، بمراعاة أمرين :

- ١- النظر إلى ما قبل النص المفسر : سواء كان أكثر من آية ، أو أقل من جملة .
 - ٢- وكذلك بالنظر إلى ما بعد النص المفسر: سواء كان أكثر من آية، أو أقل من جملة .
- وهكذا حين نراعي : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده ، في التوصل إلى المعنى المراد منه ، نكون قد طبّقنا دلالة السياق .

العلاقة بين المعنى اللغوي للسياق ، وبين الاستعمال الاصطلاحي : بعد التعريف للسياق في اللغة ، والاصطلاح ، يتضح ترابط مصطلح السياق ، مع الأصل اللغوي لكلمة "سياق" ، التي تعني :

- **التتابع في قولهم :** تساوقت الإبل ، إذا تتابعت .

- **وتعني الاتصال وعدم الانفصال ،** في قولهم : ولدت ثلاثة بنين على ساق ، أي : لا جارية بينهم .

وقد بين الزبيدي : أن سوق الحديث مجاز^(٢) ، فكأن المجاز في المعنوي : كسوق الكلام ، والحديث ، والقصة ، والحقيقة في الحسي ، كسوق الإبل ، وسوق المهر ، وسوق البضاعة .

وكأن السياق عند علماء الشريعة : الأصوليين والمفسرين والمحدثين والفقهاء ، يختص بالنص دون ما وراءه ، فلا يعدّون من السياق أسباب النزول ، ومناسبة الحديث ، ومقام الكلام ، مع اهتمامهم بذلك كله . وبهذا يتضح الفرق بين اصطلاح اللغويين ، وعلماء الشريعة ، بأن المعنى الاصطلاحي اللغوي ، أوسع من المعنى الاصطلاحي في العلوم الشرعية . -والله أعلم- .

(١) تفسير غريب القرآن صفحة (٤) .

(٢) تاج العروس (٦/٣٨٩) .

- المطلب الثاني : أنواع السياق القرآني :

يظهر من تعريف السياق في التفسير - : بأنه بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرج عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له . - أن السِّبَاق نوعان : سباقٌ ، ولحاقٌ . ولا بد من التعرّف على حدّ كل نوعٍ ، في اللغة والاصطلاح .

- النوع الأول : السباق :

أ - تعريف السباق لغة :

قال ابن فارس : "السين والباء والقاف : أصل واحد صحيح ، يدل على التقديم." (١)

وقال الجوهري (٢) : " وسباق البازي : قيده من سَيْرٍ أو غيره . " (٣)

وقال الكفوي (٤) : " والسباق - بالموحدة - ما قبل الشيء . " (٥)

وفي المعجم الوسيط : " والسباق : الرباط ، والقيّد . " (٦)

فكلمة سباق في اللغة تعني : تقدم شيء على آخر ، وترابطهما معاً ، إما حسّاً ، كسباق

البازي ، الذي هو : الرباط والقيّد ، فهناك ربط وجمع بين شيئين ، أحدهما يسبق الآخر .

ب - تعريف السباق اصطلاحاً : لم أجد - حسب جهدي - تعريفاً اصطلاحياً للسباق ،

ولكن بالرجوع إلى المعنى اللغوي ، واستعمالات المفسرين ، وغيرهم من علماء الشريعة ، يمكن تعريفه

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٢٩١) .

(٢) هو أبو نصر ، إسماعيل بن حماد الفارابي - بلدة من بلاد الترك - اللغوي الأصولي ، قال ياقوت : من أذكى العالم ، من أشهر كتبه : الصحاح في اللغة ، توفي سنة أربع مائة تقريباً . انظر إنباه الرواة (١/١٩٤) ، والنجوم الزاهرة (٤/٢٠٧) ، ومعجم

الأدباء (٦/١٥١) ، ولسان الميزان (١/٤٠٠) ، وبغية الوعاة (١/٤٤٦) .

(٣) الصحاح للجوهري (٤/١٤٩٤) ، وانظر لسان العرب (٤٠/١٥٢) .

(٤) هو أبو البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي القاضي ، توفي وهو قاض بالقدس ، سنة خمس وتسعين وألف .

انظر الأعلام للزركلي (١/٣٨٣) .

(٥) الكليات صفحة (٥٠٨) وهو معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، قابله : عدنان درويش ، ومحمد المصري .

(٦) (١/٤١٥) إصدار مجمع اللغة ، الطبعة الثانية لدار المعارف بمصر .

بـ : الكلام الذي يبيّن معنى ما بعده .

- النوع الثاني : اللحاق :

أ - تعريف اللحاق لغة : قال ابن فارس : "اللام والحاء والقاف ، أصل يدل على إدراك شيء وبلوغه إلى غيره ، يقال : لَحِقَ فلان فلاناً فهو لاحقٌ ، وأُلْحِقَ بمعناه... وربما قالوا : لَحِقْتُهُ أَتْبَعْتُهُ ، وَأُلْحَقْتُهُ وصلت إليه..."^(١)

وقال الزبيدي : "وتلاحقت الأخبارُ : تتابعتُ ، وكذا أحوال القوم ، وهو مجاز."^(٢)

فتبيّن مما سبق أن معنى كلمة : لحاق في اللغة ، إدراك شيء لشيء ، وتجاوزه إلى ما بعده ، وبين المدرك والمدرك رابطة ولُحْمَةٌ .

ب - تعريف اللحاق اصطلاحاً : بالنظر إلى المعنى اللغوي لكلمة لحاق ، ولتطبيقات

المفسرين ، وغيرهم ، يمكن تعريف اللحاق بـ : الكلام الذي يبيّن معنى ما قبله .

وهذان النوعان : السباق واللحاق ، يطلق عليهما جميعاً : السياق ، قال الكفوي - رحمه

الله - بعد تعريف السباق - بالموحدة - : " والسياق - بالثناة - أعم ."^(٣)

أي : أن السياق أعم من السباق ؛ فيدخل اللحاق في مسمى السياق . فكل سباق سياق ،

وكل لحاق سياق . - والله أعلم - .

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٨) .

(٢) تاج العروس (٧/٦١) .

(٣) الكليات صفحة (٥٠٨) .

- المطلب الثالث : الأمثلة على السياق :

والأمثلة على قسمين :

القسم الأول : الأمثلة من منقول ابن جرير-رحمه الله-.

القسم الثاني : الأمثلة من منقول ابن جرير-رحمه الله- لا منقوله .

القسم الأول: الأمثلة من منقول ابن جرير-رحمه الله -:

لما كان جامع البيان عمدة التفسير بالمنقول- المأثور- ، كان ذكر المنقول عن السلف مهماً من هذا الباب ، والأمثلة ستكون على أقسام ثلاثة ، على السباق وعلى اللحاق وعلى اجتماعهما متنازعين:

أ - الأمثلة على السباق .

ب - الأمثلة على اللحاق .

ج - مثال على التنازع - في فهم - السياق بين سباق ولحاق .

أ - الأمثلة على السباق :

عن عكرمة^(١) : أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس -رحمه الله- : " أعمى البصر ، أعمى

القلب ، يزعم أن قوماً يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ ، وقد قال الله - جلَّ وعزَّ - : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا ﴾

[المائدة: ٣٧]^(٢) ، فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها !! ، هذه للكفار ."^(٣)

(١) هو أبو عبد الله ، عكرمة بن عبد الله بربري الأصل المدني ، مولى ابن عباس ، طلب العلم أربعين سنة ، وكان ابن عباس يربطه بالكبل في رحله حتى يتعلم القرآن والسنة ، ثقة ثبت عالم بالتفسير ، لا يثبت عنه بدعة ، توفي بالمدينة سنة خمس ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (١٢/٥) ، وتهديب التهذيب (١٣٤/٤) ، وطبقات المفسرين للداودي (٣٨٠/١) .

(٢) المائدة (٣٧) ونصها : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴾ .

(٣) جامع البيان (٤/٥٦٧-٥٦٨) وتحقيق شاکر (٢٩٤/١٠) .

والآية التي فوقها - أي قبلها - هي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَعَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦] .

وعن يسيع الحضرمي ^(١) قال : " كنت عند علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه- فقال رجل : يا أمير المؤمنين : رأيت قول الله : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] ؛ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ؟ قال له علي : ادنه ، ادنه ! ، ثم قال : ﴿فَاللَّهُ بِحُكْمِكُمْ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] يوم القيامة. " ^(٢)

فبين علي - ﷺ - أن محل إشكال السائل ؛ محدد في الآية باليوم الآخر، بدلالة السياق ، وهي قوله : ﴿فَاللَّهُ بِحُكْمِكُمْ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ^(٣) .

ب - أما الأمثلة على اللحاق فمنها :

عن قتادة ^(٤) في قوله : ﴿يُنَوِّسِي ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:

١١٦] " متى يكون ذلك ؟ قال : يوم القيامة ؛ ألا ترى أنه يقول : ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:

١١٩] ؟! " ^(٥) .

فجملة : ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾ لحقت الآية المستول عنها ؛ ففسرت وقت الحدث ، بأنه

(١) هو يسيع بن معدان الحضرمي ، وثقه النسائي ، وقال ابن المديني : معروف ، وذكره ابن حبان في الثقات . انظر كتاب

الثقات (٥٥٨/٥) لابن حبان ، وتمهيد التهذيب (٤٣٨/٤) .

(٢) جامع البيان (٣٣١/٤) وتحقيق شاكر (٣٢٧/٩) .

(٣) رجح ابن القيم العموم في الآية فهذا الوعد للمؤمنين متى اكتمل إيمانهم ، وإن تخلف شيء كما في وقعة أحد فبسببهم . انظر بدائع التفسير (٨٦/٢) .

(٤) هو أبو الخطاب ، قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي -والسدوسي نسبة إلى سدوس بن شيبان -، البصري الحافظ المفسر ، ولد سنة ستين ، تابعي ، تكلم في القدر ، له تفسير في مجلد ، رواه عنه شيبان التميمي ، توفي بالطاعون ، سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل ثمان عشرة . انظر الأنساب (٢٣٥/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٦٩/٥) ، ووفيات الأعيان (٨٥/٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٤٣/٢) .

(٥) جامع البيان (١٣٧/٥) وتحقيق شاكر (٢٣٥/١١) ، والآية من المائدة رقم (١١٩) .

يوم القيامة .

وقال أبو معشر^(١): " سمعت عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود^(٢)، يذكر محمد بن كعب^(٣) في قول الله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ﴾ [الحجر: ٢٤] فقال عون...: خير صفوف الرجال المقدم ، وشر صفوف الرجال المؤخر ، وخير صفوف النساء المؤخر ، وشر صفوف النساء المقدم . فقال محمد بن كعب : ليس هكذا ! ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ﴾ : الميت والمقتول ، والمستأخرين : من يلحق بهم من بعد ؛ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥] فقال عون بن عبد الله : وفقك الله وجزاك خيراً." (٤)

فاستدل محمد بن كعب بجملة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ﴾ اللاحقة ، على معنى المستقيم والمستأخر، وأنه المقتول والحى ؛ لقوله: ﴿بِحَشْرِهِمْ﴾ وهو البعث .

وقال ابن زيد - رحمه الله - (٥): في قوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] " الأثام الشر ، وقال: سيكفيك ما وراء ذلك : ﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩]" (٦)

(١) هو نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني ، قال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن أبي حاتم : صالح لسين الحديث محله الصدق ، توفي سنة سبعين . انظر التاريخ الكبير (١١٤/٨) ، والجرح والتعديل (٤٩٤/٨) ، وتحقيق شاكر (٢١٩/٢) .
(٢) هو أبو عبد الله ، عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المهدي الزاهد ، وثقه أحمد وابن معين ، رمي بالإرجاء ، قال العجلي : ثم تركه ، توفي بعد العشرين ومائة وقيل غير ذلك . انظر تهذيب الكمال (٤٥٣/٢٢) ، وتهذيب التهذيب (٣٣٨/٣) .
(٣) هو أبو حمزة ، محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني ، من حلفاء الأوس ، وكان أبوه من سبي بني قريظة ، قال الذهبي : كان من أئمة التفسير . كان له جلسات عظيمة في التفسير في مسجد الربذة فأصابتهم زلزلة فسقط عليهم المسجد فماتوا جميعاً - رحمه الله - سنة ثمان ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر حلية الأولياء (٢١٢/٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٣/٥) ، وتهذيب التهذيب (٣٣٨/٣) .

(٤) جامع البيان (٥٠٧/٧) .

(٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري مولاهم المدني ، جمع تفسيراً في مجلد ، وكتاباً في الناسخ والنسخ ، وضعفه في رواية الحديث ابن معين والنسائي وابن حجر ، وأما في التفسير فإمام ، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة . انظر ميزان الاعتدال (٥٦٤/٢) ، وتهذيب التهذيب (٥٧٠/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨) ، وطبقات المفسرين للدوادوي (٢٦٥/١) .

(٦) جامع البيان (٤١٧/٩) .

ففسّر الأثام بالآية اللاحقة ، وهو العذاب الواقع في الدار الآخرة .

وقال أيضاً - رحمه الله-: في قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قال : " هذه في الحياة الدنيا؛ ألا تراه يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قال : حين تنقطع الدنيا، ويعاين الآخرة ، قبل أن يذوق الموت . " (١)

فاستدلّ بقوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ، على أن الروح لم تخرج بعد ؛ إذن الموصوف لازال في الحياة الدنيا .

ج - مثال على التنازع - في فهم - السياق بين سباق ولحاق :

لقد تبينت أهمية السياق واللاحق في تفسير كتاب الله - عز وجل - ، ولكن قد يجتمعان فيفهم أحدهما متنازعان في المعنى ، فلا تدري هل تلحق الكلام بما قبله ، أم تتبعه بما بعده ؛ ولتوضيح هذه المسألة ، إليك هذه القصة :

أرسل مجاهد - رحمه الله - (٢) رجلاً يقال له : قاسم (٣) إلى عكرمة - رحمه الله - ، يسأله عن قول الله : ﴿ لَا بُدَّيْلَ لِمَخْلَقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] إنما هو الدين ، وقرأ : ﴿ لَا بُدَّيْلَ لِمَخْلَقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَدِثُ الْقَيْمِ ﴾ [الروم: ٣٠] .

وفي رواية قال أرسل القاسم بن أبي بزة : فسل عنها عكرمة ، قال فسألته ، فقال عكرمة : دين الله - تعالى - !!... ألم يسمع إلى قوله : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِمَخْلَقِ اللَّهِ ﴾ [الروم:

(١) جامع البيان (٩/٢٤٢) .

(٢) هو أبو الحجاج ، مجاهد بن جبر المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي مفسر ، من أهل مكة ، عرض القرآن على ابن مسعود ثلاث مرات ، يسأله في كل مرة عن كل آية ، له تفسير مطبوع ، بتحقيق الدكتور محمد عبد السلام نبيل ، تسويي وهو ساجد سنة اثنتين ومائة ، وقيل غير ذلك ، وقد تيف على الثمانين . انظر معرفة القراء الكبار (١/٦٦) ، وغاية النهاية (٤١/٢) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢/٣٠٥) .

(٣) هو القاسم بن نافع بن أبي بزة ، وأبو بزة اسمه يسار ، ثقة مكي ، هو وحده الذي سمع التفسير من مجاهد ، وكل من روى عن مجاهد فقد أخذ عن القاسم هذا . انظر الجرح والتعديل (٧/١٢٢) ، وتحقيق شاکر (١/٤٧٧) .

٣٠!؟^(١).

فمجاهد يفسرها بما لحق وأنه الدين ؛ ولذلك قرأ : ﴿لَا يُدْبِلُ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الذِّبْتُ الْقَيْمُ﴾ ، وعكرمة يردّ هذا بما سبق وأنه الفطرة ؛ ولذلك قرأ قوله : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ . وهذا يبين لك أهمية النظر إلى سباق ولحاق المفسر ، مع أن كلام الله - عز وجل - حتمال للوجوه ، ولكن ينبغي الدقة في اختيار الأقرب ، والأليق بالكلام المعجز ، والمناسب للسياق . - والله أعلم -^(٢).

القسم الثاني : الأمثلة على السياق ، من مقول ابن جرير ، وهو على ثلاثة أقسام :

أ - الأمثلة على السباق .

ب - الأمثلة على اللحاق .

ج - الأمثلة على اجتماع السباق واللحاق .

أ - الأمثلة على السباق :

قال ابن جرير - رحمه الله - : عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] "اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا

(١) جامع البيان (١٠/١٨٣-١٨٤) .

(٢) وقد قال ابن القيم في الآية : "ولا منافاة بين القولين ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيَبَّيِّنَنَّ أَذَانِكَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩] ، فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقهم ، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقهم أيضا ؛ ولهذا شبه النبي - ﷺ - أحدهما بالآخر ، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلق ، فلذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه ، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه !!". بدائع التفسير ٣/٣٩٤ . وذكر في موضع آخر الحديث الذي جمع الأمرين ، وهو قوله - ﷺ - : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟". بدائع التفسير ٣/٣٩١ . ومن أمثلة التنازع ما جاء في سورة ق ، وسيرد صفحة ١١٨-١١٩ .

الله ﷻ فقال بعضهم : عنى بذلك النصارى... وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ... وقال آخرون : بل عنى بذلك مشركي العرب... وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل : إن الله - تعالى - عنى بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النصارى دون غيرهم ؛ لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، وعن افتراءهم عليه ، وادّعاءهم له ولداً .^(١)

وهذا الافتراء والادعاء على الله - عز وجل - منهم ، قد سبق منهم في الآيات التي قبلها^(٢) .
- وعند تفسير قوله - تعالى - : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، ذكر قولين :

الأول : ليس البر الصلاة وحدها، ولكن البر الخصال التي أبينها لكم ، ويكون الخطاب حينئذٍ للمسلمين .

والثاني: أن المقصود اليهود والنصارى ، فاليهود تصلي إلى جهة المغرب ، والنصارى إلى جهة المشرق ، فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم أن البر غير العمل الذي يعملونه... ثم "قال أبو جعفر : وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية... أن يكون عنى بقوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾ اليهود والنصارى ؛ لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم ، والخبر عنهم ، وعمّا أعد لهم من أليم العذاب ، وهذا في سياق ما قبلها..."^(٣)

فالسّياق حدّد المخاطب فهم أهل الكتاب ؛ لأنهم وصفوا قبل هذه الآية بكتمان ما أنزل

(١) انظر جامع البيان (١/٥٦٠)، وتحقيق شاکر (٢/٥٥٠) .

(٢) انظر الآيات (١١٤-١١٧) من البقرة وهي : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَآيِنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ البقرة: [١١٤ - ١١٧] .

(٣) جامع البيان (٢/٩٩-١٠٠)، وتحقيق شاکر (٣/٣٣٨) .

الله^(١).

وفي قوله -تعالى-: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٥] بين أن مراد فرعون بقوله: ﴿يُخْرِجَكُمْ﴾ بني إسرائيل؛ لأن القبط استعبدوهم، ثم قال: " وإنما قلت معنى ذلك كذلك؛ لأن الله إنما أرسل موسى إلى فرعون، يأمره بإرسال بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦ - ١٧] " (٢).

وهاتان الآيتان الماضيتان، سبق ذكرهما أول السورة في القصة نفسها.

ب - الأمثلة على اللحاق :

-عند تفسير قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا أَتَمْنَنَ جِنَّتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] قال -رحمه الله-: " قيل في معنى قولهم: بينت لنا أي البقر عنيت، وقيل: إنه تكذيب لما قبل ذلك، من أمر موسى بذبح البقرة.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين عندنا بقوله: ﴿قَالُوا أَتَمْنَنَ جِنَّتَ بِالْحَقِّ﴾ الآن بينت لنا الحق في أمر البقرة، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها؛ لأن الله -جل ثناؤه- قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها بعد قيلهم هذا، مع غلظ مؤونة ذبحها عليهم، وثقل أمرها، فقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] " (٣).

فاستدلّ بذبحهم لها، على أن قولهم السابق: ﴿أَتَمْنَنَ جِنَّتَ بِالْحَقِّ﴾ معنى الحق أي: الواضح،

(١) انظر الآيات (١٧٤-١٧٦) من البقرة وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ مِمَّا قَلِيلًا أَوْلَيْتِكَ مَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ

بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَعْفُورَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَي

شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٨﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

(٢) انظر جامع البيان (٤٤١/٩).

(٣) انظر جامع البيان (٣٩٦/١)، وتحقيق شاكر (٢١٧/٢).

وليس معنى الحق : الذي هو مقابل الباطل ؛ لأن هذا يبطل إيمانهم ، فيعتبر تكذيباً لموسى ، ولا يحصل من المكذب طاعة فيها مؤونة وثقل كما وقع منهم .

وفي قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩٤] قال ابن جرير -رحمه الله-: " إن قال لنا قائل : وما وجه مسألة هؤلاء القوم بهم أن يؤتيهم ما وعدهم ، وقد علموا أن الله منجز وعده ، وغير جائز أن يكون منه إخلاف موعد ؟ قيل : اختلف في ذلك أهل البحث ، فقال بعضهم : ذلك قول خرج مخرج المسألة ، ومعناه الخير...وقال آخرون : بل ذلك قول من قائله على معنى المسألة والدعاء لله ، بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم ، من الكرامة على ألسن رسله... وقال آخرون : بل قالوا هذا القول على وجه المسألة والرغبة منهم إلى الله، أن يؤتيهم ما وعدهم ، من النصر على أعدائهم من أهل الكفر ، والظفر بهم ، وإعلاء كلمة الحق على الباطل ، فيعجل ذلك لهم... "

قال أبو جعفر : والذي هو أولى الأقوال بالصواب في ذلك عندي : أن هذه الصفة، صفة من هاجر من أصحاب رسول الله - ﷺ - من وطنه وداره ، مفارقاً لأهل الشرك بالله، إلى الله ورسوله ، وغيرهم من تُّباع رسول الله - ﷺ - الذين رغبوا إلى الله في تعجيل نصرتهم على أعداء الله وأعدائهم ، فقالوا : ربنا آتانا ما وعدتنا من نصرتك عليهم عاجلاً ، فإنك لا تخلف الميعاد ، ولكن لا صبر لنا على أناتك وحلمك عنهم ، فعجل لهم خزيهم ، ولنا الظفر عليهم، يدل على صحة ذلك آخر الآية الأخرى، وهو قوله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلِيزَنَ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَاَدْخُلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نَوَافًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۝١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥] " (١).

- وعند قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: ١١] قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : تأويل ذلك : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَيُّهَا النَّاسُ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ ، خَلْقاً

(١) وانظر جامع البيان (٣/٥٥٤-٥٥٥) ، وتحقيق شاکر (٤٨٣/٧) .

مخلوقاً ، ومثلاً مُمَثِّلاً في صورة آدم... وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولقد خلقناكم في أصلاب آبائكم، ثم صورناكم في بطون أمهاتكم... وقال آخرون : بل معنى ذلك : خَلَقْنَاكُمْ يعني : آدم ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ يعني : في ظهره... وقال آخرون : معنى ذلك: ولقد خلقناكم في بطون أمهاتكم، ثم صورناكم فيها...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : تأويله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ ولقد خلقنا آدم ، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بتصويرنا آدم ، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تضيفها إليه ، والمعنى في ذلك سلفه ، وكما قال -جل ثناؤه- لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله -ﷺ- : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وما أشبه ذلك من الخطاب الموجّه إلى الحيّ الموجود والمراد به السلف المعدم ، فكذلك ذلك في قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ معناه : ولقد خلقنا أباكم آدم ، ثم صورناه ، وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب ؛ لأن الذي يتلو ذلك قوله : ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ومعلوم أن الله - تبارك وتعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يصور ذريته في بطون أمهاتهم ، بل قبل أن يخلق أمهاتهم " (١).

فالتعبير بلفظ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ و ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ مراد به آدم ؛ للحاق أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، وذلك يقيناً قبل خلق أم البشر حواء ، فلا تدخل ذريته من باب أولى .

ج - الأمثلة على استدلاله بالسباق واللحاق معاً :

إذا كان السباق قد يدل على المعنى بمفرده ، واللحاق كذلك ، فكيف لو اجتمعا في موضع واحد ! ، كيف لو انضم نور إلى نور! ، وبرهان إلى برهان ! ، وحجة إلى أخرى ! ، لننظر تفسير الإمام ابن جرير للأمثلة من هذا النوع :

- ففي قوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤] قال -رحمه الله- : " فإن قال قائل : ومن الذي عني بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ

(١) جامع البيان (٥/٤٣٧) ، وتحقيق شاكر (٢/٣١٧) .

فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴿٦٥﴾ وأي المساجد هي ؟ قيل : إن أهل التأويل في ذلك مختلفون : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس... وقال آخرون : وهو بختنصر^(١) وجنده ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد : مسجد بيت المقدس... وقال آخرون : بل عني الله - عز وجل - بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام... قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال:... النصارى، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه ، بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده... وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام... وأخرى: أن الآية التي قبل قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى، وذم أفعالهم ، والتي بعدها نبهت بدم النصارى ، والخبر عن افتراءهم على ربهم ، ولم يجز لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله - عز وجل - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه ، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها خبرهما نظيراً وشكلاً ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت... " (٢)

- وفي قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأعام: ٦٥] قال - رحمه الله - : "اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية: فقال بعضهم: عني بها المسلمون من أمة محمد - ﷺ -، وفيهم نزلت... وقال آخرون: عني ببعضها أهل الشرك ، وبعضها أهل الإسلام..."

(١) هو أحد ملوك الأرض ، كان كاتباً عند ملك الجزيرة ، فقتل الابن أباه الملك ، فغضب بختنصر وقتل الابن وتسلم الملك ، ثم غزا بني إسرائيل وانتصر عليهم ، ثم رده الله عنهم ، ثم فسقوا فجاهم وانتصر عليهم ، وقتل منهم وصلب ، وباع ذراريهم ونساءهم ، ومثل بهم وأسروهم الكثير ، ثم لحق بأرض بابل . انظر المعارف صفحة (٣٢ و٤٦ و٥٦٢) .
(٢) جامع البيان (٥٤٧/١) ، وتحقيق شاكر (٥١٩/٢) .

قال أبو جعفر: والصواب من القول عندي أن يقال: إن الله - تعالى ذكروه - توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان، وإياهم خاطب بها؛ لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم، وذلك أما تتلو قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُجْحِكُمْ مِنْ ظُلْمَتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَمْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلْ اللَّهُ يُجْحِكُمْ مِمَّا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] ويتلوها قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهٗوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]... وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كان بيننا أن ذلك وعيد لمن تقدم وصف الله إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب، لا لمن لم يجز له ذكره...^(١)

- وفي قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (٢٤) [الحجر: ٢٤] قال - رحمه الله - : "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معنى ذلك: ولقد علمنا من مضى من الأمم فتقدم هلاكهم، ومن قد خلق وهو حي، ومن لم يخلق بعد من سيخلق... وقال آخرون: عنى بالمستقدمين: الذين قد هلكوا، والمستأخرين: الأحياء الذين لم يهلكوا... وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين في أول الخلق والمستأخرين في آخرهم... وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمد - ﷺ -... وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير والمستأخرين عنه... وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة، والمستأخرين فيها بسبب النساء... وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين، الذين استأخر موتهم ممن هو حي، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد؛ لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) [الحجر: ٢٣] وما بعده، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ﴾ [الحجر: ٢٥] على أن ذلك كذلك؛ إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجز قبل ذلك من الكلام ما يدل على خلافه، ولا جاء بعد...^(٢)

(١) جامع البيان (٥/٢٢٣)، وتحقيق شاکر (١١/٤٢١).

(٢) جامع البيان (٧/٥٠٧).

هذه بعض الأمثلة على السياق بنوعيه : السياق ، والحقاق ، مفترقين ومجتمعين ، من ما نقله ابن جرير عن المفسرين السابقين ، من الصحابة والتابعين ، ومن قوله ، وسيأتي في البحث نماذج أخرى كثيرة ، - إن شاء الله - والله الموفق .

المبحث الثاني : أهمية دلالة السياق القرآني في التفسير:

بعد التعريف للسياق القرآني ، وذكر أنواعه ، والتمثيل عليها ، يحسن التعرف الآن إلى أي مدى تكون العناية بالسياق ؟ ، وما مقدار أهميته ؟ ، وما منزلته ؟ ، وهل الأولى مراعاته دائماً ؟ ، أم في بعض الأحيان ؟ .

للإجابة على أهمية السياق : نجد أن درجته رفيعة ، ومنزلته عالية ، ومقداره مهم جداً ؛ ومما يدل على ذلك : اعتناء العلماء عامة ، والمفسرين خاصة بالسياق .

وهذا الاهتمام من العلماء يتضح في مطالب :

المطلب الأول : الأمر بالاعتناء بالسياق مطلقاً ، وجعله طريقاً سليماً لتفسير كلام الله الكريم .

المطلب الثاني : الاستدلال بالسياق في التفسير ، والرجوع إليه عند الاختلاف .

المطلب الثالث : تأليف العلماء كثيراً في الوجوه والنظائر ، وفي غريب القرآن .

المطلب الرابع : اهتمام العلماء بالمناسبات .

المطلب الأول : الأمر بالاعتناء بالسياق مطلقاً ، وجعله طريقاً سليماً لتفسير كلام الله الكريم :

لقد كان السياق عند العلماء أساساً في فهم كل كلام ، لاسيما في النصوص الشرعية ، التي هي مرجع الشريعة الإسلامية ، وخاصة القرآن الكريم ، وإليك بعض هذه النصوص التي تأمر بالاهتمام به ، والتي تنص على أهميته عند التفسير على وجه الخصوص :

فهذا مسلم بن يسار -رحمه الله- ^(١) يقول : "إذا حدثت عن الله حديثاً فقف !، حتى تنظر ما قبله ، وما بعده " ^(٢).

وهذا يدل على الاهتمام به في كل تفسير ، قل أو كثير ، صغر أو كبير .
وكان عزّ الدين بن عبد السلام -رحمه الله- ^(٣) من أقدم من توسع في الحديث عن السياق ، وفصل فيه نظرياً ، ومن ذلك قوله :
"السياق مرشد إلى تبين الجملات ، وترجيح الاحتمالات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال .

فكلّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً ، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً ، فما كان مدحاً بالوضع ، فوقع في سياق الذم ؛ صار ذماً واستهزأً وتهكماً ، بعرف الاستعمال . مثاله :
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] أي : الدليل المهان ؛ لوقوع ذلك في سياق الذم ،

(١) هو أبو عبد الله ، مسلم بن يسار البصري الفقيه ، مولى ، تابعي ثقة ، روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، توفي سنة مائة وقيل إحدى ومائة . انظر تهذيب الكمال (٥٥١/٢٧) ، وسير أعلام النبلاء (٥١٠/٤) ، وتهذيب التهذيب (٧٣/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/١) .

(٣) هو أبو محمد ، عزّ الدين ، عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي ، ولد سنة ست أو سبع وخمسمائة ، الملقب بسليمان العلماء ، له القواعد الكبرى والصغرى ، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وغيرهما ، توفي سنة ستين وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٢٠٩/٨) ، وفوات الوفيات (٥٩٤/١) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٣٠٩/١) .

وكذلك قول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَمْتٌ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧] أي: السفهه الجاهل؛ لوقوعه في سياق الإنكار عليه، وكذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]؛ لوقوعه في سياق ذمهم بإضلال الأتباع.

وأما ما يصلح للأمرين^(١): فيدلّ على المراد به السياق، كقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] أراد به عظيماً في حسنه وشرفه؛ لوقوع ذلك في سياق المدح، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنُقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] أراد به عظيماً في قبحه؛ لوقوع ذلك في سياق الذم.

وكذلك صفات الرب المحتملة للمعاني المتعددة: تحمل في كل سياق على ما يليق به، كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِكِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠] تمدح بسهولة في قدرته، وكذلك قوله: ﴿ذَلِكَ حَسْرَتُنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤].

وأما قوله: ﴿فَسَوْفَ نُضَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٣٠] وقوله: ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠] فإن المراد في هاتين الآيتين: احتقار العذب وعنته،^(٢) وإنما جاز ذلك؛ لأن من هان عليك، سهل عليك عذابه وعنته، ومن عزّ عليك صعب عليك مصابه ومشقّته، وإنما حُمل على الاستهانة؛ لأنه لا يصلح من الرب التمذح بالقدرة على تعذيب امرأة أو رجل، إذ التمذح من الرب بأدنى الصفات قبيحٌ في عرف الاستعمال؛ ولذلك يقبح أن يقال: سيوييه^(٣) يعرف أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والشافعي: يعرف مسألة إزالة النجاسة، وجالينوس^(٤): يعرف أن الصفراء^(١) حادةٌ يابسة، وكذلك العزيز: في

(١) أي يطلق في اللغة: ويراد به المدح، وفي حين آخر: يراد منه الذم.

(٢) العنت: الهلاك والمشقة. انظر ترتيب القاموس المحيط، مادة عنت (٣/٣٢٠).

(٣) هو أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر أو قنبر، مولى بني الحارث، إمام النحو، الملقب بسيوييه أي: رائحة التفاح، أخذ عن الخليل بن أحمد، له الكتاب في النحو، جُمع بينه وبين نحويين فاستدلوه فخرج من بغداد لبعض مدن فارس، فمات وهو شاب عمره اثنتين وثلاثين سنة، وذلك سنة تسع وسبعين ومائة، وقيل ثمانين. انظر المعارف صفحة (٥٤٤)، وإنباه الرواة (٢/٣٤٦)، وبغية الوعاة (٢/٢٢٩).

(٤) جالينوس من حكماء اليونان، ولد حوالي سنة مائة وثلاثين ميلادية، عالم في الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية، له

أوصاف الرب - سبحانه - يطلق بمعنى الغالب القاهر ، ويطلق بمعنى الممتنع من العيب والضميم^(١) ، ويطلق بمعنى الذي لا نظير له ، ويحمل كل سياق على ما يليق به^(٢) .

وهذا الكلام القيمّ تميّز به عزّ الدين - رحمه الله - ؛ لتقدمه على غيره في تععيده وتمثيله للسياق فيما يظهر ، وهو تقسيم للسياق بحسب ما يناسب المتكلم به ، والمتكلم فيه ، والحال المتكلم فيها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : "فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه ، وما يحفّ به من القرائن اللفظية والحالية"^(٣) .

ثم قال : "فمن تدبّر ما ورد في باب أسماء الله - تعالى - وصفاته ، وأن دلالة ذلك في بعض المواضع على ذات الله أو بعض صفاته ، لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد ، حتى يكون ذلك طرداً للمثبت ، ونقضاً للنافي ، بل يُنظر في كل آية وحديث ، بخصوصه وسياقه ، وما يُبين معناه من القرائن والدلالات ، فهذا أصل عظيم مهمّ نافع ، في باب فهم الكتاب والسنة ، والاستدلال بما مطلقاً ، ونافع في معرفة الاستدلال ، والاعتراض ، والجواب ، وطرد الدليل ونقضه ، فهو نافع في كل علم خبريٍّ أو إنشائيٍّ ، وفي كل استدلال أو معارضة من الكتاب والسنة ، وفي سائر أدلة الخلق"^(٤) .

فانظر كيف كان السياق - عند ابن تيمية - هو الأصل العظيم في فهم الكتاب والسنة ، وفي كل العلوم أيّاً كانت ، بل وفي جميع حجج الخلق .

=
سنة عشر ديواناً في الطب وغيرها ، وتوفي سنة مائتين وقيل وثمانين عشرة . انظر طبقات الأطباء والحكماء صفحة (٤١) ، لأبي داود المعروف بجلجل .

(١) الصّفراء : من الصفر ، داء في البطن يصفر منه الوجه . انظر : لسان العرب ، مادة صفر (٤/٤٦٠) .

(٢) الضّيم : الظلم ، وضامه حقه : نقضه حقه . انظر : لسان العرب مادة ضمم (١٢/٣٥٩) .

(٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام صفحة (١٥٩-١٦٢) ، لعز الدين بن عبد السلام ، تحقيق : رضوان مختار بن غربية .

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٤) .

(٥) مجموع الفتاوى (٦/١٨-١٩) .

وقال أيضاً: " فمن تدبر القرآن ، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد ، من الانحراف والاعوجاج ، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد ، عن سائر ما يبين معناه ، فهذا منشأ الغلط من الغالطين " (١).

ويكفي في بيان أهميته أنه يوصل إلى الحق والسداد، وأن مُهملَه يقع في الغلط لا محالة.

وقال أيضاً: في ذكر أسباب الغلط في التفسير: " مراعاة مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يُريدَ به العربي ، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلّم به ، ولسياق الكلام " (٢).

وقال أيضاً: " فتأمل ما قبل الآية وما بعدها ، يُطلعك على حقيقة المعنى " (٣).

وقال الإمام ابن جزى الكلبي - رحمه الله - (٤): " من أوجه الترجيح : " أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ، ويدل عليه ما قبله ، وما بعده " (٥).

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله - (٦): " دلالة السياق : فإنها ترشد إلى تبين الجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره ، وغلط في مناظراته " (٧).

(١) مجموع الفتاوى (٩٤/١٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥٦/١٣) .

(٣) دقائق التفسير (٤١٣/٣) جمع الدكتور محمد السيد الجليند .

(٤) هو أبو القاسم ، محمد بن أحمد بن محمد بن جزى الكلبي الغرناطي ، فقيه أصولي مفسر لغوي ، صاحب تفسير التسهيل ، وأصول القراء الستة غير نافع ، وغيرهما ، قتل يوم الكائنة بطريف ، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٤٤٦/٣) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٨١/٢) .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٩/١) ، الطبعة الأولى للمكتبة التجارية ١٣٥٥هـ .

(٦) هو أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي العلامة المجتهد ، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة ، وتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، مؤلفاته كثيرة وقيمة ، منها: زاد المعاد في هدي خير العباد ، والتبيان في أقسام القرآن ، وإعلام الموقعين ، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة . انظر شذرات الذهب (١٦٨/٦) ، والدرر الكامنة (٢١/٤) ، وطبقات المفسرين (٩٠/٢) .

(٧) بدائع الفوائد (٩/٤-١٠) ، دار الكتاب العربي .

وقال في نونية :

" قالوا : وإيرادُ السِّيَاقِ يُبَيِّنُ المضمونَ منه بأوضح التَّيَّانِ " .^(١)

وقال الإمام الشاطبي - رحمه الله -^(٢) في الضابط المعول عليه في الفهم : " إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال ، والأوقات ، والنوازل ، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم ، الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية ، وما اقتضاه الحال فيها ، لا ينظر إلى أولها دون آخرها ، ولا آخرها دون أولها ، فإن القضية وإن اشتملت على جُمَلٍ فبعضها متعلق ببعض ؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شأن واحد ، فلا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوله ، وأوله إلى آخره ، وإذ ذلك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف... " .^(٣)

وقال الإمام الزركشي - رحمه الله -^(٤) : " دلالة السياق أنكرها بعضهم ، ومن جهل شيئاً أنكره^(٥) . وقال بعضهم : إنها متفق عليها في مجاري كلام الله - تعالى - .

وقد احتجّ بها أحمدٌ على الشافعيّ ، في أنّ الواهب ليس له الرجوع ، من حديث : " العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه " .^(٦) حيث قال الشافعي : هذا يدل على جواز الرجوع ؛ إذ قيء الكلب ليس

(١) الكافية الشافية وهي : القصيدة النونية مع شرحها ، للدكتور محمد خليل هراس (٢١٥/١) ، وهو يتحدث في الأبيات عن معنى اليوم في آية المعارج (٤) : { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } .

(٢) هو أبو إسحاق ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي ، أصولي حافظ ، له مؤلفات فائقة ، منها : الموافقات ، والاعتصام ، توفي سنة تسعين وسبعمائة . انظر درة الحجال (١٨٢/١) ، والأعلام (٧١/١) .

(٣) الموافقات (٢٦٦/٤) .

(٤) هو بدر الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن هادر بن عبد الله الزركشي ، تركي الأصل ، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فقيه أصولي محدث أديب فاضل ، من مؤلفاته البحر المحييط في أصول الفقه ، والبرهان في علوم القرآن ، وتفسير وصل فيه إلى سورة مريم ، توفي بالقاهرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (١٧/٤) ، وشذرات الذهب (٣٣٥/٦) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٥٧/٢) .

(٥) وهذا فيه رد عليهم بأن هذا القول بسبب جهلهم لا علمهم .

(٦) رواه البخاري : في كتاب الهبة ، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها ، صفحة (٥١٤) رقم (٢٥٨٩) ، ومسلم : في كتاب الهبات ، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض ، (١٢٤٠/٣) حديث (١٦٢٢) .

محرمًا عليه ، فقال أحمد : ألا تراه يقول فيه : "ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته..." الحديث . وهذا مثل سوء فلا يكون لنا .

واحتجَّ بها [أي : أحمد] في أن المراد بأنه استيعابهم [أصناف الزكاة الثمانية] واجب ، وسياق الآية يدل على الأول ، بقوله -تعالى-: ﴿ وَمَنْ يَمِرْكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨] { فإن الله -تعالى- لما رأى بعض من لا يستحق الصدقة ، يحاول أن يأخذ منها ، ويسخط إذا لم يعط ، يقطع ببيان أن المستحق لها غيره ، وهم الأصناف الثمانية... }^(١)

وقال أيضاً : " تنبيه : ليكن محطَّ نظر المفسِّر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له ، وإن خالف أصل الوضع اللغوي ؛ لثبوت التحوُّز ، ولهذا نرى صاحب الكشف يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتى كأن غيره مطروح " .^(٢)

وقال أيضاً : في تفسير ما لم يرد فيه نقل : " وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ ، من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتنصه من السياق . " ^(٣)

وقال أيضاً : " ومما يعين على معرفة المعنى عند الإشكال... : دلالة السياق : فإنها ترشد إلى تبين المحمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره، وغلط في مناظراته ، وانظر إلى قوله -تعالى-: ﴿ دُقُّ لِقَائِكَ أَنْتَ الْمَزِيذُ الْكَرِيمُ ﴾ [السدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه ؛ يدل على أنه الدليل الحقيقير " .^(٤)

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (٥٢/٦)، طبع وزارة الشؤون الإسلامية بالكويت، تحرير الدكتور عبد الستار أبو غدة .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤٢٧/١) .

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣١٣/٢) .

(٤) البرهان في علوم القرآن (٣٣٥/٢) . وهو نص كلام ابن القيم -رحمه الله- في بدائع الفوائد السابق (١٠-٩/٤) إلا أنه لم يذكر الآية .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله -^(١) : مقتبساً وشارحاً عن شيخه محمد عبده^(٢) : " وقد قالوا إن بعض القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ ، موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذي جاء الكتاب بجملته " ^(٣) .

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله -^(٤) : " وقد كثرت تفاسير الأئمة... فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مختصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية ، بقطع النظر عن المراد ، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه ، فينظر في سياق الكلام ، وما سبق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر... فالنظر لسياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه... " ^(١) .

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا بن منلا ، ولد سنة اثنين وثمانين ومائتين وألف ، ينتسب إلى علي - عليه السلام - أورد ذلك حبيب السامرائي في كتابه : " رشيد رضا المفسر " ، أصله من بغداد ، كان أحد رجال المدرسة الإصلاحية ، والتلميذ القريب من محمد عبده ، ومن كبار الصحفيين والكتاب ، في الحديث والتفسير والأدب والتاريخ ، له تفسير المنار في اثني عشر مجلداً ، وصل فيه إلى سورة يوسف (١٠٧) ، ومجلة المنار في أربعة وثلاثين مجلداً ، وفتاوى وغيرها ، توفي بجادث سيارة ، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف . انظر الأعلام (٣٦١/٦) ، ومنهج المدرسة العقلية في التفسير (١٧٠/١) للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي .

(٢) هو محمد عبده ، بن حسن خير الله ، التركماني ، ولد سنة ست ، وقيل خمس وستين ومائتين وألف ، وهو مفتي مصر ، ومن رجال المدرسة الإصلاحية ، تأثر بحمال الدين الأفغاني ، له أول تفسير المنار ، إلى سورة النساء (١٢٥) ، في خمسة أجزاء ، وتوفي ولم يكمله ، ثم أكمله محمد رشيد رضا ، ولمحمد عبده شرح نهج البلاغة ، وغيره ، وقد كانت له مواقف جهادية ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وله هنأت ، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف . انظر الأعلام (١٣١/٧) ، ومنهج المدرسة العقلية في التفسير (١٢٤/١) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٣٢/١) ، الطبعة الرابعة دار المنار ، ١٣٧٣هـ .

(٤) هو أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ، من قبيلة تميم ، ولد في عنيزة ، سنة سبع وثلاثمائة وألف ، فقيه أصولي مفسر ، من كتبه : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، والقول السديد في مقاصد التوحيد . توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمة الشيخ في أول تفسيره صفحة (٥) لأحد تلامذته .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩-١٠) الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - مؤسسة الرسالة ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن اللويحق .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم -رحمه الله-^(١) : " ويبحث عن كون الآية مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، وما وجه مناسبتها لما قبلها ، وكذا السور "^(٢) .
ويتضح مما سبق أن السياق لا بد منه في معرفة سبب ورود الآية أو الآيات ، وأنه مهم كذلك في فهم النص المرتبط بالسابق واللاحق ، وهو مجال مهم في التفسير ، بل إن المفسر لا يستغني عنه في أي حال ، ومهما كان اتجاهه ومنزعه ، فهو مما يعتمد عليه التفسير اعتماداً كبيراً .
وليس المقصود حصر أقوال العلماء الناصين على منزلته ، ووجوب العناية به ، ولكنه الإشارة بالقليل عن الكثير .

(١) هو جدي أب الأب ، فهو : أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي ، ولد ببلدة البير من المحمل شمال الرياض ، سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف ، جمع فتاوى شيخ الإسلام في خمسة وثلاثين مجلداً ، وشرح الروض المربع ، وله مقدمة في التفسير وحاشية عليها ، وغير ذلك ، تأثر في رأسه بحادث سيارة سنوات ، وتوفي -رحمه الله- سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته في أول كتاب حاشية الروض المربع (٣/١) للسدكتور الشيخ : عبد الله بن عبد الرحمن ابن جبرين -رحمه الله- .

(٢) حاشية مقدمة التفسير صفحة (١٤٧-١٤٨) ، لعبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ .

المطلب الثاني: الاستدلال بالسياق في التفسير والرجوع إليه عند الاختلاف:

ولهذا أمثلة كثيرة منها:

ما روي عن النبي - ﷺ - أنه قال لعائشة - رضي الله عنها - لما سألته عن قوله - تعالى -:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقالت: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون".^(١)

وهذا مثال من السنة واضح في استعمال اللاحق من الآيات، في معرفة المعنى للجملة المفسرة، ورجع فيه النبي - ﷺ - إلى السياق ليحلّ المشكل في الأذهان، قال المباركفوري - رحمه الله -:

أولئك الذين... كذا في هذه الرواية، وفي القرآن: ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١] "^(٢).

وهذا أوضح دليل من السنة على استعمال السياق فيما وصلت إليه.

وقد رجّح ابن كثير قراءة: ﴿ يُؤْتُونَ ﴾ السبعية، على قراءة: {يأتون} ^(٣) أي: الآثام بالسياق؛ لقوله بعدها: ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [١١] ومن فعل الآثام كان من المقتصدين أو من المقصرين. - والله أعلم - ^(٤).

وسأل رجل عليّ بن أبي طالب - ﷺ - فقال: يا أمير المؤمنين: رأيت قول الله - عزّ وجلّ - ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١] وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟! قال له علي: ادنه ادنه! ثم قال: ﴿ فَأَلَّهِ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [١٤١]

(١) سبق تخريجه صفحة (٦-٧).

(٢) وانظر تحفة الأحوذى (٢٠/٩)، مراجعة عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة الاعتماد.

(٣) قراءة شاذة. انظر مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه، صفحة (٩٨)، والمختضب (٩٥/٢) لابن جني.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٤١/٣).

[النساء: ١٤١] يوم القيامة . " (١)

فانظر دقة علي - ﷺ - في تتبعه للسياق ، واستيعابه فهم الآية على وجهها، فهذا الوعد في الآخرة ، بدليل قوله قبل: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

ولما قال نافع بن الأزرق لابن عباس - رضي الله عنهما -: " أعمى البصر ، أعمى القلب يزعم أن قوماً يخرجون من النار ، وقد قال الله - جلّ وعزّ - : ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيهَا﴾ [المائدة: ٣٧] . فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها !! ، هذه للكفار " (٢) .

والآية التي فوقها-أي قبلها -هي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [المائدة: ٣٦] .

وقال سعيد بن جبیر - رحمه الله - (٤) : في قوله - تعالى -: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] قال : عيسى ؛ أما تسمع الله يقول : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] " (٥) .

أما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقال : " عيسى ناداها : ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] " (٦) .

ولما سأل يعقوب بن عبد الرحمن الزهري (٧) زيد بن أسلم (٨) ، عن قول الله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ

(١) انظر جامع البيان (٤/٣٣١) ، وتحقيق شاكر (٩/٣٢٧) .

(٢) المائدة (٣٧) ونصّها : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيهَا﴾ [المائدة: ٣٧] .

(٣) انظر جامع البيان (٤/٥٦٧-٥٦٨) ، وتحقيق شاكر (٩/٣٢٧) .

(٤) هو أبو محمد ، أو أبو عبد الله ، سعيد بن جبیر بن هشام الكوفي الأسدي الوابلي مولاهم ، من كبار تلامذة حبر الأمة ابن عباس ، إمام في القراءة والتفسير وغيرهما ، قتله الحجاج ظلماً سنة أربع أو خمس وتسعين . انظر سير أعلام النبلاء (٤/٣٢١) ، وغاية النهاية (١/٣٠٥) ، وطبقات المفسرين للدوادوي (١/١٨١) .

(٥) جامع البيان (٨/٣٢٧) .

(٦) جامع البيان (٨/٣٢٧) .

(٧) هو يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد القاري ، يقال له يعقوب الاسكندراني ، حليف بني زهرة، سكن الاسكندرية ، وثقه ابن معين وابن حبان ، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة . انظر كتاب الثقات لابن حبان (٧/٦٤٤) ، وتهذيب التهذيب (٤/٤٤٤) .

(٨) هو أبو أسامة ، زيد بن أسلم العدوي المدني ، قال الذهبي : لزيد تفسيرٌ ، رواه عنه ابنه عبد الرحمن ، كان من العلماء

أَلَمْ تَرَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَجِيدًا ﴿١١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿١٢﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَسِيدٌ ﴿١٣﴾ [ق: ١٩ - ٢١] فقال له : " من يراد بهذا ؟ فقال : رسول الله - ﷺ - . فقلت : رسول الله - ﷺ - ؟! فقال : ما تنكر ؟ ! ؛ قال الله - عز وجل - ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٦ - ٧] . قال : ثم سألت صالح بن كيسان ^(١) عنها ، فقال لي : هل سألت أحداً ؟ فقلت : نعم ، قد سألت عنها زيد بن أسلم فقال : ما قال لك ؟ فقلت : بل تخبرني ما تقول . فقال : لأخبرنك برأيي الذي عليه رأيي ، فأخبرني ما قال لك . قلت : قال : يراد بهذا رسول الله - ﷺ - فقال : وما علم زيد! ، والله ما سن عالية، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب ، إنما يراد بهذا الكافر ، ثم قال : اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك . قال : ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس ^(٢) ، فقال لي : مثل ما قال لي صالح : هل سألت أحداً ؟ فأخبرني به ، قلت : إني قد سألت زيد بن أسلم ، وصالح بن كيسان . فقال لي : ما قال لك ؟ قلت : بل تخبرني بقولك ، قال : لأخبرنك بقولي ، فأخبرته بالذي قال لي ، قال : أخالفهما جميعاً ، يريد بها البر والفاجر ، قال الله : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَجِيدًا ﴿١١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿١٢﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَسِيدٌ ﴿١٣﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْفَنَّا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَلِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ١٩ - ٢٢] قال : فانكشف الغطاء عن البر والفاجر ؛ فرأى كل ما يصير إليه . " ^(٣)

ومن هذه القصة ترى : أن القول الأول لم يستدل فيه بالسياق ، أما الثاني والثالث فقد استدلا

العاملين ، توفي سنة ست وثلاثين ومائتين . انظر حلية الأولياء (٢٢١/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٣١٦/٥) ، وتهذيب التهذيب (٦٨٥/١) .

(١) هو أبو محمد ، صالح بن كيسان تابعي ، مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز ، من فقهاء المدينة ، إمام حافظ ثقة كثير الحديث ، قال الذهبي : رمي بالقدر ولم يصح عنه ، توفي بعد أربعين ومائة . انظر تهذيب الكمال (٧٩/١٤) ، وسير أعلام النبلاء (٤٥٤/٥) .

(٢) هو أبو عبد الله ، حسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس الهاشمي المدني ، ضعفه ابن معين ، وأبو حاتم ، وقال النسائي : متروك ، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة ، وقيل أربعين . انظر تهذيب التهذيب (٤٢٤/١) .

(٣) جامع البيان (٤١٩/١١ - ٤٢٠) .

به ، ولكن على اختلاف في موضع الاستدلال ، وهذا مما يدل على أهمية السياق ، وأنه ليس كافٍ وحده ، بل يحتاج معه إلى قواعد أخرى مقومة له ومرتببة .

ومقولة صالح بن كيسان في الآيات الماضية واضحة في الاهتمام بالسياق : " إنما يراد بهذا الكافر ، ثم قال : اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك " (١) . فإذا كان السياق دليلاً إلى معنى القرآن ، فقد ظهرت منزلته ، وعلت مكانته .

وقال الإمام مالك - رحمه الله - : لما سأله ابن وهب (٢) عن قول الله - تعالى - : ﴿ وَجِبَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩] قال : " ركباً وماشياً ، لو كانت إنما عني بها الناس ؛ لم تأت إلا رجلاً وانقطعت الآية ، إنما هي رجال مشاة ؛ وقرأ : ﴿ يَا تُورِكَ رِجَالًا وَعَنْ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧] قال : يأتون مشاة وركباناً " (٣) .

فاستدل بالركبان على معنى الرجال ؛ لعدم وجود الفائدة من زيادة الركبان لو كان معنى الرجال عموم الناس .

وقال ابن عطية - رحمه الله - : في قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧] معلقاً على قول من قال : هي في أهل الكتاب : " وظاهر ما قبل وما بعد أنه في جميع الكفار " (٤) .

وقال الرازي - رحمه الله - (٥) : عند قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ ﴾

(١) جامع البيان (١١/٤١٩) .

(٢) هو أبو محمد ، عبد الله بن وهب بن مسلم المصري الفهري مولاهم ، ولد سنة خمس وعشرين ومائة ، وتفقه على مالك والليث ، قال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة ، وكان مالك يكتب إليه في المسائل ويقول: ابن وهب عالم ، له مصنفات منها : أهوال القيامة ، والموطأ الكبير ، توفي سنة سبع وتسعين ومائة . انظر طبقات القراء (١/٤٦٣) ، وميزان الاعتدال (٢/٥٢١) ، وشجرة النور الزكية صفحة (٥٨) .

(٣) انظر جامع البيان (٢/٥٩٠) ، وتحقيق شاكر (٥/٤٤٤) .

(٤) المحرر الوجيز (١/١١٣) ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية ١٤١٣ هـ .

(٥) هو أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين القرشي ، الشهير بابن خطيب الري ، أصولي شافعي مفسر ، سلطان المتكلمين ،

[فصلت: ٥] "وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا الآية على الوجه الذي ذكرناه ، صارت السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً ، مسوقاً نحو غرض واحد ، فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه"^(١).

وقال ابن القيم -رحمه الله- : في قوله -تعالى-: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَتَاكُمْ لِكَيْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ أَتَيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ وَلِيَتَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاقِينِ﴾ **[النساء: ٣]** أي تجوروا ، وليس المعنى : ألا تكثروا عيالكم ، وذكر من الأدلة : أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره ؛ فإنه قال في أولها : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَهُنَّ وَرَثَةٌ لِكُلِّ إِحْدَىٰ مِنْكُمْ وَلَا مَعْصِيَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا ظَلَمْتُمْ وَمَنْ بَدَلَ عَهْدًا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ بِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ فَأُولَٰئِكَ شَرْءٌ مِمَّا كَفَرْنَا بِهِ وَأُولَٰئِكَ الْأَشْرَارُ﴾ **[النساء: ٣]** فدلهم - سبحانه - على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى ، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ ، وأباح لهم منهن أربعاً ، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن ، فقال : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَجِدْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ **[النساء: ٣]** ثم أخبر - سبحانه - أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور ، وهذا صريح في المقصود ."^(٢)

وقال أيضاً : عند قوله -تعالى-: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[الحجر: ٤١]** " قيل معناه: التهديد والوعيد ، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله ."^(٣)

وفي قوله -تعالى-: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضُبْحًا ۚ وَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۚ وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۚ﴾ **[العاديات: ١ - ٣]** اختلف الصحابة ومن بعدهم في المراد بالقسم هل هو الخيل أو الإبل ، ونقل ابن القيم عن الجرجاني^(٤)

ومنظر عقيدة الأشاعرة ، من مصنفاته : المحصول في أصول الفقه ، والتفسير الكبير ، اعترف في آخر عمره بخطأ أهل علم الكلام والفلاسفة ، وتوفي على طريقة حميدة - غفر الله لنا له - ، وكانت وفاته سنة ست وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٨١/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٠/٢١) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢١٣/٢) .

(١) مفاتيح الغيب (١٣٥/٢٧) ، طبع دار الفكر .

(٢) بدائع التفسير (٩/٢) لابن القيم ، جمع : يسري السيد محمد .

(٣) بدائع التفسير (٢٥/٣) .

(٤) هو أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الشافعي ، من كبار علماء العربية ، مؤسس علم البيان ، متكلم أشعري ، ألف : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، وقيل غير ذلك . انظر طبقات الشافعية للإسنوي (٤٩١/٢) ، وبغية الوعاة (١٠٦/٢) .

قوله : "كلا القولين قد جاء في التفسير ، إلا أن السياق يدل على أنهما : الخيل ، وهو قوله -تعالى- : ﴿فَالْمُؤْمِنَاتُ قَدَحًا﴾ [العاديات: ٢] والإبراء لا يكون إلا للحافر لصلابته وأما الخف ففيه لين واسترخاء" (١).
 وقال ابن كثير -رحمه الله- في قوله -تعالى- : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْصَحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾
 الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ
 وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفُوحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْتَ يَنْكِحْتَهُ فَمَلِكَيْنِ يَصِفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ [النساء: ٢٥] "والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان هاهنا
 التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ
 يَنْصَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥] - والله أعلم - والآية الكريمة سياقها في الفتيات
 المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله : ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ تزويج... (٢) .

هذه بعض أقوال العلماء في أهمية السياق ، وتلك هي تطبيقاتهم عليه ، وليس من الممكن ذكر
 جميع من أوصى بالعناية بالسياق ، أو استدل به ، فهم يهتمون به ، ولكن درجاتهم في ذلك مختلفة ،
 فمقلدٌ ومستكثر .

(١) التبيان في أقسام القرآن صفحة (٨٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٥١/١) .

المطلب الثالث : تأليف العلماء كثيراً في الوجوه والنظائر ، وفي غريب القرآن:

مما يدلّ على عظم عناية العلماء بالسياق تأليفهم في علم الوجوه والنظائر ، والمقصود بالوجوه والنظائر : أن تكون الكلمة واحدة ، ذكرت في مواضع من القرآن ، على لفظ واحد ، وحركة واحدة [وهي النظائر بمعنى:الكلمات المتشابهة]، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر [وهذه هي الوجوه أي: من المعاني] ^(١) .

وقد كتب العلماء في علم الوجوه والنظائر منذ زمن ، حيث نسبته ابن الجوزي ^(٢) —رحمه الله — إلى : عكرمة عن ابن عباس ، وإلى علي بن أبي طلحة ^(٣) عن ابن عباس ، وإلى الكلبي ^(٤) ، وإلى مقاتل بن سليمان ^(٥) ، وإلى العباس بن الفضل الأنصاري ^(٦) وغيرهم —رحمهم

- (١) نزهة الأعين لابن الجوزي صفحة (٨٣) ، تحقيق محمد الرازي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ، المؤسسة الرسالة .
- (٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي ، ابن الجوزي ، ولد حوالي سنة إحدى عشرة ، هدى الله على يديه آلاف ، وألّف كثيراً ، ومنها : المعنى في التفسير ، وزاد المسير ، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة . انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٣٩٩/١) ، وغاية النهاية (٣٧٥/١) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢٧٠/١) .
- (٣) علي بن أبي طلحة ، واسم أبيه سالم بن المخارق مولى ، روى عن ابن عباس ولم يسمع منه ، ولكن طريقه أقسوى الطرق وأصحّها عن ابن عباس ؛ لأن الواسطة بينه وابن عباس ثقتان هما : سعيد بن جبير ، ومجاهد . قال أحمد : بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة ، لو رَحَلَ رَجُلٌ فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً . وهي عند البخاري عن أبي صالح ، وقد اعتمد عليها فيما يعلقه عن ابن عباس ، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائة على الصحيح - . انظر ميزان الاعتدال (٥٤/٤) ، وتهذيب التهذيب (١٧١/٣) ، والإتقان (١٢٣٠/٢) .
- (٤) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، مؤرخ مفسر نساب ، قال الذهبي : كان رأساً في الأنساب ، إلا أنه شيعي متروك الحديث ، له مصنفات منها : ناسخ القرآن ومنسوخه ، توفي سنة ست وأربعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٦) ، وتهذيب التهذيب (٥٦٩/٣) ، وطبقات المفسرين للدواودي (١٤٤/٢) .
- (٥) هو أبو الحسن ، مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي بالولاء ، البلخي ، قال ابن المبارك : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وقال الذهبي : أجمعوا على تركه ، وقال : كذبوه وهجره ورموه بالتجسيم ، له كتب منها : نوادر التفسير ، ونظائر القرآن ، وغير ذلك ، توفي سنة خمسين ومائة . انظر تاريخ بغداد (١٦٠/١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠١/٧) ، ووفيات الأعيان (٢٥٥/٥) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٣٣٠/٢) .
- (٦) انظر نزهة الأعين النواظر صفحة (٨٢) . والعباس بن الفضل هو : أبو الفضل الأنصاري الواقفي البصري ، قاضي الموصل =

الله - .

ومن ألف أيضاً : يحيى بن سلام ^(١) كتابه : التصاريف (تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه) ، والمبرد ^(٢) كتابه : ما اتفقت ألفاظه ومعانيه في القرآن ، وغيرهم كثير .
وإليك مثلاً من كتب الوجوه والنظائر : قال ابن الجوزي - رحمه الله - : " وذكر أهل التفسير أن الأب - بتخفيف الباء - في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : الأب الأدنى : ومنه قوله - تعالى - في سورة النساء (١١) : ﴿ وَرِثَةُ آبَاءِهِ ﴾ ، وفي الأنعام (٧٤) : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾ ، وفي مريم (٤٢) : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ ، وفي القصص (٢٣) : ﴿ وَأَبُونَا سَيْحٌ كَبِيرٌ ﴾ ، وفي عبس (٣٥) : ﴿ وَأَنْهَى وَأَبَاهُ ﴾ .
والثاني : الأب الأعلى : وهو الجد : ومنه قوله - تعالى - في يوسف (٣٨) : ﴿ وَأَنْتَبَّهتُ مَلَّةَ آبَائِي إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، وفي الحج (٧٨) : ﴿ مِلَّةَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .
والثالث : العم : ومنه قوله - تعالى - في البقرة (١٣٣) : ﴿ تَعْبُدُوا إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ ، وإنما إسماعيل عم يعقوب .

والرابع : الحالة : ومنه قوله - تعالى - في يوسف (١٠٠) : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوتِي عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ^(٣) .
انظر إلى الآيات الماضية بتأمل : هل الذي غيّر معناها الآيات التي حددت المعنى باعتبار المتكلم

أيام الرشيد العباسي، توفي سنة ست وثمانين ومائة. انظر ميزان الاعتدال (٣٨٥/٢)، وتهذيب التهذيب (٢/٢٩٢).
(١) هو أبو زكريا ، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة البصري ، ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، له تفسير في ثلاث مجلدات ضخام ، وكتاب الجامع ، توفي سنة مائتين . انظر طبقات القراء (٢/٣٧٣) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٧١) ، وسير أعلام النبلاء (٩/٣٩٦) .
(٢) هو أبو العباس ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، المعروف بالمبرد ، قيل : مولده سنة عشر ومائتين ، له : الكامل ، ومعاني القرآن ، توفي سنة خمس وثمانين ومائتين ، وقيل غير ذلك . انظر المنتظم (٦/٩) ، وطبقات النحويين واللغويين صفحة (١٠١) ، ونور القبس للمرزباني صفحة (٣٢٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٦٧) .
(٣) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (١١١-١١٢) .

والمخاطب ، أم اللفظ بمفرده ؟، الذي يظهر أنه السياق ، كما هو واضح في كلام ابن الجوزي هنا .
وإن نوزع في ذلك ، فإن تعدد المعنى لا بد من دليل على تحديد أحدها على غيره ، ويعود
السياق نفسه إلى تحديده ، وهذا يدل على أهمية السياق من وجه آخر .

أما علم غريب القرآن : فقد اهتم به العلماء كما اهتموا بعلم الوجوه والنظائر ، وهو قريب
منها في الاعتناء بالسياق ، إلا أن كتب الغريب أقل ذكراً للسياق من كتب الوجوه والنظائر .^(١)
ومن أهم المؤلفات فيه:

تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين .
قال ابن قتيبة - رحمه الله - : في مقدمة تفسير غريب القرآن : " وكتابتنا هذا مستنبط من
كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ولا تكلفنا في شيء منه
بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأفاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية . " ^(٢)
ومن أشهر مؤلفات غريب القرآن : مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، المتوفى في
حدود سنة خمس وعشرين وأربعمائة ^(٣) .

وقد امتدح العلماء الراغب في مفرداته فقال الزركشي - رحمه الله - : " ومن أحسنها [كتب
الغريب] كتاب المفردات للراغب ، وهو يتصيد المعاني من السياق ؛ لأن مدلولات الألفاظ خاصة " ^(٤) .
وقال : في تفسير ما لم يرد فيه نقل : " وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ ،
من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات
فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتنصه من السياق . " ^(٥)
وقال السيوطي - رحمه الله - : " و أمّا ما لم يرد فيه [أي التفسير] نقل : فهو قليل ، وطريق

(١) انظر مقدمة تحقيق هند شلي ، على كتاب التصاريف ، ليجي بن سلام صفحة (٤٠) .

(٢) تفسير غريب القرآن صفحة (٤) وقصة الآية : سياقها .

(٣) انظر مقدمة تحقيق المفردات لصفوان داوودي صفحة (٢٥) .

(٤) البرهان للزركشي (١/٣٩٤) .

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/٣١٣) .

التوصل إلى فهمه : النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ، ومدلولاتها ، واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً ، في كتاب المفردات ، فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة ، في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتضاه السياق .^(١)

وإليك هذا المثال من كتاب المفردات في غريب القرآن :

قال الراغب - رحمه الله - : في مادة سخر : " والسُّخْرِيَّة والسُّخْرِيَّة : لفعل السَّاحِر ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا ﴾ [المؤمنون: ١١٠] و ﴿ سِحْرِيًّا ﴾^(٢) فقد حمل على الوجهين : على التسخير ، وعلى السُّخْرِيَّة قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْزِيلِكُمْ إِلَّا نَارٌ كَانَتْ تَعْلَمُ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ [ص: ٦٢ - ٦٣] ويدل على الوجه الثاني : قوله بعد : ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَبْضًا كَوْتًا ﴾ [المؤمنون: ١١٠] " (٣) . وهذا يدل على أن مؤلفي كتب الغريب يذكرون المعاني المتعددة - وقد تكون قراءات - ويرجحون أحدها على الآخر في أحيان ، بدلالة ما قبل الكلام ، وما بعده .

فهذه المؤلفات في العلمين الماضيين ، من علوم القرآن ، متصلة بدلالة السياق ارتباطاً وثيقاً : فالوجوه والنظائر تجمع الألفاظ المشتركة لفظياً ، وتبين ما حصل من اختلاف بينها في المعنى ، إما بسبب اتساع اللغة ، أو اختلاف السياق القرآني^(٤) ؛ مما أدى إلى اختلاف اللفظ الواحد ، باختلاف موقعه بين الجمل ، واختلاف الحكمة من سياقه .

وكتب غريب القرآن : تأتي باللفظة الغريبة ، وتذكر ورودها في الآيات ، وما صار عليها من معاني ، مع مراعاة ما يؤثر على المعنى من سياق ونحوه ، كما في المثال السابق من مفردات الراغب - رحمه الله - ، الذي تميّز باقتناص معنى المفردة من خلال سياقها ، ففاز بقصب السبق في دقة المعاني ، وحسن التفسير .

(١) الإتيان في علوم القرآن (٢/١٢١٧) .

(٢) قرأ بضم السين : بضم السين نافع وحمة والكسائي وأبو جعفر ، والباقون بالكسر ، إتخاف فضلاء البشر (٣٢١) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٤٠٢) .

(٤) انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، للدكتور سليمان القرعاوي صفحة (٣) ، وقد ذكر هذا في سبب اختلاف المؤلفين في الوجوه والنظائر .

المطلب الرابع : اهتمام العلماء بالمناسبات ، وتبنيهم على دورها في إظهار المعنى :

إن اهتمام العلماء بالمناسبات واضح في مؤلفاتهم ، فقد أفرده أبو جعفر بن الزبير^(١) - شيخ أبي حيان^(٢) - وسماه البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن ، وبرهان الدين البقاعي^(٣) في نظم الدرر في تناسب الآي والسور ، والسيوطي في تناسق الدرر في تناسب السور ، وقد اختصره من كتابه أسرار التنزيل^(٤).

ومن المؤلفات المعاصرة : في المناسبات بين السور كلها : "جواهر البيان في تناسب سور القرآن" للشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري^(٥).

والشيخ محمد عبد الله دراز^(٦) - رحمه الله - تعرض لتناسب الآيات في سورة البقرة في كتابه

(١) أبو جعفر ، هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، محدث نحوي أصولي أديب مقرر مؤرخ ، كان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه ، صنّف تعليقا على كتاب سيبويه ، والذيل على الصلة ، والبرهان ، توفي سنة ثمان وسبعمئة . انظر بغية الوعاة (٢٩١/١) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢٨٦/٢) .

(٢) هو أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، ولد سنة أربع وخمسين وستمئة ، مقرر محدث مفسر لغوي ، له مصنفات ، منها البحر المحيط ، والنهر المادّ ، وله منظومة في القراءات هي أسهل وأخصر من الشاطبية ، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمئة . انظر الدرر الكامنة (٧٠/٥) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢٨٦/٢) .

(٣) هو برهان الدين ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ، نسبة لبقاع في الشام ، ولد سنة تسع وثمانمئة ، له نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ومصراع التصوف ، وغيرها ، توفي سنة خمس وثمانين وثمانمئة . انظر التاج المكلل صفحة (٣٥٨) .

(٤) انظر الإتقان للسيوطي (٩٧٦/٢) .

(٥) وهو مؤلف معاصر ، له تآليف أخرى منها : فضائل القرآن ، وكتاب الأذكياء .

(٦) هو محمد عبد الله دراز ، ولد بمصر سنة اثني عشرة وثلاثمئة وألف ، ووالده شيخ دمياط الذي شرح الموافقات ، حضر الشيخ محمد الماجستير بعنوان : المدخل إلى القرآن ، والدكتوراه بعنوان : دستور الأخلاق في القرآن ، باللغة الفرنسية ، توفي في باكستان ، أثناء حضور المؤتمر الإسلامي ، سنة تسع وسبعين وثلاثمئة وألف . انظر مقدمة محقق كتاب النبأ العظيم الدخاخيني صفحة (و-ح) .

"النبا العظيم" (١).

قال البقاعي - رحمه الله - : في المناسبات " علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه : أجزاء الشيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته : الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب... وتتوقف الإجابة فيه على : معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة البيان من علم النحو " (٢).

ويقول أيضاً : "إن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن ، مترتبة على معرفة الغرض أو الأغراض التي سبقت لها السورة " (٣).

والحقيقة أن معرفة مقصود السورة ناتج من معرفة مناسبات الآيات لا العكس (٤).

وقد نبّه العلماء على دور المناسبات في إظهار المعنى والإعجاز، فقال السيوطي - رحمه الله :
"فوائده - أي : علم المناسبة - : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء" (٥).

وكيف لا تكون المناسبات مهمة ! وهي الطريق الأقرب في معرفة السياق ودقائقه ، إذ أن السياقات لا تعرف إلا بعد معرفة المناسبات - على الصحيح - ؛ إذ لا يمكن من أول وهلة أو لمحة أن تعرف سياق السورة ، بل بالتأمل الكثير في مرحلة نزولها ، وما بين مقاطع السورة ، وانتقالاتها ، وتعقيباتها ؛ يظهر ما سبقت له .

وعلى المفسر أن يعلم أن الفاصل الزمني بين نزول الآيات لا دخل له في موضوع السورة وهدفها ؛ إذ أنها كما قال الأستاذ محمد عبد الله دراز - رحمه الله - : "وإن كانت بعد تنزيلها جمعت

-
- (١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي ، لأستاذنا الدكتور مصطفى مسلم ، صفحة (٦٧) .
 (٢) نظم الدرر (١/٥-٦) .
 (٣) نظم الدرر (١/١٧) .
 (٤) انظر منهجية البحث في التفسير الموضوعي صفحة (١٠٢-١٠٣) ، للدكتور زياد الدغامين .
 (٥) الإتيقان (٢/٩٧٨) .

عن تفريق ، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع ، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده ، فلما أريد نقله بصورته إلى مكان غير مكانه قدرت أبعاده ، ورقمت لبناته ، ثم فرقت أنقاضاً ، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوفاً ، يشد بعضه بعضاً ، كهيئته أول مرة^(١) .

وإذا نظر المتأمل إلى أنواع التفسير الموضوعي كلها - سواء كان بالنظر للموضوع ، أو الكلمة ، أو للسورة الواحدة - علم أهمية معرفة السياق للآيات ، حتى يتمكن المفسر من ربط المواضيع المجموعة من القرآن ، أو المقاطع في السورة ؛ لتفسير كلام الله - عز وجل - على وجه يبدو منه رونق القرآن ، ونظمه العجيب ، وبلاغته المعجزة ، واضحة ناصعة .

الخلاصة : كل ما سبق في هذا البحث ، يدل على أهمية السياق سواء : حين تذكر أقوال العلماء في اعتماده ، أو حالهم حين يختلفون ، فتجدهم في أحيان يرجعون إلى السباق واللحاق ، أو حين تلحظ كثرة مؤلفات العلماء ، في علم الوجوه والنظائر ، وغريب القرآن ، وهما وثيقا الاتصال بالسياق ، -وقد اتضح ذلك بذكر الأمثلة- ، ثم أخيراً بذكر علم المناسبات ، وحال العلماء في محاولة إظهارها ، وإبرازها للعيان ، وقد ألفت فيه المؤلفات مستقلة أحياناً ، ومقتترنة في أحيان أخرى بالتفسير للقرآن الكريم .

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - صفحة (١٩٤-١٩٥) .

المبحث الثالث : أسباب الاعتماد على دلالة السياق القرآني :

- لو سألت عن : سبب الاعتماد على السياق ، وما هي موجبات تحديد المعنى بموافقة سياق الكلام ؟ ، وهل هناك علة أو حكم تحتم علينا اعتبار دلالاته ؟ ، وردّ ما يخالفه ؟ .
- فالجواب على ذلك في المطالب التالية :
- المطلب الأول :** أن السياق ضرورة لغوية .
- المطلب الثاني :** الاهتمام بالسياق يجعل الكلام منتظماً متسقاً .
- المطلب الثالث :** إظهار الإعجاز البياني في القرآن .

المطلب الأول : أن السياق ضرورة لغوية :

إن وجوب تتبع دلالات السياق ضرورة لغوية صرفة ، لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها ؛ إذ أن كل لغة لا تفهم على وجهها ، إلا يجعل ما يحيط بالكلام المفسر أساساً لإدراك معناه المراد منه . ثم إن شأن اللغة العربية أكبر من غيرها ؛ لكثرة أغراضها ، وتنوع أساليبها ، وسعة معانيها . وهذه الصفات للغة العرب ، سبب لاختلاف العلماء في جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات،^(١) والراجح : أن ترجمة اللغة العربية إلى غيرها غير ميسورة ، فقد نقل الأستاذ مناع القطان - رحمه الله -^(٢) عن الزمخشري^(٣) في الكشاف قوله : " إنَّ في كلام العرب - خصوصاً في القرآن - من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه اللسان " ^(٤) وحتى المعاني الأصلية لا تخلو ترجمتها من فساد؛ لتعدد المعاني في القرآن للمفردة الواحدة ، بخلاف اللغة المترجم إليها ، ثم رجح أن الترجمة السليمة الكاملة

(١) انظر الموافقات (١٠٦/٢-١٠٧) للشاطبي ، تحقيق علي حسن عبد الحميد .

(٢) هو أبو محمد ، مناع بن خليل القطان ، ولد بمصر سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف ، وكانت له مشاركة مع جماعة "الإخوان المسلمون" ، وشارك في حرب فلسطين ١٩٤٨ م ، صحب الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - ، وأعيد للتدريس بالملكة سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف ، ودرّس في المعاهد العلمية ، ثم كلية الشريعة ثم المعهد العالي للقضاء ، وصار مديراً له سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وألف ، له مؤلفات قيمة ، منها : مباحث في علوم القرآن ، وتفسير آيات الأحكام ، وغيرهما . انظر علماء ومفكرون عرفتهم صفحة (٤٤٧-٤٥٩) لحمد المحذوب - رحمه الله - ، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٤٧٠/٢) ، درّس الشيخ مناع كاتب هذه السطور ، فكان - رحمه الله - متميزاً في أسلوبه ، دقيقاً في عباراته ، على درجة عالية من حسن الحوار ، وتقويم الأقوال ، وحسن الأخلاق ، توفي يوم الاثنين ، السادس من شهر ربيع الثاني ، سنة عشرين وأربعمائة وألف . - رحمه الله - ودفن في الرياض .

(٣) هو جار الله ، أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، مفسر محدث نحوي أديب ، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة ، معتزلي مجاهر وداع لبدعته ، وتفسيره الكشاف على هذا فليقرأ على حذر ، ومن مؤلفاته : أساس البلاغة ، والمفصل في النحو ، والفاثق في تفسير غريب الحديث ، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . انظر وفيات الأعيان (١٦٨/٥) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (١٠٤) ، وبغية الوعاة (٢٧٩/٢) ، وطبقات المفسرين للدوادوي (٣١٤/٢) .

(٤) مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٢٥) لمناع القطان ، طبع مكتبة المعارف الطبعة الأولى المجددة ١٤١٣ هـ ، وقد حاولت الوصول إلى هذا المنقول عن تفسير الزمخشري فلم أتمكن .

لمعاني القرآن غير ممكنة ، وإنما يرخص فيها بمقدار الضرورة كأصول الدين ، ومن أراد الزيادة فليتعلم اللسان العربي^(١) .

(١) انظر مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٢٥-٣٢٦) بتصرف .

المطلب الثاني : الاهتمام بالسياق يجعل الكلام منتظماً متسقاً :

وأولى كلام يجب أن يفهم على هذا النحو كلام الله - عز وجل - ، وحين يُعرض المفسر عنه، أو يغفل ، أو يتمحّل وجهاً بعيداً عن السياق ؛ فإنه يجعل الكلام متنافراً مع ما قبله ، أو ما بعده ، منقطعة أجزاءه ، بعيدة علاقاته ، وذلك ممتنع في كتاب الله -عز وجل؛ لذهاب جمال القرآن وإعجازه، وانتظام جملة وآياته ، بهذا التعامل الخاطيء .

فلما كان ذا حصيلة الميل عن دلالات السياق ، تبين أن الاهتمام به مورث لنقيضه، وبضدها تتميز الأشياء .

قال الإمام مالك -رحمه الله- : لما سأله ابن وهب عن قول الله -تعالى-: ﴿وَجَبَلًا أَوْ زَبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] قال : " ركباً وماشياً ، لو كانت إنما عني بما الناس ؛ لم تأت إلا رجلاً ، وانقطعت الآية ، إنما هي رجال : مشاة ؛ وقرأ : ﴿يَأْتُونَكَ بِكَمَا لَا وَعْلَ كَلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] قال: يأتون مشاة وركباناً ."^(١)

فاستدل الإمام مالك -رحمه الله- بالركبان على معنى الرجال ؛ لعدم وجود الفائدة اللغوية الفصيحة التي تدل على زيادة الركبان ، لو كان معنى الرجال عموم الناس .

ويقول ابن جرير -رحمه الله- مرجحاً لقول في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَ قُلُوبًا﴾ [آل عمران: ٧٣] "قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله: ﴿قُلُوبًا﴾ [معتزلاً به ، وسائر الكلام متسقاً على سياق واحد... وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال ؛ لأنه أصحها معنى، وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب ، وأشدّها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه ، وما عدا ذلك من القول فانتراع يبعد من الصحة ، على استكراه شديد للكلام."^(٢)

(١) انظر جامع البيان (٢/٥٩٠)، وتحقيق شاعر (٥/٢٤٤) .

(٢) جامع البيان (٣/٣١٣-٣١٤) ، وتحقيق شاعر (٦/٥١٥-٥١٦) ، وانظر مثله في النساء (٦٥) ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية جامع البيان (٤/١٦٢) .

المطلب الثالث : إظهار الإعجاز البياني في القرآن :

لقد امتاز القرآن الكريم بالجزالة في الألفاظ ، والتناسق في الترتيب ، مما بجر فصحاء العرب ، سواء في مبادئ الآيات ومقاطعها ، أو في ترابط الآيات واتساقها ، فوجدوه على أكمل نظام ، وأتم إتقان .

وإن كل مفسر للقرآن يراعي سياق الآيات ، فهو بلا شك يعتبر موضحاً ومبيناً لوجوه من بلاغة القرآن وبيانه وبيده ؛ لأن الاهتمام بالسياق يوصل إلى المعنى الصحيح المقصود ، وأيضاً يظهر جمال القرآن في نظمه ، وإعجازه في بيانه ، وحين يبعد المفسر عن تتبع السياق ، فإن مآل تفسيره إلى غلط ونقص ، ثم يرجع في النهاية إلى تشويش إعجاز القرآن الكريم البياني على المخاطبين . وقد ظهر الإعجاز البياني جلياً ، في كتب المتشابه من القرآن : وهي كثيرة منها : البرهان في توجيه متشابه القرآن ، لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني ، المتوفى في حدود سنة خمسمائة .

ودرة التنزيل وغرة التأويل في المتشابه ، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي ، المتوفى سنة ست وستمائة .

وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، المتوفى سنة ثمان وسبعمائة .^{(١)(٢)} فالمؤلفون في متشابه القرآن يعمدون إلى السياق غالباً ؛ للتعرف على سبب الاختلاف بين آية وأخرى ، في الترتيب ، أو المبني أو نحو ذلك من الاختلاف .

(١) هو صاحب غرائب التفسير وعجائب التأويل ، وأسرار التكرار في القرآن ، والمشهور أن وفاته حدود خمس وخمسمائة ، ولكن محقق غرائب التأويل يرجح أن وفاته بعد خمس وثلاثين وخمسمائة أو خلالها . انظر معجم الأدباء (١٢٥/١٩) ، وغاية النهاية (٢/٢٩١) ، والأعلام (٨/٤٤) ، وغرائب التفسير (١/٣٤) .
(٢) انظر الإتيقان (٢/٥٩٥) ، وملاك التأويل طبع بتحقيق الدكتور سعيد جمعه الفلاح .

وإليك مثلاً موضحاً لدور السياق في بيان إعجاز القرآن ، والمثال من كتاب : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، وهو أحسن كتب المتشابه،^(١) : قال -رحمه الله - : عند قوله -تعالى- في الانشقاق : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢] وفي سورة البروج : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩] " للسائل أن يسأل عن اختصاص الأول بقوله : ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بلفظ المضارع ، والثانية بقول :

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ بلفظ المصدر مع اتحاد المعنى المقصود؟ والجواب عن ذلك - والله أعلم - أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخراوي ، كله لم يقع بعد ، وهم مكذبون بجميعة ، فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال وإن كان يصلح للحال ؛ ليطابق الإخبار لأنه عما يأتي ولم يقع بعد ، فجيء بما يطابقه في استقباله ، فأما آية البروج فقد تقدمها قوله -تعالى- : ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: ١٧] وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه ، وهؤلاء مستمررون على تكذيبهم ف قيل : ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ ... فجيء في كل من الآيتين بما يناسب ."^(٢)

وإبراز الإعجاز البياني للقرآن الكريم - المعجزة الخالدة - مهم في دعوة الناس إلى تصديق المعجزة الإلهية ، من جهة البيان الذي لا يأتي بمثله الخلق ولو اجتمعوا ، كما قال -تعالى- : ﴿قُلْ لَئِنْ جَمَعْتِ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] . ومن المعلوم أن الناس عموماً لا بد من حاجتهم إلى تفسير ما يُشكّل عليهم ، من كتاب الله ، ومرجعهم في ذلك التفاسير ، فعلى المفسر بيان الحق ، وتوضيح وجهه ، من غير توانٍ في إظهار عظمة نظمه ، ودقة ترابطه ، وجمال حبه ؛ علّ ذلك أن يكون سبباً في رسوخ إيمان المؤمنين ، ودخول طالبي الحق المبين هذا الدين .

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- في وصف ترابط القرآن : إنه كالبنيان ، وانتقاله بين الآيات كانتقاله بين حجرات البناء وفنائه ، بل إن معاني القرآن في السورة متناسقة ليس كذلك

(١) انظر الإتيان (٢/٥٩٥) .

(٢) ملاك التأويل (٢/١١٤١-١١٤٢) ، لأحمد الغرناطي ، تحقيق سعيد الفلاح .

فحسب ، " بل إنما لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظامان عند المفصل ، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كنب ، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي مجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية " (١).

(١) النبأ العظيم صفحة (١٩٥-١٩٦) .

المبحث الرابع: دلالة السياق القرآني ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن :

لقد كانت طرق المفسرين في التفسير كثيرة ومتنوعة ، وإذا تأملنا تفاسير السلف خاصة ، نجد طرقهم في التفسير متنوعة ، أشهرها :

١- تفسير القرآن بالقرآن .

٢- تفسير القرآن بالسنة.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

٤- تفسير القرآن باللغة العربية.

وأصح هذه الطرق وأقواها، تفسير القرآن بالقرآن ؛ لأن القرآن كلام الله - سبحانه وتعالى - ، وأوضح بيان لأي كلام تبين صاحب الكلام .

وتفسير القرآن بالقرآن تتعدد أنواعه ومنها :

١- آية مخصصة لعموم أخرى :

كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤] عموم يدخل فيه كل والد : مسلماً كان أم كافراً ، والآية خطاب للنبي - ﷺ - ووالدها مشركان ^(١) . وخص بقوله -تعالى-: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهْم

(١) ودليل موت والدي النبي ﷺ على الشرك : ما رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا قرابة المقربين ، عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله : أين أبي ؟ قال : "في النار" ، فلما قفى دعاه فقال "إن أبي وأباك في النار" ، (١٩١/١) رقم الحديث (٢٠٣) ، قال النووي في شرحه : " وفيه : أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذه قبل بلاغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- " ، (٧٩/٣) ، وفي مسند أحمد (٣٥٩/٥) رقم (٢٣٠٨٨) قال ﷺ : " سألت ربي عز وجل - أن يأذن لي في زيارة قبر أم محمد ، فأذن لي ، فسألته أن يأذن لي فأستغفر لها فأبى .." الحديث ، وبنحوه عند ابن جرير بإسناد صحيح . انظر تحقيق شاكر (٥١٢/١٤) عند تفسير الآية (١١٣) من التوبة .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣] فالأمر بالاستغفار في الآية الأولى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ خاص بالوالدين المسلمين؛ بدليل النهي عن الاستغفار للمشركين في الآية الثانية .
٢- آية مبيّنة لإجمال أخرى :

ففي قوله -تعالى-: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] إجمال ، فالمتلو علينا في هذه الآية غير واضح ، ولكن بينه الله - سبحانه - في السورة نفسها ، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالذَّمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَوِّطُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] ^(١) .

وقوله: ﴿مِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاحة: ٧] أهم المنعم عليهم ، وقد بينه في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] ^(٢) .

٣- آية مقيدة لإطلاق أخرى :

في قوله -تعالى-: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] إطلاق لمن في الأرض ، فيدخل المؤمن والكافر ، ولكن قيد الإطلاق قول الله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا﴾ [غافر ٧-٩] الآيات ، فأخرجت الكافر فلا تستغفر له الملائكة .

٤ - تفسير لفظ غريبة في آية ، بأشهر منها في آية أخرى :

- في حجارة قوم لوط قال -تعالى-: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] فكلمة ﴿سِجِّيلٍ﴾ غريب معناها ، وحكى الله -عز وجل- عن الملائكة في سورة الذاريات : أن المراد بكلمة: ﴿سِجِّيلٍ﴾ الطين ، فقال: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [نزل عليهم حجارة من طين] ﴿٢٣﴾

(١) انظر فتح القدير للشوكاني (٨/٢) ، طبعة دار المعرفة بيروت .

(٢) أضواء البيان (١١/١) .

[الذاريات: ٣٢ - ٣٣] فكان فيها توضيح لمعنى: سَجَّيلٌ^(١).

٥ - تفسير معنى آية بأخرى :

قال - تعالى - ﴿يَوْمَ يَوْمِزُ يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَمَسَّا الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٤٤)

[النساء: ٤٢] فمعنى التسوية: أن يكونوا تراباً مع الأرض ، ويوضح هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ

الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٤٥) [النبا: ٤٠]^(٢).

هذه بعض أنواع تفسير القرآن بالقرآن ، ووقوع التفسير بها ؛ لأنه تبيين الإشكال ودفعه في الآية بآية أخرى ، وغالباً ما يكون هذا التفسير في سورٍ متفرقةٍ ، والرباط بين الآية المفسرة والمفسرة : هو الموضوع ، أو الكلمة المفردة .

ولكن هناك نوعٌ من تفسير القرآن بالقرآن ، يتميزُ بكونه في السورة الواحدة ، بل في الآيات المتوالية ، وإن شئت فقل في الجملة الواحدة من الآية الكريمة . وهو ما سبقت تسميته بالسياق : بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرج عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له ، كما سيأتي تفصيله في القواعد - إن شاء الله - .

ومما يتميز به هذا النوع كثرة وروده في الآيات بل هو لا ينفك عنها بطبيعة اللغة ، وأيضاً : لا نزاع في اتصاله بما قبل وما بعد ، بخلاف ما سبق من الأمثلة فبينهما اختلاف في الموضوع من القرآن ، فقد يقال باختلاف المعنى بين الموضوعين فيمتنع تفسير هذا بذلك .

ومن الأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن في السورة الواحدة :

قوله - تعالى - ﴿بَلْ كَلَّمْنَا مِنْ كَسْبٍ سَكِينَةً وَأَحَطَّتْ بِهِ حَظِيَّتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

﴾^(٨١) [البقرة: ٨١] ففي هذه الآية دليل على أن معنى السيئة هنا : ليس المعنى العام ، وإنما أراد بها

الشرك بدليل قوله بعدها: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٨٢)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٢) ، وأضواء البيان (٢٤/١) ، طبع عالم الكتب بيروت .

(٢) وانظر تفسير القرآن العظيم (٤٧٣/١) ، وانظر موضوع مصادر التفسير ، للشيخ مساعد بن سليمان الطيار ، في مجلة البيان

العدد (٩٥) صفحة (٢٠) ، بتصرف واختصار .

[البقرة: ٨٢]" فكان معلوماً بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات ، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان ."^(١)

وهذا التفسير للسيئة مقتبس من سياق الآيتين ونظمهما معاً .-والله أعلم -.

ومن قول الله -تعالى- : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَتَفَسَّ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] استدلال أبو حنيفة -رحمه الله-: على أن المسلم يقتل بالكافر ؛ بدليل العموم في النفس ، وفي آخر الآية ما ينقضه ، وهو قوله : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] فهي قرينة على عدم دخول الكافر؛ لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً ، إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر .^(٢) فانظر إلى سياق الجمل كيف يفسر بعضه بعضاً .

وفي قوله -تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ [المائدة: ٩٥] قال مجاهد : " متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه " ^(٣)، ولكن قوله في آخر الآية: ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ [المائدة: ٩٥] دليل على أنه مرتكب لمعصية ، و الناسي لإحرامه غير مرتكب إثماً ، حتى يقال فيه : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾^(٤).

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تبين وجه ارتباط السياق بتفسير القرآن بالقرآن ، وأثره في بيان الصحيح ، ورد ما يلزم منه إهمال سياقات الكلام ، بل هي أكثر وأقوى في الاستدلال غالباً من التفسير للآية بآية في سورة أخرى ، كما ذكرت سابقاً -والله أعلم -.

(١) جامع البيان (٤٢٩/١) ، وتحقيق شاکر (٢٨٢/٢) .

(٢) انظر أضواء البيان (١٣١-١٤) .

(٣) جامع البيان (٤٢/٥) ، وتحقيق شاکر (٩/١١) .

(٤) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٤/١) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- .

الفصل الثاني

طريقة تناول ابن جرير لدلالة السياق القرآني :

وفيه تسعة مباحث :-

المبحث الأول : الأصل أن الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه.

المبحث الثاني : إذا تنالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها.

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له ،
فذلك حُلفٌ ينزّه القرآن عنه .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل
يدخل من يشابههم .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر
من الفعل المذكور السابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب .

مدخل للقواعد:

حين يسترسل القارئ لجامع البيان ، للإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - ، يرى كل قول ومعه دليله أو تعليقه ، ويجد الاستدلال في كلامه ظاهرة غير متكلفة ، ولو جمعت نظائر هذا القول وما في معناه ، لحصل لديك الجزم بأنها قواعد حرص الإمام على تطبيقها، وهذه القواعد ينصّ عليها بلفظها أو معناها في مواضع ، ولا يذكرها في أخرى ، ولكن يحصل عند المتأمل استحضر القاعدة فيما شاهدها من المواضع ؛ لأن طريقة الإمام واحدة في التفسير كله غالباً .

ولقد كانت القواعد التي سار عليها الإمام - فيما يخص بحث هذه الرسالة وهو ما يتعلق بدلالة السياق القرآني حسب حصري لها - تسع قواعد جمعت في هذا الباب : واختصت كل قاعدة بمبحث، محاولة لتأصيل وتقعيد منهج الإمام ابن جرير - رحمه الله - في التعامل مع السياق ، وهي كالتالي : -

المبحث الأول : الأصل أن الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه .

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها .

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له ، فذلك خُلفٌ ينزّه القرآن عنه .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم ، بل يدخل من يشابههم .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب .

وكل قاعدة كما ترى أُفردت في مبحث مستقل ؛ لِيتمَّ النظر إليها ، وإلى تطبيقاتها بشيء من

التفصيل ، عسى أن تتضح في الأذهان ، وتستعمل في تفسير القرآن ، وغيره من البيان .

المبحث الأول: الكلام على اتصال السياق، ما لم يدل دليل على انقطاعه:

تلاحظ في هذه القاعدة ، أنما تعتبر السياق أياً كان متصلاً ، ولا يقال بانفصاله عما قبله ، أو عما بعده ، إلا بدليل على الانقطاع ، وهذه القاعدة هي أساس التفسير بالسياق ، وقد كانت عمدة للإمام في مواضع كثيرة جداً يتعدّر حصرها .

وبعد جمع المواضع التي استعمل ابن جرير فيها هذه القاعدة ، صنفت ما يتعلق بالقاعدة فظهرت هذه التفريعات وجعلتها في مطالب :

المطلب الأول : نصّ القاعدة ، وطريقة تعامل الإمام مع الجمل المعترضة .

المطلب الثاني : أدلة اتصال السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري -رحمه الله- : وهي : الذين ، وإذ ، والضمير ، وعند ، وحتى ، والاستثناء ، وأم ، وبل ، والعطف ، والتعليل ، والاستفهام ، وذلك ، وتلك ، وكذلك .

المطلب الثالث : أدلة انقطاع السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري -رحمه الله- : نصّ الآية ، والسنة ، والإجماع ، وأقوال الصحابة ، وسبب النزول ، وترجيح المعنى الأغلب ، والاستثناء ، واللغة ، والإعراب .

المطلب الرابع : مواضع محتملة لاتصال السياق وانقطاعه .

المطلب الخامس : مواضع لم يطبق فيها الإمام قاعدة اتصال السياق .

المطلب الأول : نصّ القاعدة :

يفسّر كلام الله -عز وجل- على اعتبار كون الكلام الأول وما بعده في موضوع واحدٍ ، وجنس واحدٍ ، ولا يقال بانقطاعه عما قبله أو ما بعده إلا بدليل ، وقد نصّ الإمام على هذه القاعدة في الآية الواحدة مع جملها ، وبين الآيات المتعددة ، وإليك الأمثلة على النوعين :

أولاً : نصّ الإمام على اعتبار كون الكلام الأول وما بعده في موضوع واحد ، وجنس واحد ، ولا يقال بانقطاعه عما قبله أو ما بعده إلا بدليل في الآية الواحدة : جاء نصّ ابن جرير - رحمه الله - على القاعدة في آية واحدة بالنظر إلى جملها نظر الترابط فيما بينها ، وتكميل بعضها لبعض معنى موضوع واحدٍ ، وسأعرض لهذا فيما يلي معنوناً لها بالفوائد .

فوائد استعمال قاعدة اتصال السياق :

ولإظهار أهمية هذه القاعدة يحسن إيراد ما تحصل من فوائد تفسيرية لكلام الله الكريم ومن هذه

الفوائد :

أ- تحديد مرحلة نزول الآية .

ب- تعيين المعنى للآية ، وتوضيح المراد منها .

ج- تحديد المخاطب .

أ- من فوائد استعمال قاعدة اتصال السياق في الآية الواحدة : تحديد مرحلة نزول

الآية: كما في قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] قال - رحمه الله -: "اختلف أهل التأويل فيما نزل فيه : ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فقال بعضهم : ...نزل بحكمة والمسلمون يومئذ قليل... فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأعزّ الله سلطانه ، أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم ، وأن لا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية ، وقال آخرون : بل معنى ذلك : فمن قاتلكم أيها المؤمنون من المشركين فقاتلوهم كما قاتلوكم ، وقالوا :

أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ - بالمدينة وبعد عمرة القضية^(١)... قال مجاهد... فقالتوهم فيه كما قاتلوكم .

قال أبو جعفر : وأشبهه التأويلين بما دلّ عليه ظاهر الآية : الذي حكي عن مجاهد ؛ لأن الآيات قبلها إنما هي أمر من الله للمؤمنين بجهاد عدوهم على صفة ، وذلك قوله : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٩٠] والآيات بعدها ، وقوله : ﴿ **فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ** ﴾ إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد ، والله - جلّ ثناؤه - إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة ، فمعلوم بذلك أن قوله : ﴿ **فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ مدني لا مكّي ، إذ كان فرض قتال المشركين لم يكن وجب على المؤمنين بمكة ، وأن قوله : ﴿ **فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ نظير قوله : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ وأن معناه : فمن اعتدى عليكم في الحرم فقاتلكم ، فاعتدوا عليه بالقتال ، نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم ؛ لأني قد جعلت الحرمات قصاصاً ، فمن استحلّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حرمة في حرمي ، فاستحلوا منه مثله فيه ."^(٢) .

فكان ورود الآية بين آيات الجهاد باليد والأمر بالقتال ، حاكماً على أن وقت نزولها ومعناها متصل مع تلك الآيات السابقة واللاحقة ؛ لأن الجهاد بالقتال لم يفرض إلا بعد مكث النبي - ﷺ - بالمدينة زمنًا ، وأما بمكة وأول المقام بالمدينة فالمشروع هو : كف الأيدي ، والعمو حتى يأتي الله بأمره^(٣) .

(١) عمرة القضية في السنة السابعة من الهجرة ، وتسميتها من الاقتضاء ؛ ولذلك تسمى عمرة القصاص ، فهي مقاصة للكفار الذين منعوه عام الحديبية في السنة السادسة ، وأقام النبي - ﷺ - بمكة ثلاث ليال . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٢/٤) ، ومختارات من زاد المعاد لابن عثيمين صفحة (١٠١) .

(٢) جامع البيان (٢/٢٠٥) ، وتحقيق شاكر (٣/٥٨٠) .

(٣) انظر الآيات الأمرة بكف الأيدي والعمو : في البقرة (١٠٩) ﴿ **وَدَا كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُنَّا حَسْبًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْطَبَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ، والنساء (٧٧) ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ الآية ، والحاشية (١٤) ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (١٤) وغيرها وراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي =

-ب- ومن فوائد استعمال اتصال السياق في الآية الواحدة : تعيين المعنى : ففي قوله تعالى - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧] قال - رحمه الله - : "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك [أي : في معنى ﴿ نُفِثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾] ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ثقلت الساعة على أهل السماوات والأرض أن يعرفوا وقتها ومجيئها ؛ لخفائها عنهم ، واستثثار الله بعلمها... وقال آخرون : معنى ذلك : أنها كبرت عند مجيئها على أهل السماوات والأرض... وقال آخرون : معنى قوله: ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : على السماوات والأرض..."

قال أبو جعفر: وأولى ذلك عندي بالصواب: قول من قال: معنى ذلك : ثقلت الساعة في السماوات والأرض على أهلها أن يعرفوا وقتها وقيامها ؛ لأن الله أخفى ذلك عن خلقه ، فلم يطلع عليه منهم أحداً ، وذلك أن الله أخبر بذلك بعد قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ، وأخبر بعده : أنها لا تأتي إلا بغتة ، فالذي هو أولى أن يكون ما بين ذلك أيضاً خبراً عن خفاء علمها عن الخلق ، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك^(١) .

فورود جملة بين جمل في موضوع معين ، ينبغي تفسير هذه الجملة بإلحاقها مع معنى الجمل الأخرى ، فهو أولى من غيره^(٢) .

-ج- ومن فوائد استعمال اتصال السياق في الآية الواحدة : تحديد المخاطب : ففي تفسير

(جزء ٥٠/٢) طبع دار الكتب العلمية ، ومفاتيح الغيب للرازي (جزء ٢٢١/٣) طبع دار الكتب العلمية ١٤١١هـ .

(١) جامع البيان (١٣٧/٦-١٣٨) ، وتحقيق شاکر (٢٩٥/١٣) .

(٢) انظر في تحديد المعنى في الآية الواحدة : البقرة (٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضِبُهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا

أَتَّخَذْتُمُوهُمْ يَمًا فَتَنَحَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَحْجُبَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ جامع البيان (٤١٥/١) و(٢٨٠) ﴿ وَلَئِن كَانَتْ

ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ الآية ، جامع البيان (١١٤/٣) ، والنساء (٢) ﴿ وَءَاتُوا آلَ يَتِيمَ ءَأْمَانَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَتِ بِالطُّبِيِّ ﴾

الآية جامع البيان (٥٧٠/٣-٥٧٣) ، وهود (١١٤) ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ الآية جامع البيان

(١٢٩/٧-١٣١) .

قوله -تعالى- : ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية قال -رحمه الله- بعد أن ذكر الأقوال في تفسيرها : "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ .معنى: ولا يضارّهما من استكتب هذا ، أو استشهد هذا، بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له وهو مشغول بأمر نفسه ، ويأبى على هذا إلا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ... وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب من غيره ؛ لأن الخطاب من الله -عز وجل- في هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها على وجه افعلوا أو لا تفعلوا ، إنما هو خطاب لأهل الحقوق ، والمكتوب بينهم الكتاب ، والمشهود لهم أو عليهم بالذي تداينوه بينهم من الديون ، فأما ما كان من أمر أو نهي فيها لغيرهم ، فإنما هو على وجه الأمر والنهي للغائب غير المخاطب ، كقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكقوله: ﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] وما أشبه ذلك، فالوجه إذ كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله: ﴿وَإِنْ تَفَلَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ بأن يكون الأمر مردوداً على المستكتب والمستشهد ، أشبه منه بأن يكون مردوداً على الكاتب والشهيد ، ومع ذلك فإن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيين عن الضرار لقييل: وإن يفعلوا فإنه فسوق بهما ؛ لأنهما اثنان ، وأنها غير مخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يُضَارُّ﴾ بل النهي بقوله: ﴿وَلَا يُضَارُّ﴾ فهي للغائب غير المخاطب ، فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيراً لما في سياق الآية ، أولى من توجيهه إلى ما كان منعديلاً عنه ."^(١)

وهكذا تكون الدقة في تتبع السياق ، بالنظر للأوامر ، فلما كان أصل الخطاب في الآية لأهل الحقوق بخطاب الحاضر ، ودخل معه خطابات للغائب ، فالأولى جعل الخطاب الحاضر لمن افتتح بهم الخطاب ، والغائب لغيره ؛ مراعاةً لأطراد الأسلوب في الآية ، فهو أولى من نقضه وتغييره .

ودونك مثال آخر في المخاطب بقوله -تعالى- : ﴿وَمَا تَنْتَهُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] قال -رحمه الله- : "اختلف فيمن عنوا بهذا الخطاب : فقال بعضهم : عني به أمة محمد -ﷺ-... وقال آخرون : عني به قوم موسى -ﷺ-..."

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب : قول من قال : ﴿وَمَا تَنْتَهُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ

(١) جامع البيان (٣/١٣٤-١٣٧) ، وتحقيق شاکر (٦/٩٠) .

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ ، خطاب لبني إسرائيل، حيث جاء في سياق قوله : ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] ومعطوفاً عليه ، ولا دلالة في الكلام تدلّ على أن قوله : ﴿وَأَنَّكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ مصروف عن خطاب الذين ابتدئ بخطابهم في أول الآية ؛ فإذا كان ذلك كذلك، فإن يكون خطاباً لهم أولى من أن يقال : هو مصروفٌ عنهم إلى غيرهم...^(١)

ثانياً : نصّ الإمام على اتصال السياق بين الآيات المتعددة :

وأما نصه على السياق المتصل بين الآيات المتعددة فكثير ، وسأعرض لهذه الأمثلة من خلال

الفوائد التالية :

أ- تحديد المعنى .

ب- تحديد المخاطب .

أ- أما تحديد المعنى : ففي قوله -تعالى- : ﴿يُودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةً مِّنَ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال أبو جعفر -رحمه الله- : "ومعنى ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿يُودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةً مِّنَ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ الآية... وهذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالهم رثاء الناس في هذه الآية ، نظير المثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ .

قال أبو جعفر : وقد تنازع أهل التأويل في تأويل هذه الآية ، إلا أن معاني قولهم في ذلك -

(١) جامع البيان (٤/٥١١-٥١٢)، وتحقيق شاكر (١٠/١٦٤). وانظر مواضع أخرى في البقرة (١٠٢) ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نُنزِّلُوا

النَّبِيِّ عَلَيْكَ سُلَيْمَانَ﴾ الآية ، جامع البيان (١/٥٠٧-٥٠٨)، والنساء (٤) ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَتَيْنِ مِثْلَهُ﴾ جامع

البيان (٣/٥٨٣-٥٨٤) .

وإن اختلفت تصاريفهم فيها - عائدة إلى المعنى الذي قلنا في ذلك ، وأحسنهم إبانة لمعناها وأقربهم إلى الصواب قولاً فيها : السدي^(١)... [قال]: هذا مثل آخر لنفقة الرياء ، أنه ينفق ماله يرائي الناس به ، فيذهب ماله منه وهو يرائي ، فلا يأجره الله فيه ، فإذا كان يوم القيامة ، واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقتها الرياء ، فذهبت كما أنفق هذا الرجل على جنته ، حتى إذا بلغت ، وكثر عياله ، واحتاج إلى جنته ، جاءت ريح فيها سموم ، فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئاً ، فكذلك المنفق رياء... .

[ثم قال أبو جعفر] : وإنما دللنا أن الذي هو أولى بتأويل ذلك ما ذكرناه ؛ لأن الله -جلّ ثناؤه- تقدم إلى عباده المؤمنين بالنهي عن المنّ والأذى في صدقاتهم ، ثم ضرب مثلاً لمن منّ وآذى من تصدّق عليه بصدقة ، فمثله بالمرائي من المنافقين ، المنفقين أموالهم رياء الناس ، وكانت قصة هذه الآية وما قبلها من المثل نظيرة ما ضرب لهم من المثل قبلها ، فكان إلحاقها بنظيرتها أولى من حمل تأويلها على أنه مثل ما لم يجر له ذكر قبلها ولا معها .^(٢)

يتضح من هذا التعميد أن الأمثال المتوالية من غير فاصل تعتبر واحدة في معناها ، ولا يقال بأنها: مثل لشيء لم يجر له ذكر في السياق ، - ويدخل غير الأمثال إذا اتحد الموضوع -؛ إذ الكلام على اتصاله محقق ، ما لم يدل دليل على انقطاعه .^(٣)

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، أحد موالي قريش ، حجازي الأصل ، سكن الكوفة ، كان إماماً في الوقائع وأيام الناس ، ومفسراً ، روى عن ابن عباس وأنس ، توفي سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة . طبقات ابن سعد (٣٢٣/٦) ، وسير أعلام النبلاء (٢٦٤/٥) ، وتهذيب التهذيب (١٥٨/١) ، وطبقات المفسرين للدوادوي (١٠٩/١) .

(٢) جامع البيان (٧٤-٧٨/٣) ، وتحقيق شاکر (٥٤١/٥) .

(٣) وانظر مثله في النور (٣٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢١/٩) ، وهناك أمثلة أخرى على القاعدة عامة : مثل الأنعام (٨٩) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٠-٢٦١/٥) ، والتوبة (١٢٢) ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية ، جامع البيان (٥١٦/٦) ، وهود (٥) ﴿الْآيَاتُ لَكُمْ يُتْلُونَ صُدُورُهُمْ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ﴾ الآية ، (٦٢٧/٦) ، و(١١٤) ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْمَنِ﴾ الآية ، جامع البيان (١٣١/٧) ، ويوسف (١١١) ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢٥/٧) ، والنحل (٦٩) ﴿يُمْ كَلِي مِنْ كُلِّ النَّمْرَاتِ فَاسْأَلْكُمْ سُبُلَ رَبِّكُمْ ذُلًّا﴾ الآية ، جامع البيان (٦١٤/٧) ، والحج (٧٣-٧٤) ﴿يَتَأْتِيهَا

وعند تفسير قوله -تعالى- ﴿ **مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا** ﴾ [النساء: ٨٥] قال أبو جعفر في تعيين معنى الشفاعة: "يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿ **مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا** ﴾ من يصيرُ يا محمد شفعا لوتر أصحابك ، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله ، وهو الشفاعة الحسنة... ﴿ **وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً** ﴾ يقول : ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به ، فيقاتلهم معهم ، وذلك هو الشفاعة السيئة... وقد قيل : إنه عنى بقوله : ﴿ **مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا** ﴾ الآية، شفاعة الناس بعضهم لبعض . وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكرنا ، ثم عمّ بذلك كل شافع بخير أو شرّ، وإنما اخترنا ما قلنا من القول في ذلك ؛ لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيّه - ﷺ - فيها بحضّ المؤمنين على القتال ، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسول الله - ﷺ - ، والوعد لمن أبى إجابته ، أشبه منه من الحثّ على شفاعة الناس بعضهم لبعض ، التي لم يجر لها ذكر قبل ، ولا لها ذكر بعد ."^(١)

وقد أشار الرازي -رحمه الله- إلى حتمية تعلق الآية بالجهاد ؛ لثلا تنقطع الآية عما قبلها^(٢) ، وقد يحمل المعنى على أن الآية مستأنفة ، سيقّت لبيان ثواب النبي - ﷺ - من تحريضه المؤمنين على الجهاد.^(٣)

وقد يقال : إنها عامة في كل شفاعة ، وتدخل الشفاعة في الجهاد دخولاً أولياً بدلالة السياق ، ولكن الأولى ما رجحه ابن جرير - رحمه الله - .

النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَوْعِرُوا اللَّهَ ﴿ **الآيتين** ، جامع البيان (١٩٠/٩) ، والأحزاب (٥٥-٥٦) ﴿ **لَا جُنَاحَ عَلَيْنَ فِي مَبَايِعِهِ وَلَا**
أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا آبَاءَهُمْ وَلَا إِخْوَانَهُمْ وَلَا نِسَاءَهُمْ وَلَا مَمْلُوكَاتِ أَيْمَانِهِمْ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (٣٢٨/١٠) ،
والصفات (٢) ﴿ **فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنِسَائِهِمْ لَمْ يَرْجُوا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ** ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٦٨/١٠) .

(١) جامع البيان (١٨٨/٤) ، وتحقيق شاکر (٥٨٠/٨) .

(٢) مفاتيح الغيب (جزء ١٠/١٦٥) .

(٣) انظر روح المعاني (١٤٣/٤) ، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧٤٨/١) تحقيق عبد القادر عطا .

ب- وأما تحديد المخاطب : ففي قوله -تعالى- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۗ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤] حدّد الخطاب بالنصارى والمسجد مسجّد بيت المقدس ؛ بدلالة السياق : فقال -رحمه الله-: "اختلف في المعنى بالخطاب : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس... وقال آخرون : وهو بختنصر وجنده ، ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد بيت المقدس... وقال آخرون : بل عنى الله -عز وجل- بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام..."

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية : قول من قال : عنى الله -عز وجل- بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ النصارى ، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه ، بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده . والدليل على صحة ما قلنا في ذلك : قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها ، وأن لا مسجد عنى الله -عز وجل- بقوله : ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ إلا أحد المسجدين ، إما مسجد بيت المقدس ، وإما المسجد الحرام ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام ، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله - ﷺ - وأصحابه من الصلاة فيه ، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله -عز وجل- بالسعي في خراب مساجده ، غير الذين وصفهم الله بعمارتهما ، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية ، وبعمارته كان افتخارهم ، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم ، وأخرى : أن الآية التي قبل قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذمّ أفعالهم ^(١) ، والتي بعدها نبهت بذمّ النصارى ، والخبر

(١) وهي قوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣] .

عن افتراءهم على ربهم،^(١) ولم يَجْرٍ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها فيوجه الخبر - بقول الله - عز وجل - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ - إليهم وإلى المسجد الحرام ، وإذ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه ، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها لخبرها نظيراً وشكلاً ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت ."^(٢)

وعند قوله -تعالى- : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] قال -رحمه الله- : "... ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وهذا خطاب من الله نبيه - ﷺ - ، يقول : وترى يا محمد آلتهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ؛ ولذلك وحّد ، ولو كان أمر النبي - ﷺ - بخطاب المشركين لقال : وتروهم ينظرون إليكم . وقد روي عن السدي في ذلك... [أنه] قال : هؤلاء المشركون . وقد يحتمل قول السدي هذا أن يكون أراد بقوله : هؤلاء المشركون ، قول الله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾ وقد كان مجاهد يقول في ذلك: ... - : "... ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ما تدعوهم إلى الهدى .

- (١) وهي قوله -تعالى- : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَدِينًا ﴾ [البقرة: ١١٦] .
(٢) جامع البيان (١/٥٤٥-٥٤٧) ، وتحقيق شاكر (٢/٥٢٠) . وانظر سورة البقرة (١٧٧) ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقُلْ الْمَشْرِيقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢/١٠٠) ، وآل عمران (١٧٩) ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٢٩) ، و(١٨٨) ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٧٩] جامع البيان (٣/٥٤٩) ، والأنعام (٦٥) ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَمِيعَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ الآية جامع البيان (٥/٢٢٣) ، و(٩١) ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرُوهُ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥/٢٦٢-٢٦٤) ، والأعراف (١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَأْخُذُوا ﴾ الآية ، جامع البيان (٦/١٠٥) ، والأنفال (٦) ﴿ يَجِدُوا لَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [٦] جامع البيان (٦/١٨٢-١٨٣) .

وكانَّ مجاهدًا وجَّه معنى الكلام إلى أن معناه : وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، فهو وجَّهٌ ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة فهو بوصفها أشبهه. ^(١)

وعند تفسير قوله -تعالى- : ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام:

٢٦] قال -رحمه الله- : اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ فقال بعضهم : معناه : هؤلاء المشركون المكذَّبون بآيات الله ، ينهون الناس عن اتباع محمد -ﷺ- والقبول منه ، وينأون عنه : يتباعدون عنه... وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ عن القرآن أن يُسمع له ويعمل بما فيه... وقال آخرون : معنى ذلك : وهم ينهون عن أذى محمد -ﷺ- ، وينأون عنه : يتباعدون عن دينه وأتباعه... [ف] ابن عباس يقول : نزلت في أبي طالب ^(٢) ، كان ينهى عن محمد أن يُؤذَى ، وينأى عما جاء به أن يؤمن به... .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : قول من قال : تأويله : ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾

عن اتباع محمد -ﷺ- من سواهم من الناس ، ﴿ **وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ عن اتباعه . وذلك أن الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادلين به ، والخبر عن تكذيبهم رسول الله -ﷺ- ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه ، فالواجب أن يكون قوله : ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ خبراً عنهم ، إذ لم يأتنا ما يدل على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم ، بل ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على صحة ما قلنا ، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسول الله -ﷺ- ، دون أن يكون خبراً عن خاصّ منهم... ^(٣)

فلا يقال : إن هذه الآية مخاطب بها فرد - كأبي طالب - مع أن سابقها ولاحقها على خطاب

(١) جامع البيان (١٥١/٦) ، وتحقيق شاکر (٣٢٤/١٣) .

(٢) هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ، ولد قبل الهجرة بخمس وثمانين سنة ، وهو الد علي ، وعم النبي -ﷺ- ، وكافله ، ومرثيه ، وناصره ، دعاه الرسول -ﷺ- إلى الإسلام فامتنع ، ونزل فيه قول الله : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الفصل: ٥٦] ، توفي كافراً قبل الهجرة بثلاث سنين . انظر الأعلام للزركلي (٣١٥/٤) .

(٣) جامع البيان (٧١/٥-٧٣) ، وتحقيق شاکر (٣١١/١١) .

الجماعة ، إلا بدليل صارفٍ الخطاب عنهم إليه .

فتبين مما مضى أن كل خطاب لمعين وما يتبعه من الجمل لا يصرف عنه إلى غيره إلا بدليل .

ولقاعدة الاتصال لا بد من توضيح طريقة تعامل الإمام مع الجمل المعارضة :

كان عمل الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - مع الجمل المعارضة فناً ؛ للوصول إلى التفسير السليم ، والمعنى الواضح ، فهو يختصر ما بين الجمل الطويلة ، للوصول إلى المعنى بكل وضوح ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج: ١٢] قال - رحمه الله - : "يقول - تعالى - ذكره - : وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة ، ارتد عن دين الله ، يدعو من دون الله آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ يقول : ارتداده ذلك داعياً من دون الله هذه الآلهة هو : الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهاباً بعيداً ."^(١)

فأعاد هذه الآية إلى ما عطف عليه أول الكلام ، وهو الحديث عن حال من يعبد الله على حرف حال الفتنة بالضراء ، بعد ذكر حاله في السراء ، وحذف جملة : ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الضَّالُّونَ ﴾ [الحج: ١١] .

ولا يقال بالاعتراض إلا بدليل : ففي تفسير قوله - تعالى - : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] قال - رحمه الله - : "...يعني بذلك - تعالى - ذكره - : ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون ، ليس لك من الأمر شيء ، فقوله : ﴿ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ منصوب عطفاً على قوله : ﴿ أَوْ يَكْفُرْتُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٧] ، وقد يحتمل أن يكون تأويله : ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب عليهم ، فيكون نصب ﴿ يَتُوبَ ﴾ . بمعنى «أو» التي هي في معنى : «حتى» .

(١) جامع البيان (١١٧/٩) . وانظر مثاليين آخرين : في آل عمران (٣٥) ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٢/٣) ، والأحزاب (٢٤-٢٥) ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (٢٨٢/١٠) .

قال أبو جعفر : والقول الأول أولى بالصواب ؛ لأنه لا شيء من أمر الخلق إلى أحدٍ سوى خالقهم ، قبل توبة الكفار وعقابهم وبعد ذلك .^(١)

وكأنّ الدليل على هذا عنده هي : الفطرة التي تقر بأن الله - عز وجل - لا يحدّ فعله ومملكه شيء ، وهذا الدليل يؤيد اتصال الكلام السابق واللاحق بالجملة المعترضة : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، فمعنى الأمر : عائد إلى كل ما سبق ، من التوبة والكبت والقطع والتعذيب ، وغيرها من الأمور ، ولا يخصّ بأنّ معنى : ﴿ الْأَمْرِ ﴾ التوبة عليهم فقط ، والتعميم بدلالة الفطرة ، كما يفهم من كلام ابن جرير . -والله أعلم - .

ولا يصار إلى القول بالاعتراض إلا عند الحاجة : فعند تفسيره قوله -تعالى- : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] عمّم الخطاب لعموم الناس ، ولم يخصه باليهود فقط ، فقال أبو جعفر : "وقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ خبر مبتدأ عن المتعلّمين من الملكين ما أنزل عليهما ، وليس بجواب لقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] بل هو خبر مستأنف ؛ ولذلك رُفِعَ فقيل : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ فمعنى الكلام إذاً : وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا : إنما نحن فتنة ، فيأبون قبول ذلك منهما ، فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . وقد قيل : إن قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ خبر عن اليهود ، معطوف على قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ اللَّيْسَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَبْلِ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] . . . ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وجعلوا ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ، والذي قلنا أشبه بتأويل الآية ؛ لأن إلحاق ذلك بالذي يليه من الكلام ما كان للتأويل وجه صحيح ، أولى من إلحاقه بما قد حِيلَ بينه وبينه من معترض الكلام^(٢) . أي : أنّ تفسير الجمل حال تتابعها ينبغي فيه وصلها بما يليها ، وذلك أولى من إلحاقها بما بُعد

(١) جامع البيان (٤٣١/٣) ، وتحقيق شاکر (١٩٤/٧) .

(٢) جامع البيان (٥٠٧/١-٥٠٨) ، وتحقيق شاکر (٤٤٥/٢) . وانظر النساء (١٢٧) ﴿ وَسَتَفْتُنَاكِ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ الآية جامع البيان (٣٠١/٤-٣٠٢) ، وانظر الأعراف (١٩٩) ﴿ خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرِي بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

﴿ ٣٣ ﴾ جامع البيان (١٥٣/٦) .

منها ؛ حيث يلزم من ذلك كون الكلام الفاصل معترضاً ، ولا يصار إلى ذلك إلا إذا لم يكن للتأويل على وصلها وجه صحيح .

وفي موضع حدّد المخاطب بما يخالف ظاهر السياق : ففي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنِ اللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ وَلَا يُهْدِيَكُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧] : قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم : تأويله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بموسى ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ به ﴿ ثُمَّ ءَامَنُوا ﴾ يعني : النصارى بعبسى ، ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ به ﴿ ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا ﴾ بمحمد ، ﴿ لَّيَكُنِ اللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ وَلَا يُهْدِيَكُمْ سَبِيلًا ﴾ ... وقال آخرون : بل عني بذلك : أهل النفاق أنهم آمنوا ثم ارتدّوا ، ثم آمنوا ثم ارتدّوا ، ثم ازدادوا كفراً بموتهم على كفرهم ... وقال آخرون : بل هم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ، أتوا ذنوباً في كفرهم فتابوا ، فلم تقبل منهم التوبة فيها مع إقامتهم على كفرهم ...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عني بذلك أهل الكتاب الذين أقرّوا بحكم التوراة ، ثم كذبوا بخلافهم إياه ، ثم أقرّ من أقرّ منهم بعبسى والإنجيل ، ثم كذب به بخلافه إياه ، ثم كذب بمحمد -ﷺ- والفرقان ، فزاد بتكذيبه به كفراً على كفره . وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب في تأويل هذه الآية ؛ لأن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين ، أعني قوله : ﴿ يَأْتِيَهُمُ الْبُحْبُوحُ ﴾ [النساء: ١٣٦] ، ولا دلالة تدلّ على أن قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ منقطع معناه من معنى ما قبله ، فإلحاقه بما قبله أولى ، حتى تأتي دلالة دالة على انقطاعه منه .^(١)

ولم يذكر ابن جرير -رحمه الله- سبب نزولٍ فيهم ، وقد أشار الآلوسي^(٢) -رحمه الله- إلى سبب النزول بالتمريض فقال : "روي عن ابن عباس ."^(٣) وهو عند البغوي^(١) -رحمه الله-

(١) جامع البيان (٤/٣٢٦) ، وتحقيق شاکر (٩/٣١٤) .

(٢) هو محمود أفندي بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، نسبة إلى آلوس جزيرة وسط نهر الفرات ، وبغداد موطن أجداده ، ولد سنة سبع عشرة ومائتين وألف ، مفسر محدث أديب بغدادي ، له تفسير روح المعاني وهو أشعري العقيدة وفي تفسيره شيء من التفسير الإشاري للصوفية ، والفوائد السنّية في علم آداب البحث ، وغيرها ، توفي سنة سبعين ومائتين وألف . انظر الأعلام (٧/١٥٣) ، والتفسير والمفسرون (١/٣٥٢) ، والمفسرون بين التأويل الإثبات للمغراوي (٢/٢٤١-٢٤٢) .

(٣) روح المعاني (٤/٢٤٨) .

(١) هو أبو محمد ، الحسين بن مسعود بن محمد الفراء ، نسبة لبيع الفرو ، البغوي نسبة لبلدة بغ وتسمى بغشور بخراسان وهي =

من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ^(١) عن ابن عباس ^(٢) ، وهي أوهى الطرق ، وأضعفها عن ابن عباس ^(٣) .

وهذا القول بدلالة السياق عند ابن جرير موضع خلاف بين المفسرين ، والظاهر في الآية التي قبلها أنها خطاب للمؤمنين كما في غيرها من الآيات ، ثم قوله -تعالى- : ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يدل على أناس بخصوصهم ؛ لأن من عموم أهل الكتاب من أسلم وحسن إسلامه. ^(٤) -والله أعلم - .

وقد كان من آثار قاعدة الاتصال: ترجيح قراءة على أخرى: قال ابن جرير -رحمه الله- :
" ولكتبي أظن أن الذين تأولوا ذلك خيراً عن اليهود ، وجدوا قوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] ^(٥) فوجهوا تأويل ذلك إلى أنه لأهل التوراة ، فقرعوه على وجه الخطاب لهم :
﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فجعلوا ابتداء الآية خيراً عنهم ، إذ كانت خاتمها خطاباً لهم عندهم ، وغير ذلك من التأويل ، والقراءة أشبه بالتنزيل ؛ لما وصفت قبل من أن

نسبة شاذة ، فقيه شافعي محدث مفسر ، له كتاب شرح السنة ، وتفسير معالم التنزيل ، ومصايح السنة ، توفي سنة ست عشرة وخمسمائة ، وقيل عشر وخمسمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٩) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٣٨) ، ووفيات الأعيان (١٣٦/٢) ، والأنساب (١/) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٥٧/١) ، ومقدمة محقق شرح السنة (٢٠/١) .

(١) هو باذام ، ويقال : باذان ، مولى أم هانئ بنت أبي طالب ، تابعي ، روى عن علي ، وابن عباس ، قال ابن معين: ليس به بأس ، وإذا حدث عن الكلبي فليس بشيء . وقال ابن حجر : ضعيف يرسل من الثالثة . انظر تقريب التهذيب (١٢١/١) ، وميزان الاعتدال (٢٩٦/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٧/٥) .

(٢) معالم التنزيل للبخاري (٤٨٩/١) ، تحقيق خالد العك ، ومروان مسوار ، الطبعة الرابعة لدار المعرفة ١٤١٥هـ .

(٣) انظر الإتيان (١٢٣٢/٢) ، تعليق الدكتور مصطفى ديب البغا ، الطبعة الثانية لدار ابن كثير ١٤١٤هـ .

(٤) انظر التحرير والتنوير (٢٣١/٣) لابن عاشور .

(٥) وقراءة ابن كثير وأبي عمرو : بالغائب [الياء] في (يجعلون ، يبديون ، يخفون) ووافقهما ابن محيصن ، واليزيدي ، وأما الباقرن فقرؤوا : بالخطاب [بالتاء في الجميع] ، انظر كتاب السبعة صفحة (٢٦٢) ، والنشر (٢٦٠/٢) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢٢/٢) ، والمهذب في القراءات العشر صفحة (٢١٦) .

قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٩١] في سياق الخبر عن مشركي العرب وعبدة الأوثان ، وهو به متصل ، فالأولى أن يكون ذلك خيراً عنهم .^(١)

فاستدلّ بكون السياق في أول هذه الآية عن المشركين على ترجيح قراءة الياء للغائب العائد عليهم أيضاً ، ولم يرجح القراءة بالخطاب الحاضر لليهود ؛ لأنه يفصل الخطاب ويقطعه عن المشركين ، والأصل اتصال السياق . -والله أعلم- .

(١) جامع البيان (٥/٢٦٤) ، وتحقيق شاکر (١١/٥٢٥) ، وانظر مثله في آل عمران (١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (١١٥) ، جامع البيان (٣/٤٠٢-٤٠٣) .

المطلب الثاني : أدلة اتصال السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري - رحمه الله :-

ذكر ابن جرير - رحمه الله - دلائل تحدد اتصال الكلام ، وتربطه بما قبله وبما بعده ، وهي تختلف في تعداد تكررها ، فمنها ما تكرر وروده وكثر ، ومنها ما قلّ ؛ ولأن أقل الجمع ثلاثة على الصحيح^(١) رتبت ما ورد ثلاث مرات فما فوق تحت الكثير ، وما دون الثلاثة جعلته في القليل :

القسم الأول : ما كثر وروده .

القسم الثاني : ما قل وروده .

القسم الأول : ما كثر وروده :

١- (إذ) في ثلاثين موضعاً .

٢- الضمير في خمسة عشر موضعاً .

٣- الظرف (يوم) في أربعة عشر موضعاً .

٤- (الذين) في ثلاثة عشر موضعاً .

٥- التعليل في عشرة مواضع .

٦- الاستفهام في سبعة مواضع .

٧- العطف في خمسة مواضع .

٨- (ذلك) في خمسة مواضع .

٩- (كذلك) في خمسة مواضع .

١٠- الاستثناء في ثلاثة مواضع .

(١) أقل الجمع ثلاثة عند أكثر المتكلمين ، وذكر ابن برهان : أنه قول الفقهاء قاطبة ، وهو مذهب مالك ، وحكي عن ابن عباس ، ومشايخ المعتزلة ، وقال آخرون : إن أقل الجمع حقيقة الاثنان ، كالاسفراييني ، والباقلاني ، والغزالي ، وابن الماجشون ، والبلخي ، وابن داود الظاهري ، وعلي بن عيسى النحوي ، ونفطويه ، وبعض الخنابلة ، وحكي عن عمر ، وزيد بن ثابت . انظر شرح الكوكب المنير (٣/١٤٤-١٤٥) .

القسم الثاني : ما قل وروده :

- ١- (حتى) في موضعين .
- ٢- (بل) في موضعين .
- ٣- (عند) في موضع .
- ٤- (تلك) في موضع .
- ٥- (أم) في موضع .
- ٦- القسم المعطوف في موضع .
- ٧- (التشبيه) في موضع .
- ٨- الجار والمجرور في موضع .

القسم الأول : ما كثر وروده :

١- (إذ) في ثلاثين موضعاً : فقد كانت (إذ) موصلة للكلام ، ورابطة بين الآيات في سياق

واحد متسق ، ومن هذه المواضع :

أ- ما نصّ فيها - رحمه الله - على كون (إذ) صلة لما قبلها من الكلام .

ب - ذكر الإمام ابن جرير (إذ) وأعادها على ما سبق ، وتكررت في آيات لحقت .

ج- (إذ) رابطة بين الآيات ، ومظهرة للمناسبات .

أ- ما نصّ فيها - رحمه الله - على كون (إذ) صلة لما قبلها من الكلام : عند قوله -تعالى- :

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٤] قال -رحمه الله- : " يعني بذلك : والله ذو سمعٍ لقول امرأة عمران ،

وذو علمٍ بما تضرمه في نفسها ، إذ نذرت له ما في بطنها محرراً . القول في تأويل قوله : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ

عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥] يعني بقوله -جل ثناؤه- :

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴿٣٥﴾﴾ فـ ﴿إِذْ﴾ من صلة ﴿سَمِيعٌ﴾ " (١)

(١) جامع البيان (٣/٢٣٤) ، وتحقيق شاكر (٦/٣٢٨) . وانظر مواضع مثلها في : الأنفال (٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ

لَكُمْ أَنِّي مُبْدئكم بِأَنف مِن الْمَلئِكَةِ مُرَدِفِينَ ﴿١٠﴾﴾ ، جامع البيان (٦/١٨٨) ، والنمل (٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لَأُمَلِكُ إِلَهِي فَأَنْسَأُ نَارًا

ب- ذكر الإمام ابن جرير - رحمه الله - (إذ) وأعادها على ما سبق ، وتكررت في آيات لحقت : ففي تفسير سورة الأنفال : عند قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَتَوَّأَرِكْتُمْ كَثِيرًا لَقِيَائِكُمْ وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣] قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكره- : وإنَّ الله يا محمد سمع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدوك وعدوهم : ﴿ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا ﴾ ."^(١)

ثم قال : في قوله -تعالى- : ﴿ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] : "...فتأويل الكلام : وإنَّ الله لسميعٌ عليهم في هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم أيها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسن ذلك لهم ، وحثهم عليكم..."^(٢)

ثم قال : في قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَدِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩] : " يقول -تعالى- ذكره- : وإنَّ الله لسميعٌ عليهم في هذه الأحوال ، وإذ يقول المنافقون ، وكرَّ بقوله : ﴿ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ على قوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا ﴾ ."^(٣)

ج- (إذ) رابطة بين الآيات ، ومظهرة للمناسبات : فعند تفسير قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَمَّةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] قال - رحمه الله - :

سَاتِيكُمْ مِنهَا بِخَبَرٍ أَوْ مَائِكُمْ بِشَاهِبٍ قَبِيحٍ لَّمَّا كُرْتُمْ تَصَلُّوْنَ ﴿٧﴾ ، جامع البيان (١٠/٤٩٦) ، وسورة ص (٣١) ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْيَتَامَى ﴾ ، جامع البيان (١٠/٥٧٧) ، وفصلت (١٤) ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية جامع البيان (١١/٩٤) ، والفتح (٢٦) ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيْمَةً حَمِيْمَةً لِّلْمُجْرِمِيْنَ ﴾ الآية جامع البيان (١١/٣٦٤) ، والنجم (١٦) ﴿ إِذْ يَتَنَبَّأ السَّيِّدَةُ مَا يَشْنُؤُا ﴾ جامع البيان (١١/٥١٧) .

(١) جامع البيان (٦/٢٥٨) ، وتحقيق شاکر (١٣/٥٦٩) .

(٢) جامع البيان (٦/٢٦٥) ، وتحقيق شاکر (١٤/١١) .

(٣) جامع البيان (٦/٢٦٦) ، وتحقيق شاکر (١٤/١٢) ، والآية من الأنفال (٤٣) .

يقول -تعالى ذكروه- لنبيه محمد - ﷺ - : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١) [الكهف: ٩] حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل ، هرباً بدينهم إلى الله... " (١).

٢- الضمير في خمسة عشر موضعاً : وقد أشار ابن جرير -رحمه الله- إلى كونه رابطاً

(١) جامع البيان (١٨٢/٨) . وانظر بقية المواضع في : البقرة (٣٤) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، جامع البيان (٢٦١/١) ، وآل عمران (٤٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكِ مِنَ النِّسَاءِ إِذْ قَالَتِ اللَّهُمَّ إِنِّي مَرْيَمُ بَرِيئَةٌ مِمَّا يَبْعَثُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ جَاءَكَ رُسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتَتُوبُنَّ يَوْمَ تَلْقَوْنَهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢٨/٣) ، و(١٠٣) ﴿ وَأَقْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٠/٣) ، و(١٢١) ﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، جامع البيان (٤١٤/٣) ، و(١٢٤) ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكُونَكُمْ أَنْبِيَاءٌ كَمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٢١/٣) ، و(١٥٣) ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٧٦/٣) ، والمائدة (١١٠) ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْخُرْ فِي هَذِهِ مَعَهُ إِذْ يَدْعُوكَ إِذْ آتَيْتُكَ إِذْ آتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّدُ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ وَكَهَلَا ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٧/٥) ، والأنعام (٧٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَزِدُّكَ إِيمَانًا وَلَئِنِّي لَأَكْفُرُ بِكَ وَاللَّهُ يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَالنَّاسِ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٣٨/٥) ، والأنفال (١١-١٢) ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (١٩٢/٦) ، ويوسف (٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ، جامع البيان (١٤٨/٧) ، وإبراهيم (٣٥) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَاتًا وَاجْعَلْنِي وَمَنْ عَشِيَ بِنَاصِيَّتِي ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٦٠/٧) ، والأنبياء (٥٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ، جامع البيان (٣٦/٩) ، والسجدة (١٢) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَمَسْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ، جامع البيان (٢٣٦/١٠) ، والأحزاب (٧) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ ابْنَ مَرْيَمَ لِضَعْفِكَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَلْبَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦١/١٠) ، و(١٠) ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَرِثَةٌ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦٥/٩) ، والصفات (٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ، جامع البيان (٥٠٠/١٠) ، وغافر (٤٧) ﴿ وَإِذْ يَتَحَفَّضُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّمَعَتُونَا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ رَبِّمًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٦٨/١١) ، والأحقاف (٢٩) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْعِجْرِ لِيَسْتَعْمِرُوا الْفَرْعَانَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنْصِبْ لَنَا مَاءً ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٩٦/١١) .

وموصولاً للكلام ، ويعمد الإمام إلى إرجاع الضمير إلى ما تقدم حتى يتصل السياق .

ولتوضيح تطبيق ابن جرير لذلك أسوق هذه المثال :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ذُبُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتُهُمَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا ۝٣٣﴾
 ﴿ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَطْعِمِ بَيْنَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝٣٤﴾ وكانت لَهُمُ نَرٌّ فَقَالَ لِيَصْحَبَهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
 وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٥﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٤] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - لِنبيِّه محمد - ﷺ - :
 واضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
 يريدون وجهه ، مثلاً...^(١)"

فأرجع الضمير (هم) إلى من كان السياق متحدناً عنهم ، فربط السياق ، واتصلت المقاطع .

أما إلام يرجع الضمير فأليك الجواب من تطبيقات ابن جرير -رحمه الله- :

أ- الضمير يعود إلى أقرب متقدم أولى من الأبعد : كما في قول الله -تعالى- : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا يَكْفُرِينَ ۝٨١﴾ [الأعام: ٨٩] قال أبو جعفر:
 "يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - : فإن يكفر يا محمد بآيات كتابي الذي أنزلته إليك ، فيجحد هؤلاء
 المشركون العادلون برهم ، ... ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بهؤلاء : فقال بعضهم : عني بهم كفار
 قريش ، وعني بقوله : ﴿ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا يَكْفُرِينَ ۝٨١﴾ الأنصار... وقال آخرون : معنى ذلك : فإن
 يكفر بها أهل مكة ، فقد وكلنا بها الملائكة... وقال آخرون : عني بقوله : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ ۝٨١﴾ يعني :
 قريشاً ، وبقوله : ﴿ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا ۝٨١﴾ الأنبياء الذين سّماهم في الآيات التي مضت قبل هذه الآية..."

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب : قول من قال : عني بقوله :

﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ ۝٨١﴾ كفار قريش ، ﴿ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا يَكْفُرِينَ ۝٨١﴾ يعني به : الأنبياء الثمانية عشر
 الذين سّماهم الله -تعالى- ذِكْرُهُ - في الآيات قبل هذه الآية ، وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم
 مضى ، وفي التي بعدها عنهم ذكر ، فما بينها بأن يكون خبراً عنهم أولى وأحقّ من أن يكون خبراً عن

(١) جامع البيان (١/٢٢٢) . وانظر الطلاق (٦) ﴿ أَتَكْفُرُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نُنَازِلُوهُمْ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْكُمْ ۝١٢﴾ الآية ، جامع
 البيان (١٢/١٣٧) .

غيرهم". (١)

ب- لا يعني القول برجوع الضمير للأقرب بطلان الأبعد لزوماً ، بل قد يكون محتملاً :
 كما في قوله -تعالى- : ﴿ فَأَجِينَنَّهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٥] ، قال
 -رحمه الله- : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ يقول : وجعلنا السفينة التي أبحيناها وأصحابه فيها عبرة وعظة
 للعالمين ، وحجة عليهم... ولو قيل : معنى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وجعلنا عقوبتنا إياهم آية
 للعالمين ، وجعل الهاء والألف في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ كناية عن العقوبة أو السخط ونحو ذلك ، إذ كان
 قد تقدم ذلك في قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤] كان وجهاً من التأويل . (٢)
 ج- وإذا لم يرجع بضمير في الكلام إلى مقدم فهو دليل انقطاع : ففي قوله -تعالى- :
 ﴿ وَإِذْ جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَن عَجَلْتَ مِنْكُمْ سَوْءَ الْجَهْلَةِ
 ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَصْلَحَ فَاغْفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في
 الذين عنى الله - تعالى ذِكْرُهُ - بهذه الآية : فقال بعضهم : عنى بها : الذين هوى الله نبيّه عن
 طردهم... وقال آخرون : عنى بها قوماً استفتوا النبيّ - ﷺ - في ذنوب أصابوها عظام ، فلم يؤيسهم
 الله من التوبة... وقال آخرون : بل عنى بها قوم من المؤمنين كانوا أشاروا على النبيّ - ﷺ - بطرد القوم
 الذين نهاه الله عن طردهم ، فكان ذلك منهم خطيئة ، فغفرها الله لهم وعفا عنهم ، وأمر نبيّه - ﷺ -
 إذا أتوه أن يبشرهم بأن قد غفر لهم خطيئتهم التي سلفت منهم ، بمشورتهم على النبيّ - ﷺ - بطرد
 القوم الذين أشاروا عليه بطردهم...
 قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية : قول من قال : المعنيون بقوله :

(١) جامع البيان (٥/٢٥٩-٢٦١) ، وتحقيق شاكر (١١/٥١٥) . وانظر أمثلة أخرى في البقرة (١٧٠) ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ آبَاءُؤُهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٢/٨٣) ، ويوسف (١١١) ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي
 قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣٢٥) ، ولقمان (٦) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن
 سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عَلَيْهِمْ وَتَخَذَهَا هُزُوًا ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/٢٠٥) .
 (٢) جامع البيان (١٠/١٢٨) .

﴿وَلِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ غير الذين نهي الله النبي ﷺ - عن طردهم ؛ لأن قوله : ﴿وَلِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ خبر مستأنف بعد تقضي الخبر عن الذين نهي الله نبيه ﷺ - عن طردهم ، ولو كانوا هم لقبل : وإذا جاءوك فقل سلام عليكم ، وفي ابتداء الله الخبر عن قصة هؤلاء وتركه وصل الكلام بالخبر عن الأولين ما ينبئ عن أنهم غيرهم .^(١)

د- وإذا تقدم أن الضمير رابطٌ وموصلٌ للكلام ، وأن عوده إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد ، فإن ثمة قواعد تتعلق بالضمير ، ظهرت من خلال دراستي موضوع السياق في تفسير شيخ المفسرين ، يحسن عرضها هنا إتماماً للفائدة : وهي :

- الأصل ألا يقال بمرجع ضمير لمعين لم يتقدم ذكره : فعند قوله -تعالى- : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنٌّ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرِئُونَ وَمَا يَعْطُونَ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] قال -رحمه الله- : " اختلف القراءة في قراءة قوله : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ فقرأته عامة قراءة الأمصار : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ على تقدير يفعلون من «ثبت» ، والصدور منصوبة^(٢) ، واختلف قارئو ذلك كذلك في تأويله ، فقال بعضهم : ذلك كان من فعل بعض المنافقين ، كان إذا مر برسول الله ﷺ - غطى وجهه وثني ظهره... وقال آخرون : بل كانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله ، وظناً أن الله يخفى عليه ما تضره صدورهم إذا فعلوا ذلك... وقال آخرون : إنما كانوا يفعلون ذلك ؛ لئلا يسمعوا كتاب الله... وقال آخرون : إنما هذا إخبار من الله نبيه ﷺ - عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء ، ويبدون له المحبة والمودة ، وأهم معه وعلى دينه . يقول -جل ثناؤه- : ألا إنهم يطمون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله ، ثم أخبر -جل ثناؤه- أنه لا يخفى عليه سرائرهم وعلايتهم . وقال آخرون : كانوا يفعلون ذلك إذا ناجى بعضهم بعضاً... ورؤي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾...^(٣)

(١) جامع البيان (٢٠٦/٥) ، وتحقيق شاكر (٣٩٠/١١) .

(٢) وهي القراءة المتواترة لجميع القراء .

(٣) قراءة شاذة . انظر المحتسب في توجيه القراءات الشاذة (٣١٨/١) لابن جني .

قال أبو جعفر : والصواب من القراءة في ذلك عندنا : ما عليه قراءة الأمصار ، وهو : ﴿الْآيَاتِهِمْ يَتَوَنَّنُ صُدُورُهُمْ﴾ على مثال «يفعلون» ، والصدور نصب ، بمعنى : يحنون صدورهم ويكتونها... قال أبو جعفر : فإذا كانت القراءة التي ذكرنا أولى القراءتين في ذلك بالصواب لإجماع الحجة من القراءة عليها ؛ فأولى التأويلات بتأويل ذلك: تأويل من قال : إنهم كانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله أنه يخفى عليه ما تضمنه نفوسهم أو تناجوه بينهم ، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالآية ؛ لأن قوله : ﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾ بمعنى : ليستخفوا من الله ، وأن الهاء في قوله : ﴿مِنْهُ﴾ عائدة على اسم الله ، ولم يجر لمحمد ذكر قبل ، فيجعل من ذكره - ﷺ - ، وهي في سياق الخبر عن الله ؛ فإذا كان ذلك كذلك ، كانت بأن تكون من ذكر الله أولى... " (١)

وقد يحدد مرجع الضمير ببعيد : ففي قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ لَنزِيلِ رَبِّ الْمَلَائِكِ (١٣١) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٣٢) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٣٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى ذكروه - : وإن هذا القرآن ﴿لَنزِيلِ رَبِّ الْمَلَائِكِ﴾ والهاء في قوله : ﴿وَلَقَدْ﴾ كناية الذكر الذي في قوله : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الشعراء: ٥] " (٢)

وقد يرجع الضمير لغير متقدم : كما في قوله - تعالى - : ﴿لَتُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٤) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٥) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ - ٣٥] (٣) قال في قوله - تعالى - : ﴿لَتُرِيدَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ " يقول : لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين ، ﴿مُسَوِّمَةً﴾ يعني : معلمة... عند ربك يا إبراهيم ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني : للمتعديين حدود الله ، الكافرين به من قوم لوط ، ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول - تعالى ذكروه - : فأخرجنا من كان في قرية سدوم - قرية قوم لوط - (٤) من أهل

(١) جامع البيان (٦/٦٢٧) ، وتحقيق شاكر (١٥/٢٣٣) . وانظر مثله في النحل (٦٩) ﴿يُنْمِئُ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ فَاسْئَلُكَ رَبِّي﴾

ذُلًّا ﴿الآية جامع البيان (٧/٦١٤) .

(٢) جامع البيان (٩/٤٧٥) ، والآية من أول الشعراء (٥) .

(٣) الذاريات (٣٣-٣٥) .

(٤) سدوم قرية من قرى قوم لوط ، وهي (سرمين) من أعمال حلب ، معروفة عامرة . انظر معجم البلدان لياقوت

الإيمان بالله ، وهم لوط وابنتاه ، وكنى عن القرية بقوله : ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ ولم يجر لها ذلك قبل ذلك^(١) وقد يعود الضمير لغير سابق لظهوره : كما في تفسير قوله -تعالى- : ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنَ الْمُعَمَّرِ وَلَا يَنْقُصُ مِنَ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم : معناه : وما يعمر من معمر فيطول عمره ، ولا ينقص من عمر آخر غيره عن عمر هذا الذي عمّر عمراً طويلاً ، إلا في كتابٍ عنده مكتوب قبل أن تحمل به أمه ، وقبل أن تضعه ، قد أحصى ذلك كله ، وعلمه قبل أن يخلقه ، لا يُزاد فيما كتب له ولا ينقص... فالهاء التي في قوله : ﴿وَمَا يَنْقُصُ مِنَ عُمرِهِ﴾ على هذا التأويل ، وإن كانت في الظاهر أنها كناية عن اسم المعمر الأول ، فهي كناية اسم آخر غيره ، وإنما حسُن ذلك ؛ لأن صاحبها لو أظهر لظهر بلفظ الأول ، وذلك كقولهم : عندي ثوب ونصفه ، والمعنى : ونصف الآخر . وقال آخرون : بل معنى ذلك : وما يُعمّر من معمر ولا ينقص من عمره بفناء ما فني من أيام حياته ، فذلك هو نقصان عمره . والهاء على هذا التأويل للمعمر الأول ؛ لأن معنى الكلام : ما يطوّل عمر أحد ، ولا يذهب من عمره شيء فيُنقَص ، إلا وهو في كتاب عبد الله مكتوب ، قد أحصاه وعلمه... "

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب : التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنزيل ."^(٢)

هـ- ومن المواضع التي خرجت عن إرجاع الضمير لمتقدم -فيما يظهر- حيث كان في مرجع الضمير -على ما ذكره الإمام- انقطاع في السياق ، أو عوده على بعض السابق دون أن يرجع إليه كله ما يلي :

تفسيره لقوله -تعالى- : ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ. وَوَهَبْنَا لَهُ. يَحْيَىٰ وَأَمْلَحْنَا لَهُ. زَوْجَةً لَهُمْ

(٢٠٠/٣) .

(١) جامع البيان (١١/٤٦٦) .

(٢) جامع البيان (١٠/٤٠٠-٤٠١) .

كَانُوا يُسْتَرْعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبِّمَا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَدِيعِينَ ﴿٥٧﴾ [الأنبياء: ٩٠] حيث قال في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَرْعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ "يقول الله: إن الذين سئناهم يعني: زكريا وزوجه ويحيى، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما يقرّبهم إلينا..."^(١) فهل إرجاعه إلى القريب فقط؟ أم يشمل كل الأنبياء؟ وهذه هي سورة الأنبياء، وقد وافق ابن جرير في إرجاع الضمير إلى النبيين الكريمين المذكورين في الآية: الرازي وابن كثير^(٢)، وخالفهم: أبو السعود^(٣)، وصاحبا تفسير الجلالين^(٤)، وذكر القولين مع تقديم جملة الأنبياء: القرطبي^(٥)، والشوكاني^(٦)، والآلوسي^(٧). -رحم الله الجميع-.

وتفسيره لقوله -تعالى-: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكُونَ ﴿٥٨﴾ لَمْ يَمَسَّ فِيهَا فَتَكُهُمْ وَهُمْ تَمَّا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّي تَرْجِيهِ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٦ - ٥٨] حيث قال -رحمه الله-: "يعني

(١) جامع البيان (٩/٧٩-٨٠).

(٢) انظر مفاتيح الغيب (جزء ٢٢/٢١٨)، وتفسير القرآن العظيم (٣/١٨٨).

(٣) في إرشاد العقل السليم (٣/٧٢٤)، وأبو السعود هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، ولد في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة، تولى القضاء، وله تفسير إرشاد العقل السليم، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة. انظر شذرات الذهب (٨/٣٩٨)، والأعلام (٧/٢٨٨).

(٤) انظر تفسير الجلالين صفحة (٢٩٢).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن (جزء ١١/٢٢٢)، والقرطبي هو: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي المفسر، ولد سنة سبع وعشرين وستمائة، قال الذهبي: له تصانيف مفيدة... وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان أهـ، توفي بمصر سنة إحدى وسبعين وستمائة. انظر نفح الطيب (٢/٢١٠)، والديباج المذهب (٢/٣٠٨)، وشذرات الذهب (٥/٣٣٥)، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٧٩)، وطبقات الداوودي (٢/٩٥)، والأعلام (٦/٢١٧).

(٦) انظر فتح القدير (٣/٤٢٥)، والشوكاني هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعائي، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، في بلدة هجرة شوكان، من مصنفاة نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين، وهما مطبوعان، توفي سنة خمسين ومائتين وألف. انظر الأعلام (٧/١٩٠)، ومقدمة ناشر فتح القدير (١/٧٤).

(٧) انظر روح المعاني (١٧/١٣٠).

-تعالى-بقوله: ﴿هُم﴾ أصحاب الجنة ﴿هُم﴾ من أهل الجنة في الجنة. (١)
 فهل يمتنع وصلها بقوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ [يس: ٥٥]؟ وقد
 فسر بعض السلف التفكّه: بأنواع من اللذات، وفسر الرازي: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ على أنها:
 مستأنفة؛ لبيان كمال اللذة والتنعم، فإن مما ينغص اللذة: التفكير في حال من يهيم أمره،
 فأخبر الله -عز وجل- أنهم وأزواجهم سواء، فكملت اللذة (٢)، وأشار الشوكاني
 والآلوسي وأبو السعود إلى ذلك (٣).

٣- الظرف (يوم) في خمسة عشر موضعاً: وقد ذكر أنه تفسيراً عند قوله -تعالى-:
 ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الطائفين: ٦] قال -رحمه الله-: في ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ تفسير عن اليوم
 الأوّل المخفوض، ولكنه لما لم يُعد عليه اللام ردّ إلى مبعوثون، فكأنه قال: ألا يظنّ أولئك
 أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس؟... (٤)

وفي قوله -تعالى-:
 ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [التوبة: ٣٥] قال أبو جعفر:
 يقول -تعالى- ذكّره-: فبشر هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا يخرجون حقوق
 الله منها، يا محمد: ﴿يَعَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [٣٥] يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ [التوبة: ٣٤ - ٣٥] فاليوم
 من صلة العذاب الأليم، كأنه قيل: يبشّرهم بعذاب أليم يعذبهم الله به في يوم يحمى
 عليها" (٥).

(١) جامع البيان (٤٥٤/١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (جزء ٩٢/٢٦) طبع دار الفكر.

(٣) انظر فتح القدير (٣٧٦/٤)، وروح المعاني (٥١/٢٣)، وإرشاد العقل السليم (٥١١/٤).

(٤) جامع البيان (٤٨٤/١٢). وانظر مثله في طه (١٠٢) ﴿يَوْمَ يُفْعَفُ فِي الصُّورِ وَتَحْتَهُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [١٣٢]، جامع البيان
 (٤٥٥/٨).

(٥) جامع البيان (٣٦٢/٦)، وتحقيق شاكر (٢٢٩/١٤). وانظر بقية مواضع (يوم) التي أشير فيها أنها صلة: في الأنبياء

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَكَلِي السِّجِّيلِ لِلْعَذَابِ﴾ الآية، جامع البيان (٩٤/٩)، والنور (٢٤) ﴿يَوْمَ نَسْتَهْدِ عَلَيْهِمُ النَّسْتُمْ﴾

ومثله : (يومئذ) : في قوله -تعالى- : ﴿يَوْمَذِيْقَوْمِ اللهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥] قال : " يقول -تعالى- ذكره - : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ^(١) يوفيهم الله حسابهم جزاءهم الحق على أعمالهم. " ^(٢)

٤ - (الذين) في ثلاثة عشر موضعاً: وقد نصّ إمام المفسرين على كونها موصولة الكلام بعضه ببعض، وعلى أنها ترجمة وتفسير لما قبلها، ومن ذلك قوله -تعالى- : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤] قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكره - : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤] ويأكلها أيضاً معهم ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] يقول : بشر الكثير من الأخبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، بعذاب

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ الآية ، جامع البيان (٢٩٢/٩) ، وسورة ق (٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٤٢٥/١١) ، والطور (٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٦١﴾﴾ جامع البيان (٤٨٤/١١) ، والمجادلة (١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ ﴿١٨﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٢٤/١٢) ، وكذلك ما أشار إلى اتصاله بيوم تفسيراً : كما في المائة (١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴿١٠٩﴾﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٥/٥) ، والنحل (١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلَةٌ بِمَا كَانَتْ تَفْسَعُ ﴿١١١﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٦٥٤/٧) ، والإسراء (٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَعْوَى ﴿٥٢﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٩٢/٨) ، والعنكبوت (٥٥) ﴿يَوْمَ يَفْسَقُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ مِمَّا يَفْعَلُ ﴿٥٥﴾﴾ الآية ، جامع البيان (١٥٥/١٠) ، والأحزاب (٦٦) ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ مِن وَّجْهِهِمْ فِي النَّارِ ﴿٦٦﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٣٣٥/١٠) ، والدخان (١٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجوهُ وَالسَّوْدُ ﴿١٦﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٢٣٠/١١) ، والمزمل (١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مُّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ الآية ، جامع البيان (٢٨٩/١٢) .

(١) النور (٢٤) .

(٢) جامع البيان (٣٩٢/٩) .

أليم لهم يوم القيامة موجع من الله . " (١)

وعند تفسير قوله -تعالى-: ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [الماعون: ٦] (٢) قال: " يقول: الذين هم يراءون الناس بصلاتهم إذا صلّوا؛ لأنهم لا يصلّون رغبةً في ثواب، ولا رهبةً من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنّونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسبّي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام. " (٣)

فجعل الكلام متصلاً بالمصلين في الآيات الماضية. (٤)

٥- التعليل في عشرة مواضع: والتعليل إما بحرف (اللام): كما في قوله عز وجل: ﴿ يَدْخُلُ النَّوْمِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ

(١) جامع البيان (٣٥٧/٦)، وتحقيق شاکر (٢١٧/١٤).

(٢) الماعون (٦).

(٣) جامع البيان (٧٠٨/١٢)، وهذا يدل على أن آخر سورة الماعون مدنية. انظر التحرير والتنوير (جزء ٥٦٣/٣٠).

(٤) وانظر بقية مواضع (الذين) في: آل عمران (١٧٢) ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ الآية، جامع البيان (٥١٨/٣)، و(١٧٣) ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَبِعَمِّ الْوَكِيلِ ﴾ جامع البيان (٥٢٠/٣)، والأنعام (١٢) ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ الآية، جامع البيان (١٥٧/٥)، والأنفال (٥٦) ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْفِقُونَ ﴾ الآية، جامع البيان (٢٧٠/٦)، وهود (١٩) ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ الآية، جامع البيان (٢٣/٧)، والرعد (٢٨) ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية، جامع البيان (٣٧٩/٧)، والكهف (١٠١) ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ الآية، جامع البيان (٢٩١/٨)، والحج (٤٠) ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ حَتَّىٰ إِذَا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ الآية، جامع البيان (١٦٢/٩)، وغافر (٣٥) ﴿ الَّذِينَ يَجْتَدِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٥٩/١١)، والشورى (٣٧-٣٨) ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَدِبُونَ كَبِيرَ إِلِيمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَقْفرون ﴾ الآية، جامع البيان (١٥٤/١١)، والزخرف (٦٩) ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ الآية، جامع البيان (٢٠٩/١١).

الله فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ [الفتح: ٥] حيث قال أبو جعفر: " وقوله: ﴿يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ على اللام من قوله: ﴿يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ [الفتح: ٢] بتأويل تكرير الكلام ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ ﴾ [الفتح: ١ - ٢] ، إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ؛ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل في الكلام للعطف ، فلم يقل : وليدخل المؤمنين " (١)

فاللام إذا كانت بدون عاطف ، دليل على أن الكلام مرتبط بالسابق ، ومتصل معناه بمعنى ما قبله .

وفي قوله -تعالى- : ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا عَلَیِّینَ﴾ ﴿١١٧﴾ [آل عمران: ١٢٧] قال أبو جعفر : " يعني بذلك -جل ثناؤه- : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ؛ ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ " (٢)

وهكذا ربط بين الجمل بلام التعليل ، مع وجود فاصل من الكلام .

وقد يكون الرابط تعليلًا بحرف (إن) المخففة : فعند قوله -تعالى- : ﴿إِن يَدْعُواكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِن يَدْعُواكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾ [النساء: ١١٧] قال -رحمه الله- في تأويل الآية : "...ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نولّه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً ، ﴿إِن يَدْعُواكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا﴾ ، يقول : ما

(١) جامع البيان (١١/٣٣٦) .

(٢) جامع البيان (٣/٤٣٠) ، وتحقيق شاکر (٧/١٩٢) . وانظر مواضع أخرى للام في : النحل (٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٥٨٤) و(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٦٠٠) ، والروم (٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/٦٨٦) ، والحشر (٨) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢/٣٨١-٣٩) ، والمعارج (٢٤-٢٥) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حُمٌّ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿١٤﴾ الآيتين ، جامع البيان (١٢/٢٣٥) .

يدعو الذين يشاققون الرسول ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين شيئاً من دون الله بعد الله وسواه ، ﴿إِلَّا إِنَّمَا﴾ ، يعني : إلا ما سَمَّوه بأسماء الإناث ، كالكلمات ، والعزى ، وما أشبه ذلك .^(١)

أو يكون بحرف (إن) المشددة : كما في قوله -تعالى- : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] قال ابن جرير : "يقول-تعالى ذكره-: لا تستكبر أيها المستمع المنصت للقرآن عن عبادة ربك ، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعاً وخيفةً ، ودون الجهر من القول ، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع وذلك هو العبادة ."^(٢)

٦- الاستفهام في سبعة مواضع : ومنها : في قوله -تعالى- : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا نَفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥] قال أبو جعفر : "والخير الذي قال -جل ثناؤه- في قوله : ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ هو المال الذي سأل رسول الله - ﷺ - أصحابه من النفقة منه ، فأجابهم الله عنه بما أجاهم به في هذه الآية ."^(٣)

فالاستفهام وجوابه متصل بعضه ببعض ، ومتطابق مرجع كل منهما على الآخر ، فكل جوابٍ مقابلٌ للسؤال^(٤).

(١) جامع البيان (٤/٢٨٠) ، وتحقيق شاکر (٩/٢١١) .

(٢) جامع البيان (٦/١٦٧) ، وتحقيق شاکر (١٣/٣٥٧) . وقد يحتمل الاتصال والانقطاع ، كما في يوسف (٥٠) ﴿وَقَالَ لِلَّذِي

اتَّبَعْتَهُ بِرَبِّكَ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَنْجِعْ لِي رَبِّكَ فَسَلِّ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٢٣٣) .

(٣) جامع البيان (٢/٣٥٥) ، وتحقيق شاکر (٤/٢٩٢) . وانظر مثله في : آل عمران (١٦٢) ﴿أَفَمَنْ أَتَمَّعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَهُ

يَسْحَطُ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية ، (٣/٥٠٤) ، وانظر بقية المواضع في الاستفهام في : الإسراء (٦٨) ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ

يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الآية جامع البيان (٨/١١٣) ، والسجدة (١٠-١١) ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا

فِي الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَنَا خَلْقٌ حَبِيبٌ﴾ ، جامع البيان (١٠/٢٣٦) ، وسورة (ق) (٦) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا

وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ، جامع البيان (١١/٤٠٩) .

(٤) انظر الإتيان (٢/٦٢٦) .

٧- العطف في خمسة مواضع : العطف يربط بين الآيات ويصلها بموضوع واحد

ويبين المعنى المراد ، كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِنْ جَادَلْكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) اللَّهُ بِحِكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْعِقَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٧﴾ [الحج: ٦٨ - ٦٩] حيث قال : " يقول -تعالى- ذَكَرَهُ -لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - : وَإِنْ جَادَلْكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ لَأَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ بِاللَّهِ فِي نَسْكَكَ ، فَقُلِ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ وَنَعْمَلُ . " (١)

فالجدال الوارد في سياق الآيات هو ما كان في سورة الحج ، وبالأخص في أمر النسك ، الوارد في قوله -تعالى-: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبْتَدِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٧) [الحج: ٦٧] .

وكذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا مِنَّمَا جَعَلْنَاهُمْ أَوْلَادًا لِلدُّنْيَا لِيَلْزَمَهُمْ شَرُّ الْبِرِّ ﴾ (٥) وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [الفصل: ٥ - ٦] قال -رحمه الله- : " قوله : ﴿ وَرِيدُ ﴾ عطفٌ على قوله : ﴿ اسْتَضَعُّوا ﴾ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴿٤﴾ ومعنى الكلام : أن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها من بني إسرائيل فرقةً ، يستضعف طائفة منهم ، ونحن نريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَّفَهُمْ فرعون من بني إسرائيل ، وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً . " (٢)

وإرادة الله - تعالى - هي النافذة ، وأما ما يريد فرعون ويقصد - من العلو في الأرض واستعباد بني إسرائيل - فلن يدوم .

٨- (ذلك) في خمسة مواضع : ومنها قوله -سبحانه-: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧٠) [الحج: ٧٠] فقد ذكر في الآية اسم

(١) جامع البيان (١٨٦/٩) .

(٢) جامع البيان (٢٨/١٠) . وانظر المواضع الأخرى في العطف : البقرة (٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمِنَّا ﴾ الآية ، جامع

البيان (٤١٢/١) ، والأعراف (٢٠٥) ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ الآية ، جامع البيان (١٦٥/٦) ، والحاشية

(٣٢) ﴿ وَإِنَّا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلِمَ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦٨/١١) .

الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ وأعيد مرتين :

الموضع الأول : في قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ قال -رحمه الله- : "يقول -تعالى ذِكْرُهُ - : ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كل ما في السماوات السبع والأرضين السبع؟ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة ، على علم منه بجميع ما عملوه في الدنيا ، فمجازي المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته . ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُهُ - : إن علمه بذلك في كتاب ، وهو أم الكتاب الذي كتب فيه ربنا -جل ثناؤه- قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة . ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ... وكان ابن جرير يقول في قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ ... قوله : ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩] .

وإنما اخترنا القول الذي قلنا في ذلك ؛ لأن قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إلى قوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أقرب منه إلى قوله : ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فكان إلحاق ذلك بما هو أقرب إليه أولى منه بما بعد. ^(١)

الموضع الثاني : في قوله -عز وجل- : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قال -رحمه الله- : "اختلف في ذلك ، فقال بعضهم : معناه : إن الحكم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على الله يسير..."

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أن كتاب القلم الذي أمره الله أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يعني : هين .

وهذا القول الثاني أولى بتأويل ذلك ، وذلك أن قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ... إلى قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أقرب ، وهو له مجاور ، ومن قوله : ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ متباعدٌ مع دخول قوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ

(١) جامع البيان (٩/١٨٧) .

وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ بينهما ، فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وجد للكلام ، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح . " (١)

فكلا الموضعين فيهما ربط بين الجمل ، وقد ذكر المفسرون في الموضع الثاني : احتمال عود اسم الإشارة إلى الآية الماضية ، وهي قوله -تعالى- : ﴿اللَّهُ يَخْتَلِفُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فاسم الإشارة يعود إلى حكم الله بين المختلفين يوم القيامة ، والقول الآخر : أن يرجع اسم الإشارة إلى أقرب مذكور ، وهو علم الله - عز وجل - في قوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

وقد ذكر القرطبي ، والشوكاني -رحمهما الله- القولين بلا ترجيح (٢) ، وذكر ابن كثير ، والرازي -رحمهما الله- القول الذي رجحه ابن جرير (٣) ، وعمم الألوسي -رحمه الله-، عوده إلى العلم ، والكتابة ، والحكم ، وأن ذلك أولى من التخصيص (٤) ، وفي تفسير الجلالين قال : " علم ما ذكر " (٥) .

٩- (كذلك) في خمسة مواضع : فهي تدل على اتصال الكلام وارتباطه بما قبله ، كما في قوله -تعالى- لإبراهيم : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذكْرُهُ -: جزينا نوحاً بصبره على ما امتحن به فينا بأن هديناه فوقفناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه ، وهدينا من

(١) جامع البيان (١٨٦/٩-١٨٧) . وانظر الباقي في : النحل (١٠٧) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧٧) جامع البيان (٦٥٢/٧) ، والشورى (١٥) ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَصَاتِكَ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية ، جامع البيان (١٣٧/١١) ، والحشر (٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية ، جامع البيان (٣١/١٢) .
 (٢) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٩٥/١٢) طبع دار إحياء التراث العربي ، وفتح القدير (٤٦٨/٣) .
 (٣) تفسير القرآن العظيم (٢٢٧/٣) ، ومفاتيح الغيب (جزء ٦٧/٢٣) طبع دار الفكر ١٤١٠هـ .
 (٤) روح المعاني (٢٩٣/١٠) .
 (٥) تفسير الجلالين صفحة (١٠١) .

ذريته من بعده من ذكر - تعالى ذكره - من أنبيائه لمثل الذي هديناه له ، وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن .^(١)

١٠ - الاستثناء في ثلاثة مواضع : فهو يدل على اتصاله بالمستثنى منه : كما في

قوله - سبحانه - : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤] قال - رحمه الله - : "يقول - تعالى - ذكره - : وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، إلا من عهد الذين عاهدتكم من المشركين أيها المؤمنون ... " ^(٢)

القسم الثاني : ما قل وروده :

١ - (حتى) في موضعين : كما في قوله - تعالى - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتُحَىٰ مِنْ نَشَأِهِمْ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠] ^(٣) قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى - ذكره - : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ، فدعوا من أرسلنا إليهم فكذبوهم ، وردوا ما أتوا به من عند الله ، حتى إذا استيسأ

(١) جامع البيان (٢٥٧/٥) ، وتحقيق شاکر (٥٠٨/١١) . وانظر بقية المواضع في : الأنعام (٧٥) ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَكُونَتِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ جامع البيان (٢٤١/٥) ، ويوسف (٦) ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُحْمًا وَأَنْتَ لَمَّا كُنَّا فِيهَا مُخْتَلِفِينَ رَافِعِينَ وَمَنْعًا مِنْهُ لِئَلَّا يَصْطَبِيكُم مِّنَ السَّمَاءِ كَمَا صَبَّأَهُ لَوْلِيَّاءُ لِيُرِيَهُمْ آيَاتِنَا إِنَّهُ خَلَقَ لِيُظَاهِرَ فِي مَا يَخْتَارُ وَإِن تَبَايَعْتُمْ إِنَّمَا تَبَايَعْتُمْ بَيْنَكُمْ وَمَا يَحْتَكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية جامع البيان (٢٠٤/٨) ، والشورى (٥٢) ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ الآية جامع البيان (١٦٢/١١) - (١٦٣) .

(٢) جامع البيان (٣١٨/٦) ، وتحقيق شاکر (١٣٢/١٤) . وانظر مثله في الفرقان (٥٦-٥٧) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿ الآيتين جامع البيان (٤٠٢/٩) ، والأحزاب (٥٥) ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي عَابَتِهِمْ وَلَا أَنْبَاءِهِمْ وَلَا إِنْخِرَابِهِمْ وَلَا أَنْبَاءَ إِنْخِرَابِهِمْ وَلَا أَنْبَاءَ أَخْرَابِهِمْ وَلَا يَسْأَلُهُمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٣٢٧/١٠-٣٢٨) ، وقد يحتمل الاستثناء الوصل أو الانقطاع كما في النمل (١١) ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُورٍ فَأَنَّىٰ عُفُوٌّ رَّبِّهِمْ ﴾ ﴿ جامع البيان (٤٩٩/٩-٥٠٠) . (٣) يوسف (١١٠) .

الرسول الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله ، ويصدقوهم فيما أتوهم به من عند الله ، وظنّ الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبة أن الرسل الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم ، جاءهم نصرنا . " (١)

٢- (بل) في موضعين ، كما في قوله -تعالى- : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩] قال -رحمه الله-: " يقول -تعالى- ذكره -: ما ذلك كذلك ، ولا أشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله الآلهة والأوثان ؛ لأن لهم شركاً فيما رزقهم الله من ملك أيانهم ، فهم وعبيدهم فيه سواء ، يخافون أن يقاسموهم ما هم شركاؤهم فيه ، فرضوا لله من أجل ذلك بما رضوا به لأنفسهم ، فأشركوهم في عبادته ، ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله اتبعوا أهواءهم ، جهلاً منهم لحقّ الله عليهم ، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته... " (٢)

٣- (عند) في موضع ، يقول -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣ - ١٤] قال أبو جعفر : " وقوله : ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ يقول -تعالى- ذكره -: ولقد رآه عند سدرة المنتهى ، فـ ﴿عِنْدَ﴾ من صلة قوله : ﴿رَآهُ﴾... " (٣)

٤- (تلك) في موضع ، وهو قوله -تعالى- : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣] (٤) حيث قال : "يعني -تعالى- ذكره- بقوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين : أيّ الفريقين أحقّ

(١) جامع البيان (٣١٦/٧) ، وتحقيق شاكر (٢٩٦/١٦) . وانظر الثاني في المؤمنون (٦٤-٦٥) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعِدَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١٤﴾﴾ الآيتين جامع البيان (٢٢٨/٩) .

(٢) جامع البيان (١٨٢/١٠) . وانظر مثله في سورة ص (١-٢) ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ الآيتين جامع البيان (٥٤٦/١٠-٥٤٧) .

(٣) جامع البيان (٥١٤/١١) .

(٤) الأنعام (٨٣) .

بالأمن ؟ ، أمن يعبد رباً واحداً ، مخلصاً له الدين والعبادة ؟ ، أم من يعبد أرباباً كثيرة ؟ . وإجابتهم إياه بقولهم : بل من يعبد رباً واحداً أحق بالأمن ، وقضاؤهم له على أنفسهم ، فكان في ذلك قطع عذرهم ، وانقطاع حجتهم ، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم ، فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه .^(١)

٥- (أم) في موضع ، وهو : قوله -سبحانه- : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣] قال أبو جعفر : " يعني -تعالى ذكْرُه - بقوله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أكنتم ؛ ولكنه استفهم بـ ﴿ أَمْ ﴾ إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه ، كما قيل : ﴿ التَّوْرَةَ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ مِيسَاكِينٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا نَزَّلْنَاهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَهُمْ رَافِقُونَ ﴿١٠١﴾ [سورة القصص: ١٠١] ، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه ، تستفهم فيه بـ «أم»... »

قال أبو جعفر : وتأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنصارى ، المكذّبين محمد - ﷺ - الجاحدين نبوته ، حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ؟ ، أي : أنكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل ، وتنحلّوهم اليهودية والنصرانية ، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم ، وولده إسحاق وإسماعيل ، وذريّتهم بالحنيفة المسلمة ، وبذلك وصوا بنبيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم ، فلو حضرتهم فسمعتم منهم علمتم أنهم على غير ما تنحلّوهم من الأديان والملل من بعدهم . وهذه آيات نزلت تكذيباً من الله - تعالى - لليهود والنصارى ، في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملّتهم ، فقال لهم في هذه الآية : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ فتعلموا ما قال لولده ، وقال

(١) جامع البيان (٢٥٥/٥) ، وتحقيق شاكر (٥٠٤/١١) ولا دليل على أنهم قالوا هذا ، وقد بين -رحمه الله- أن جملة ﴿ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢] ، من كلام الله -تعالى- ، وهذا نقض

لما سبق من كلامه -رحمه الله- ، وانظر تعليق شاكر (٥٠٤/١١) .

له ولده ، ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له . " (١)

٦- المقسم به المعطوف في موضع ، عند قوله -تعالى- : ﴿وَالصَّغِيرَاتُ صَغُرْنَ﴾ فَالْتَجِرَاتُ ﴿٢﴾ فَالْتَلَيَاتُ ذِكْرًا ﴿٣﴾ [الصفات: ١ - ٣] قال -رحمه الله- : " واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَالْتَجِرَاتُ﴾ فقال بعضهم : [كمجاهد] هي الملائكة ، تزجر السحاب تسوقه... وقال آخرون : بل ذلك آي القرآن التي زجر الله بها عما زجر بها عنه في القرآن... والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا : ما قال مجاهد ، ومن قال : هم الملائكة ؛ لأن الله -تعالى- ذكّرهُ - ابتداءً القسم بنوع من الملائكة ، وهم الصافون ، بإجماع من أهل التأويل ، فلأن يكون الذي بعده قسماً بسائر أصنافهم أشبه . " (٢)

٧- التشبيه في موضع ، في قوله -تعالى- : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبًّا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُوْنَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٥ - ٦] قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه الكاف التي في قوله : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ وما الذي شبه بإخراج الله نبيه - ﷺ - من بيته بالحق ، فقال بعضهم : شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربه ، وإصلاحهم ذات بينهم ، وطاعتهم الله ورسوله ، وقالوا : معنى ذلك : يقول الله : وأصلحوا ذات بينكم ، فإن ذلك خير لكم ، كما أخرج الله محمداً - ﷺ - من بيته بالحق فكان خيراً له... وقال آخرون : معنى ذلك : كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم يكرهون القتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم... واختلف أهل العربية في ذلك ، فقال بعض نحويي الكوفيين: ذلك أمر من الله لرسوله - ﷺ - أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وقال آخرون منهم : معنى ذلك : يسألونك عن الأنفال مجادلةً ، كما جادلوك يوم بدر ، فقالوا : أخرجتنا

(١) جامع البيان (١/٦١٢-٦١٣) ، وتحقيق شاکر (٣/٩٧-٩٨) .

(٢) جامع البيان (١٠/٤٦٧-٤٦٨) .

للغير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له ، وقال بعض نحويي البصرة : يجوز أن يكون هذا الكاف في: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ ﴾ على قوله : ﴿ أَوْلَيْتَكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤] ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ وقال : الكاف بمعنى : «على» . وقال آخر منهم : هي بمعنى القسم ، قال : ومعنى الكلام : والذي أخرجك ربك .

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب : قول من قال في ذلك بقول مجاهد ، وقال معناه : كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين ؛ لأن كلا الأمرين قد كان ، أعني : خروج بعض من خرج من المدينة كارهاً ، وجدالهم في لقاء العدو وعند دنو القوم بعضهم من بعض ، فتشبيه بعض ذلك ببعض مع قرب أحدهما من الآخر ، أولى من تشبيهه بما بعد عنه .^(١) فلما ورد في السياق تشبيهه ، كان أولى الأقوال ما كان المشبه به وارداً في السياق ، دون ما بعد عنه أو لم يذكر .

٨- الجار والمجرور في موضع في قوله -تعالى- : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُمْ فِيهَا بِالْعُدْوَةِ وَالْوَصَالِ ﴾ [٣٦] ﴿ يَجَالُ لَا تُلْهِمِهِمْ بَعْدَةَ وَلَا يُبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا نَفَقًا ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨] قال -رحمه الله- : " يعني -تعالى- ذكره بقوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ : الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، في بيوت أذن الله أن ترفع... قال أبو جعفر : قد يحتمل أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ في صلة ﴿ يُوقَدُ ﴾^(٢) ، فيكون المعنى : تُوقد من شجرة مباركة ، ذلك المصباح في بيوت أذن الله أن ترفع ."^(٣)

(١) جامع البيان (٦/١٨٠-١٨١) ، وتحقيق شاکر (٣٩١/١٣) .

(٢) النور (٣٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بناء من فوق مفتوحة وفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأ أبو بكر وحزرة والكسائي وخلف بالبناء مضمومة وتخفيف القاف ، وقرأ الباقر بالباء . انظر النشر (٢/٣٣٢) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٩٨) .

(٣) جامع البيان (٩/٣٢٩) .

وقد ذكر الرازي أن هذا القول اختيار كثير من المحققين^(١)، وذكر أبو السعود، وفي تفسير الجلالين، والآلوسي: أن ﴿فِي﴾ متعلقةٌ بـ ﴿سَمِعَ﴾^(٢). والأقوال في الآية كثيرة. -والله أعلم-، والشاهد هنا: أن الجار والمجرور رابط بين الحمل، فصار لا بد من تعلق الكلام بالمتقدم والمتأخر، وأما الخلاف المذكور هنا ففي تعيينه لا في وجوده. وبعد هذه الأمثلة المتنوعة المتعددة، يظهر جلياً كم لبعض العبارات والكلمات من تأثير في وصل الكلام ببعضه ببعض!، مما يؤكد حقيقة قاعدة: الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه، والتي هي محور موضوع السياق، وأن اتصال السياق متحتم، وتدلل عليه دلائل كثيرة، منها ما سبق، وغير ما ذكر أكثر. -والله أعلم-.

(١) مفاتيح الغيب (جزء ٢٤/٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/١٢٣)، وروح المعاني (١٠/٢٥٤)، وتفسير الجلالين صفحة (٣١٥).

المطلب الثالث: أدلة انقطاع السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري - رحمه الله - :

كان الحديث فيما سبق عن الاتصال وما يتعلق به من أدلة سار عليها الإمام ابن جرير - رحمه الله - ، وفي هذا المطلب سأتكلم عن أدلة الانقطاع ، التي نصّ عليها الطبري - رحمه الله - ، وقد قمت بإحصائها فوجدتها على النحو التالي :

- ١- نصّ الآية .
- ٢- السنة .
- ٣- قول الصحابة .
- ٤- الإجماع .
- ٥- سبب النزول .
- ٦- اللغة .
- ٧- ترجيح المعنى الأغلب .
- ٨- الإعراب .

وفيما يلي توضيح هذه الأدلة مع التمثيل لها من جامع البيان :

١- نصّ الآية : مما يدل على الانقطاع :

أ- ما تحويه الجملة من خبر لا يكون إلا عن معيّنٍ آخر غير من ذكر في السياق، مثال ذلك : في قوله -تعالى- : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِيرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٣] قال -رحمه الله- : " ويقول المؤمنون : أهؤلاء الذين حلفوا لنا بالله جهد أيمانهم كذباً إنهم لمعنا ؟ . يقول الله -تعالى- ذكّره -مخبراً عن حالهم عنده بنفاقهم وخبث أعمالهم : ﴿ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ ﴾ يقول : ذهبَت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلاً لا ثواب لها ولا أجر... " (١)

(١) جامع البيان (٤/٦٢٢) ، وتحقيق شاكر (١٠/٤٠٩) . وانظر النساء (١٥٥) ﴿ فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ يَشْتَقِفْهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِتَايَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ

فالحكم بحبوط الأعمال اختصاص إلهي ليس للبشر؛ ولذلك بين الإمام المفسر - رحمه الله - انقطاع كلام المؤمنين وابتداء كلام الله - عز وجل - .

ب- وقد يكون انقطاعه بسبب انتهاء حديث شخص ما ، فيكون استطراداً : كما في قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه: ٥٣] قال - رحمه الله - : " وقوله : ﴿ وَسَوَّاكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ يقول : وأهج لكم في الأرض طرفاً... وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ يقول : وأنزل من السماء مطراً فأخرجنا به ﴿ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ، وهذا خيرٌ من الله - تعالى - ذكره - عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سماءه إلى أرضه ، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه ، وثناؤه على ربه بما هو أهله . يقول - جل ثناؤه - : فأخرجنا نحن - أيها الناس - بما نزل من السماء من ماء ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ ، يعني : ألواناً ﴿ مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ، يعني : مختلفة الطعوم ، والأراييح ، والمنظر . " (١)

إذاً هذا كلام منقطع عن قصة موسى وفرعون ، وهو تذكير بالآلاء الله ونعمه على خلقه ؛ لمناسبة المقام إلى هذا الاستطراد ، فانقطع كلام موسى ﷺ عند قوله : ﴿ قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢] ويعود تكميل القصة بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه: ٥٦] (٢) . - والله أعلم - .

الْأَنْبِيَاءَ يَغْفِرَ حَتَّىٰ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا ﴿ الآية جامع البيان (٤/٣٤٩-٣٥٠) .

(١) جامع البيان (٨/٤٢٤) .

(٢) طه (٥٦) . وهناك أمثلة أخرى ، صنفها ابن القيم على نوعين :

أحدهما : أن يستطرده من الشيء إلى لازمه مثل... قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزحرف: ٩] ثم استطرده من جوابهم إلى قوله ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [إلى قوله: ﴿ لَنَسْتَوْفَىٰ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ [الزحرف ٩-١٤] وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له وإقامة الحجة عليهم... والنوع الثاني : أن يستطرده من الشخص إلى النوع : كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (١) ثم جملة نطفة في قرار مكين ﴿ ﴾ [المؤمنون: ١٢] .

٢- دلالة السنة على انقطاع السياق ، كما في تفسير قوله -تعالى- : ﴿وَلَا يَحْصِنُ الَّذِينَ يَبَخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لِمَنْ بَلَّ هُوَ سَرٌّ لَهُمْ سَيْطَوُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مَبْدُتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠] قال رحمه الله - : " القول في تأويل قوله -تعالى- : ﴿سَيْطَوُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني بقوله -جل ثناؤه- : ﴿سَيْطَوُونَ﴾ : سيجعل الله ما يخل به المانعون الزكاة طوقاً في أعناقهم ، كهيئة الأطواق المعروفة ، [ثم ساق أحاديث منها قول :...رسول الله ﷺ - : "ما من ذي رحمٍ يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل أعطاه الله إياه فيدخل به عليه ، إلا أخرج له يوم القيامة شجاع من النار يتلمّظ حتى يطوقه " ثم قرأ : ﴿وَلَا يَحْصِنُ الَّذِينَ يَبَخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿سَيْطَوُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١)...وقال آخرون : معنى ذلك : ﴿سَيْطَوُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجعل في أعناقهم طوقاً من نار...وقال آخرون : معنى ذلك : سيحمل الذين كنمو نبوة محمد ﷺ - من أحبار اليهود ما كنمو من ذلك...وقال آخرون : معنى ذلك : سيكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما يخلوا به في الدنيا من أموالهم... قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية : التأويل الذي قلناه...؛ للأخبار التي ذكرنا في ذلك عن رسول الله ﷺ - ، ولا أحد أعلم بما عني الله -تبارك وتعالى - بتنزيله منه -عليه الصلاة والسلام - . " ^(٢)

١٢ - ١٣] إلى آخره ، فالأول آدم والثاني بنوه...انظر بدائع التفسير ٤/٢٨٩-٢٩٠ وهو في التبيان في أيمان القرآن .
(١) لا تخلو أسانيد الأحاديث التي ساقها الطبري من ضعف : فبعضها عن أبي مالك العبدي لم تثبت صحبته ، وفي آخر رجل لم يسم ، ولم تثبت صحبته فهو ضعيف إسناداً ، انظر جامع البيان بتحقيق شاكر (٤٣٣/٧) ، ولكن ذكرت ما يؤيده من الصحيحين .

(٢) جامع البيان (٣/٥٣٢-٥٣٤) ، وتحقيق شاكر (٤٣٣/٧) . وانظر طه (١١-١٢) ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُورِي يَنْمُوتِ﴾ الآيتين جامع البيان (٨/٣٩٦-٣٩٧) ، والحج (١-٢) : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ رَزَقَ السَّاعَةَ مَنْ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ جامع البيان (٩/١٠٤-١٠٦) ، والدخان (١٠-١٢) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي

ويؤيد الأحاديث التي ساقها ابن جرير - وقد ذكرت أحدها - قوله ﷺ: "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يطوفه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني : شذقيه - يقول : أنا مالك ، أنا كنزك " ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إلى آخر الآية " (١)

فلا شك أن الآية متعلقة على الراجح بماعني الزكاة ؛ لتفسير النبي - ﷺ - الآية على هذا المعنى ، ولو لم يكن للزكاة ذكر بالاسم في سياق الآيات . (٢)

وقد وجدت موضعين كان للسننة فيهما دليل على الانقطاع ، أو الاتصال ؛ ولكن الإمام - رحمه الله - لم يذكر شيئاً من السننة :

الموضع الأول : في قوله - تعالى - : ﴿ يَنْسَأَ النَّبِيُّ لَسَانَهُ كَأَنَّهُ مِنَ الْإِنْسَاءِ إِنْ أَتَيْتَنَّهُ فَلَآ

تُخَضَّمَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣١﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٣] حيث قال : "اختلف أهل التأويل في الذين عُنيوا بقوله : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ : فقال بعضهم : عُني به: رسول الله - ﷺ - ، وعليّ ، وفاطمة (٣) ،

السَّمَاءِ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ الآيات جامع البيان (١١/٢٢٧-٢٢٨) .

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير ، وبوجه نصّ الآية ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] صفحة (٩٤٣) حديث (٤٥٦٥) .

(٢) انظر فتح الباري (٨/٢٣٠) .

(٣) فاطمة بنت رسول الله محمد - ﷺ - القرشية الهاشمية ، سيدة نساء أهل الجنة ، أمها خديجة بنت خويلد ، وهي أصغر بنات النبي - ﷺ - على الصحيح ، كنيته أم الهاد وأم أبيها ، ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها علي بن أبي طالب وعمرها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر بعد وقعة بدر ، ولدت له الحسن والحسين ، وزينب - زوج عبد الله ابن جعفر - ، وأم كلثوم - زوج عمر - ، وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر ، سنة إحدى عشرة . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢/١١٨) ، وشذرات الذهب (١/١٥) .

والحسن^(١)، والحسين^(٢)، -رضوان الله عليهم- [وساق أحاديث منها]: ..قالت عائشة: خرج النبي -ﷺ- ذات غداة، وعليه مرطٌ مُرَحَّلٌ^(٣) من شعر أسود، فجاء الحسن، فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٤)... وقال آخرون: بل عنى بذلك أزواج رسول الله -ﷺ-...^(٥)

فلم يرجح في هذا الموضوع ما أورد من السنة الدالة على عدم اعتبار دلالة السياق، ولم يعلق -رحمه الله- على صحة الحديث كما كان جارياً عليه في المواضع الأخرى. وقد دلّ السياق على دخول الأزواج، كما ذكر ابن كثير -رحمه الله-؛ لسبب النزول فيهن، ويدخل قرابته من باب الأولى، وقد شبه ابن كثير الخلاف في هذه الآية بالخلاف في المسجد المؤسس على التقوى في قوله -تعالى-: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِجْتَابًا﴾ [التوبة: ١٠٨]

(١) هو أبو عبد الله، الحسن بن علي بن أبي طالب، سبط رسول الله -ﷺ- وربانته، هو وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة، ولد في نصف رمضان السنة الثالثة من الهجرة، وهو أشبه الناس برسول الله -ﷺ-، أصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، سنة إحدى وأربعين، بوع بالخلافة ثم تنازل بها لمعاوية -رضي الله عنه-، توفي سنة تسع وأربعين، وقيل غير ذلك. انظر الإصابة (١١/٢)، وتهذيب التهذيب (٤٠٣/١).

(٢) هو أبو محمد، الحسين بن علي بن أبي طالب، سبط رسول الله -ﷺ- وربانته، هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة، ولد في شعبان، سنة أربع من الهجرة، وقتل في كربلاء يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين، وله ست وخمسون سنة. انظر الإصابة (١٤/٢)، وتهذيب التهذيب (٤٢٦/١).

(٣) المرط: كساء من صوف خز، والمرحّل: الذي فيه خطوط كرجال الإبل. انظر الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٣٦٠/٣-٣٦١)، وترتيب القاموس المحيط (٣١٦/٢)، و(٢٢٩/٤).

(٤) وقد جاء الحديث في صحيح مسلم بزيادة الحسين وفاطمة وعلي -رضي الله عنهم-، ولفظه "...فجاء الحسن ابن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أهل بيت النبي -ﷺ- -رقم (٢٤٢٤) (١٨٨٣/٤).

(٥) جامع البيان (٢٩٦/١٠-٢٩٨).

١٠٨] وهو قباء ؛ لسبب النزول ، ويدخل مسجد النبي -ﷺ- من باب الأولى ، فأفاد وأجاد ، ومثل ذلك الشوكاني -رحمه الله-^(١).

ودخول قرابة النبي ﷺ من النسب ليس من طريق الأولى فقط ، بل بنصّ السنّة فقد أدخل النبي ﷺ الحسن والحسين وفاطمة وعليّ في مرطٍ مَرَحَلٍ ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢).

والموضع الثاني : في قوله -تعالى- : ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - : وقلنا لعيسى : يا أيها الرسل كلوا من الحلال الذي طيِّبه الله لكم دون الحرام ، ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ ، تقول في الكلام للرجل الواحد : أيها القوم كفوا عَنَّا أذاكم ، وكما قال : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [ال عمران: ١٧٣] ، وهو رجلٌ واحدٌ . " ^(٣)

ولكن قد عمّم النبي -ﷺ- الخطاب للرسل جميعاً ، ولم يخصّ الخطاب لأحدٍ بعينه فقال : "...وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [الآية الماضية] وقال : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] " الحديث...^(٤)

فالسنة جعلت الخطاب لعامة الرسل ، ويدخل عيسى -ﷺ- في عمومهم ، ولا شك أن أولى ما يفسر به القرآن السنة ، ولم يذكرها ابن جرير ، ولعل مندوحة ذلك أن الحديث لم يبلغه ، أما الآية من سورة الأحزاب الماضية فقد أورد النصوص ولم يرجحها على

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦٥-٤٦٨) ، وفتح القدير (٤/٢٧٨-٢٨٠) طبع دار المعرفة .

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أهل بيت النبي -ﷺ- رقم (٢٤٢٤) (٤/١٨٨٣) ، والآية من الأحزاب (٣٣) .

(٣) جامع البيان (٩/٢٢٠) .

(٤) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة ، في كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها رقم (١٠١٥) صفحة (٧٠٣/٢) .

غيرها أو يذكر رأيه فيها ، كما هي عادته -رحمه الله -، وقد عوّد قراءه على التحقيق والتدقيق والترجيح .

٣- ترك اتصال السياق لقول الصحابة -رضي الله عنهم- ، عند قوله -تعالى-:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحزاب: ١٠] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : [كمسروق^(١)] معناه : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ وهو موسى بن عمران - عليه السلام - ، ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ يعني : على مثل القرآن ، قالوا : ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق التوراة... وقال آخرون : عُني بقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ عبد الله بن سلام^(٢) قالوا : ومعنى الكلام : وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق . قالوا : ومثل القرآن التوراة...

والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ في سياق توبيخ الله -تعالى- ذكْرَهُ - مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم لنبِيِّهِ - ﷺ - ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها ، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر ، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت ، ولا دلّ على انصراف الكلام - عن قصص الذين

(١) هو أبو عائشة ، مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، أسلم في حياة النبي - ﷺ - وهو من المخضرمين ، ومن كبار التابعين النفاة ، من أهل اليمن ، حدّث عن جمع من الصحابة ، شلت يده يوم القادسية، وتوفي سنة ثلاث وستين ، وقيل اثنتين . انظر سير أعلام النبلاء (٤/٦٣) ، ومهذب التهذيب (٤/٥٩) .

(٢) هو أبو يوسف ، عبد الله بن سلام بن الحارث -رضي الله عنه- ، من ذرية يوسف -عليه السلام- حليف الخزرج ، كان من يهود بني قينقاع ، أسلم أول مقدم النبي - ﷺ - - المدينة ، وشهد له الرسول بالجنة ، توفي سنة ثلاث وأربعين . انظر الإصابة (٤/٨٠) .

تقدّم الخبر عنهم - معنى ، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله - ﷺ - بأن ذلك عنى به : عبد الله بن سلام ، وعليه أكثر أهل التأويل [ومنهم : عبد الله بن سلام نفسه ، وابن عباس ، وسعد بن أبي وقاص^(١) ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك^(٢) ، والحسن^(٣) ، وابن زيد ، ومالك بن أنس ، وغيرهم^(٤)] ، قال ابن جرير : وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن ، والسبب الذي فيه نزل ، وما أريد به ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك : وشهد عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني إسرائيل **عَلَى** **مِثْلِهِ** ، يعني : على مثل القرآن ، وهو التوراة ، وذلك شهادته أن محمداً مكتوب في التوراة أنه نبي ، تجده اليهود مكتوباً عندهم في التوراة ، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبي . " (٥)

وذهب ابن كثير - رحمه الله - إلى أن الشاهد اسم جنس يعمُّ عبد الله بن سلام وغيره؛ لمكية السورة ، وإنما أسلم عبد الله بن سلام - ﷺ - بالمدينة .^(١)

(١) هو أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقاص ، وأبو وقاص اسمه مالك بن وهيب ، ويقال : أهيب ، أحد العشرة المبشرين بالجنة والسابقين ، شهد بدرًا والحديبية ، قال له النبي - ﷺ - فذاك أبي وأمي ، وهو أحد الستة أهل الشورى ، توفي سنة خمس وخمسين ، وقيل غير ذلك . انظر تاريخ بغداد (١٤٤/١) ، وحلية الأولياء (٩٢/١) ، والإصابة (٨٣/٣) ، وغاية النهاية (٣٠٤/١) .

(٢) هو أبو القاسم ، الضحاك بن مزاحم الهلالي ، المفسر ، كان من أوعية العلم ، وليس من الجود حديثه ، وهو صدوق في نفسه ، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما ، وحديثه في السنن ، له تفسير رواه عنه عبيد بن سليمان ، توفي اثنتين ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٥٩٨/٤) ، وتمذيب التهذيب (٢٢٦/٢) ، وطبقات المفسرين للدواودي (٢١٦/١) .

(٣) هو أبو سعيد ، الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، الواعظ المفسر ، تابعي مولى ، ولد سنة إحدى وعشرين ، له كتاب في التفسير ، رواه عنه جماعة ، توفي سنة عشر ومائة . انظر معرفة القراء الكبار (٦٥/١) ، وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٣٥/١) ، وسير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤) ، وطبقات المفسرين للدواودي (١٤٧/١) .

(٤) انظر جامع البيان (٢٧٨/١١-٢٨٠) ، وتفسير القرآن العظيم (٢٦٢/٧) ، وفتح القدير (١٩/٥) ، وحكى الألووسي أنه مذهب الجمهور في روح المعاني (جزء ٢٠/٢٦) ، دار الفكر ١٤١٤ هـ .

(٥) جامع البيان (٢٧٨/١١-٢٨١) .

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/٧) .

وقال الكلبي : بمدنية الآية في سورة مكية ^(١) ، ورجح ذلك الشنقيطي ^(٢) ، ونسب الشوكاني لابن جرير القول : بأنه رجل آمن من أهل الكتاب بمكة ^(٣) ، وليس هذا في تفسير ابن جرير كما سبق .

٤- ترك اتصال السياق ؛ لما عبّر عنه بالإجماع عند أهل التأويل : ففي قوله تعالى - ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَهُ شُرَكَاءُ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠] قال - رحمه الله - : "...اختلف أهل التأويل في الشركاء التي جعلها فيما أوتيا من المولود : فقال بعضهم: جعل له شركاء في الاسم [أي : أهما آدم وحواء]... وقال آخرون: بل المعنى بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم ، جعل الله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد ، وقالوا : معنى الكلام : هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاهما : أي هذا الرجل الكافر ، حملت حملاً خفيفاً ، فلما أثقلت دعوتها الله ربكما ، قالوا : وهذا مما ابتدئ به الكلام على وجه الخطاب ، ثم ردّ إلى الخبر عن الغائب ، كما قيل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ بَرْجٌ طَبِيعَةٍ ﴾ [يونس: ٢٢] ...

قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب : قول من قال : عني بقوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَهُ شُرَكَاءُ ﴾ في الاسم لا في العبادة ، وأن المعنى بذلك آدم وحواء ؛ لإجماع الحجة

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٢٥/٥) .

(٢) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٦/٥) ، والشنقيطي هو : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الحافظ الزاهد، ولد بموريتانيا ، سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ، أصولي فقيه مفسر لغوي ، له هذا التفسير ، ومذكورة في أصول الفقه ، وغيرها ، درّس في كلية الشريعة واللغة العربية بجامعة الإمام ، ودرّس بالجامعة الإسلامية والحرم النبوي الشريف ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته في مقدمة أضواء البيان (٣/١) ، لتلميذه الشيخ القاضي عطية سالم - رحمه الله - ، وكتاب علماء ومفكرون عرفتهم صفحة (١٧١) .

(٣) فتح القدير (١٦/٥) .

من أهل التأويل على ذلك .^(١)

ومعنى الإجماع عند الطبري - رحمه الله - : عدم الاعتداد بمخالفة الواحد والاثنين ، وليس الإجماع بمعناه الاصطلاحي عند الأصوليين^(٢) ، وإلا فقد أورد قول من قال : بأنه غير آدم ، ورواه عن الحسن - رحمه الله - ، ورجح ابن كثير : قول الحسن ؛ لأن الروايات في تعيين أن المراد آدم وحواء ليست مرفوعة ، وأصلها مأخوذ من أهل الكتاب كأبي بن كعب فإن ابن عباس رواه عنه^(٣) ، وإلى مثل هذا القول ذهب القرطبي^(٤) ، وقال الآلوسي : وهذا الموضوع عندي من المشكلات ، ورجح التسليم بالرواية ؛ لأنها مما لا يقال فيها بالرأي.^(٥)

٥- ترك اتصال السياق لسبب النزول : ففي قوله - تعالى - : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق]:

٣٩ - ٤٠] قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى - ذِكْرُهُ - لنبيه محمد - ﷺ - : فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود ، وما يفترون على الله ويكذبون عليه ، فإن الله لهم بالمرصاد... " ^(٦) .

ويؤيد قول الإمام - رحمه الله - ما مضى في السياق من ذكر اليهود ، في قوله

- تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق]:

٣٨] التي دلّ سبب النزول على أنها في اليهود ، وهو عن أبي بكر ، قال : جاءت اليهود إلى

(١) جامع البيان (٦/١٤٤-١٤٧) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٠٨) .

(٢) انظر الإجماع في التفسير صفحة (١٣٩-١٤١) للشيخ : محمد بن عبد العزيز الحضيري ، رسالة ماجستير ، في جامعة الإمام ، ١٤١٦هـ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٣-٢٦٤) . وأبي بن كعب هو : بن قيس بن عبيد ، أبو المنذر الأنصاري ، سيد القراء ، قال له النبي - ﷺ - : ليهنك العلم أبا المنذر ، وقال : إن الله أمرني أن أقرأ عليك ، توفي سنة تسع عشرة وقيل غير ذلك . انظر معرفة القراء الكبار (١/٢٨) ، وسير أعلام النبلاء (١/٣٤٩) ، والإصابة (١/١٦) ، وغاية النهاية (١/٣١) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٧/٢١٥) .

(٥) روح المعاني (٦/٢٠٢) و(٢٠٦-٢٠٧) .

(٦) جامع البيان (١١/٤٣٥) .

النبي ﷺ - ، فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ . فقال :
 «خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ الْمَدَائِنَ وَالْأَقْوَاتَ
 وَالْأَنْهَارَ وَعُمُرَانَهَا وَخَرَابَهَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْمَلَائِكَةَ يَوْمَ الْخَمِيسِ إِلَى ثَلَاثِ
 سَاعَاتٍ ، يَعْنِي مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَخَلَقَ فِي أَوَّلِ الثَّلَاثِ السَّاعَاتِ الْأَجَالَ ، وَفِي الثَّانِيَةِ الْأَفْةَ ،
 وَفِي الثَّلَاثَةِ آدَمَ ، قَالُوا : صدقت إن أتممت ، فعرف النبي ﷺ - ما يريدون ، فغضب ،
 فأنزل الله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ ٦٨ ﴿ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٨ - ٣٩] .^(١)

فالذي قطع الحديث عن البعث وهو - في سياق الحديث عن المشركين إلى اليهود -
 هو سبب النزول ، ولكن يبقى ملاحظة أن سبب النزول ضعيف - والله أعلم - .

ولكن لا يلزم من سبب النزول قطع السياق على الإطلاق : فعند قوله
 -تعالى- : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
 قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] قال -رحمه الله- : "...اختلف أهل التأويل فيمن عني
 بهذه الآية وفيمن نزلت ، فقال بعضهم : نزلت في الزبير بن العوام^(٢) وخصم له من

(١) رجال السنن كما قال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيْد ، قال : ثنا مهران ، عن أبي سنان ، عن أبي بكر ، فابن حميد ، اسمه
 محمد ، ضعيف (في تقريب التهذيب: ٦٩/٢) ووثقه شاكر ، وقال : الأغلاط في أحاديثه من جهة مشايخه ، انظر تحقيق
 شاكر (٤٦/٣ و١٨١) ، ومهران بن أبي عمرو : صدوق له أوهام سئى الحفظ (في تقريب التهذيب: ٢١٨/٢) ، وأبو
 سنان ، هو : سعيد بن سنان ، صدوق له أوهام ، (في تقريب التهذيب: ٣٥٦/١) وقال شاكر : يخطئ بعض الخطأ (تحقيق
 شاكر : ١٧٢/١) ، وهو من الطبقة السادسة الذين لم يثبت لهم إدراك الصحابة ؛ إذن : فالحديث مرسل وهو ضعيف -
 والله أعلم - ولكن ورد من طريق آخر عند الحاكم في المستدرک (٥٤٣/٢) قال : أخبرنا أبو سعيد أحمد ابن محمد بن
 عمرو الأحمسي بالكوفة ، ثنا الحسين بن الربيع ، ثنا حماد بن السري ، ثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي سعيد ، عن
 عكرمة ، عن ابن عباس... الحديث ، قال الذهبي في التلخيص : أبو سعيد البقال قال ابن معين : لا يكتب حديثه
 (٥٤٣/٢) ، فالظاهر ضعفه - والله أعلم - . وانظر أسباب النزول للواحدي ، تحقيق عصام الحميدان صفحة (٣٩٧) .

(٢) هو أبو عبد الله ، الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، حواري رسول الله ﷺ - ، وابن عمته صفية ، وأحد العشرة
 المبشرين بالجنة ، قيل أسلم وعمره ثلاث عشرة سنة ، وهو أول من سلّ سيفاً في سبيل الله ، هاجر المجرتين ، وشهد بدرًا
 والمشاهد كلها ، قتله ابن جرموز غدراً في وادي السباع ، سنة ست وثلاثين . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣٢١/٢) ،

الأنصار، اختصما إلى النبي - ﷺ - في بعض الأمور... وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في المنافق واليهودي اللذين وصف الله صفتها في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [النساء: ٦٠]...

قال أبو جعفر : وهذا القول : أعني قول من قال : عني به المحتكمان إلى الطاغوت - اللذان وصف الله شأنهما في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ - أولى بالصواب ؛ لأن قوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ في سياق قصة الذين ابتدأ الله الخبر عنهم بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، ولا دلالة تدلّ على انقطاع قصتهم ، فإلحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه - أولى .

فإن ظنّ ظان أن في الذي روي عن الزبير... من قصّته وقصّة الأنصاري (١) في شراح الحرّة (٢) ، وقول من قال في خبرهما ، فنزلت : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ما ينبئ عن انقطاع حكم هذه الآية وقصتها من قصة الآيات قبلها ، فإنه غير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت ، ويكون فيها بيان ما

ومعرفة الصحابة (٣/٤٣٣) ، والإصابة (٣/٥) ، وشذرات الذهب (١/٤٣).

(١) القصة بين الزبير بن العوّام ورجل من الأنصار : أمّما اختصما في شراح من الحرّة كانا يسقيان به النخل، فقال الأنصاريّ : سرح الماء يمرّ فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ : «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك!» فغضب الأنصاريّ وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمّتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الحدّ ثم أرسل الماء إلى جارك!» واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. (انظر جامع البيان (٤/١٦١) وقد أورد البخاري نحوها في صحيحه عند تفسير هذه الآية صفحة (٩٥٠) حديث (٤٥٨٥) .

(٢) الشرح : مسيل ماء من الحرّة إلى السهل ، ترتيب القاموس (٢/٦٩١) مادة (ش ر ج) ، والمراد به هنا : مسيل الماء ، قال أبو عبيد : "كان بالمدينة واديان يسيلان بماء المطر فيتنافس الناس فيه ، فقضى رسول الله ﷺ للأعلى فالأعلى". انظر فتح الباري (٥/٣٦) ، ومعجم البلدان لياقوت (٣/٣٣١) .

احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاريّ ، إذ كانت الآية دلالةً دالةً ، وإذ كان ذلك غير مستحيل ، كان إلحاق معنى بعض ذلك ببعض أولى ، ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد ، إلا أن تأتي دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض ، فيُعدّل به عن معنى ما قبله^(١).

٦- دليل انقطاع السياق من اللغة : فقد يترك طلب اتصال السياق للعموم :

ففي قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَتٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] قال أبو جعفر: " يعني بذلك -جل ثناؤه - : قل يا محمد لأهل الكتاب -وهم أهل التوراة والإنجيل-... واختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية : فقال بعضهم : نزلت في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي مدينة رسول الله -ﷺ-... وقال آخرون : بل نزلت في الوفد من نصارى نجران... "

قال أبو جعفر : وإنما قلنا : عنى بقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ : أهل الكتابين ؛ لأهمما جميعاً من أهل الكتاب ، ولم يخص -جل ثناؤه- بقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ بعضاً دون بعض ، فليس بأن يكون موجهاً ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه بأن يكون موجهاً إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل ، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة . وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر ؛ لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر ، ولا أثر صحيح ، فالواجب أن يكون كل كتابي معنياً به ؛ لأن أفراد العبادة لله وحده ، وإخلاص التوحيد له ، واجب على كل مأمور منهي من خلق الله ، واسم أهل الكتاب يلزم أهل التوراة وأهل الإنجيل ، فكان معلوماً بذلك أنه عني به الفريقان جميعاً . " (٢)

(١) جامع البيان (٤/١٦١-١٦٣) ، وتحقيق شاکر (٨/٥١٨) .

(٢) جامع البيان (٣/٣٠٠) ، وتحقيق شاکر (٦/٤٨٣) . ومثله في الأحزاب (٢٧) ﴿ وَأَوْفِكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَبْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّهُمْ تَطَّوَرَهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآية ، جامع البيان (١٠/٢٨٨) ، والطلاق (٤) ﴿ وَاللَّهِ يَبْسُتِنَ مِنَ الْمَجِيضِ مَن دَسَائِكُرٍ إِنِ انْتَبَهَتْ ﴾

٧- ويترك طلب اتصال السياق لحمل الكلام على الأغلب :

ف عند قوله -تعالى- : ﴿وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] قال أبو جعفر: "...واختلف في الفرج الذي عنى الله -جل ثناؤه- أنها أحصنته : فقال بعضهم : عنى بذلك فرجَ نفسها أنها حفظته من الفاحشة ، وقال آخرون: عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبرئيل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها ، وقبل أن تثبته معرفة ، قالوا : والذي يدل على ذلك قوله : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ ويعقب ذلك قوله : ﴿وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ قالوا : وكان معلوماً بذلك أن معنى الكلام : والتي أحصنت جيبها فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا .

قال أبو جعفر : والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك : قول من قال : أحصنت فرجها من الفاحشة ؛ لأن ذلك هو الأغلب من معنيه عليه ، والأظهر في ظاهر الكلام ، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يقول : فنفخنا في جيب درعها من روحنا .^(١)

٨- ومن أدلة ترك اتصال السياق : الإعراب :

كما في قوله -تعالى- : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَلِيمَةٌ بَتَّلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَلِي وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] حيث قال أبو جعفر -رحمه الله- : " يعني بقوله -جل ثناؤه- : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس فريقا أهل الكتاب - أهل الإيمان منهم والكفر - سواء، يعني بذلك : أنهم غير متساوين، يقول : ليسوا متعادلين ، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر . وإنما قيل: ليسوا سواء ؛ لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذين ذكرهما الله في قوله : ﴿وَلَوْ آمَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ

فَوَدَّعْتَهُمْ فَكَانَتْ أَشْهُرٌ وَالَّذِي لَمْ يَحْضَرْ . الآية ، جامع البيان (١٣٦/١٢) .

(١) جامع البيان (٨٠/٩) . وانظر مثله : في الحديد (١٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] الآية ، جامع البيان (٦٨٤/١١) .

الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿آل عمران: ١١٠﴾ ثم أخبر -جل ثناؤه- عن حال الفريقين عنده ، المؤمنة منهما والكافرة ، فقال : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي : ليس هؤلاء سواء ، المؤمنون منهم والكافرون ، ثم ابتداء الخبر -جل ثناؤه - عن صفة الفرقة المؤمنة من أهل الكتاب ومدحهم وأثنى عليهم ، بعد ما وصف الفرقة الفاسقة منهم بما وصفها به من الهلع ونخب الجنان^(١) ، ومحالفة الذلل والصغار ، وملازمة الفاقة والمسكنة ، وتحمل خزي الدنيا وفضيحة الآخرة ، فقال : ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الآيات الثلاث ، إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْمَنَاقِبِ﴾ ﴿آل عمران: ١١٥﴾ فقوله : ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مرفوعة بقوله : ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ . وقد توهم جماعة من نحويي الكوفة والبصرة والمقدمين منهم في صناعتهم ، أن ما بعد ﴿سَوَاءً﴾ في هذا الموضع من قوله : ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ ترجمة عن ﴿سَوَاءً﴾ ، وتفسير عنه ، بمعنى : لا يستوي من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ، وأخرى كافرة ، وزعموا أن ذكر الفرقة الأخرى تُرك اكتفاءً بذكر إحدى الفرقتين ، وهي : الأمة القائمة... وأخطئوا تأويل الآية ، فسواء في هذا الموضع بمعنى التمام والاكتماء ، لا بالمعنى الذي تأوله من حكيما قوله . " (٢)

وكالاستئناف في قوله -تعالى- : ﴿إِلَّا نَضْرِبُ فِجْرَهُ فَقَدْ نَفَسَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِثَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْرُقُنَا إِنَّا اللَّهُ مَنَّانًا فَإِنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَانَ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿التوبة: ٤٠﴾ قال رحمه الله- : " وقوله : ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ خير مبتدأ غير مردود على قوله : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَانَ﴾ ؛ لأن ذلك لو كان معطوفاً على الكلمة الأولى لكان نصباً " (١) .

(١) النخب : الجين وضعف القلب .

(٢) جامع البيان (٣/٣٩٧-٣٩٨) ، وتحقيق شاکر (١١٨/٧) .

(١) جامع البيان (٦/٣٧٦) ، وتحقيق شاکر (١٤/٢٦١) . ومثله في : إبراهيم (٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾

فاستدل بالرفع في قوله -تعالى- : ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا﴾ على أن الجملة مستأنفة جديدة ، منقطعة عما قبلها من الكلام ؛ لأن ما قبلها منصوب وهي مرفوعة .

والاستئناف ليس دليلاً على انقطاع السياق على إطلاقه : ففي قوله -تعالى- :

﴿التَّيِّبُونَ الْعَمِيدُونَ الْأَمْثَلُونَ الْأَرْكَبُونَ الْمُخْتَضِبُونَ الْفِيضُونَ الْأُمِثُونَ بِالْعَرَفِ وَالنَّهْأَةُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنُوفُونَ يُحَدِّدُوا اللَّهُ وَيَتَّيَّنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [التوبة: ١١٢] قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكره - : إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين أنفسهم وأموالهم ؛ ولكنه رفع ، إذ كان مبتدأ به بعد تمام أخرى مثلها ، والعرب تفعل ذلك... " (١)

وقد يتساوى المعنى بين القطع والوصل : قال -رحمه الله- : " واختلقت القراء في

قراءة قوله : ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ [الصفات: ١٢٦] فقرأته عامة قراء مكة والمدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة : { اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى } رفعاً على الاستئناف ، وأن الخبر قد تنهى عند قوله : { أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (٢) ، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة : ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ نصباً ، على الرد على قوله : ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصفات: ١٢٥] على أن ذلك كله كلام واحد . (٣)

والصواب من القول في ذلك عندنا : أنهما قراءتان متقاربتا المعنى ، مع استفاضة

القراءة بهما في القراء ، فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب ، وتأويل الكلام : ذلك معبودكم أيها

١. جامع البيان (٤١٥/٧) . وقد يمتثل الوصل والقطع إعراباً ويصح الوجهان ، كما في : الصفات

(٧٩-٧٨) ﴿وَرَبُّكُمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٣٧﴾ جامع البيان (٤٩٨/١٠) ، و(١٠٨-١٠٩) ﴿وَرَبُّكُمْ

عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٦﴾ جامع البيان (٥١٧/٩) .

(١) جامع البيان (٤٨٢/٦-٤٨٣) ، وتحقيق شاکر (٥٠٠/١٤) .

(٢) الصفات (١٢٥) .

(٣) النصب قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف ، والباقون بالرفع . انظر كتاب السبعة صفحة (٥٤٩) ،

والنشر في القراءات العشر (٣٦٠/٢) ، والمهذب في القراءات العشر (١٧٧/٢) .

الناس الذي يستحقّ عليكم العبادة ، ربكم الذي خلقكم ، وربّ آبائكم الماضين قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئاً ، ولا يضرّ ولا ينفع ."^(١)

وبعدُ فقد ذكرت أدلة الانقطاع التي ذكرها الطبري -رحمه الله- في تفسيره ، وليس معنى ذلك حصرها في هذه الأدلة .

وقد تبين أن الأصل : اتصال الكلام ما لم يدل دليل على انقطاعه ، ومن أمثلة ذلك: كون النصّ لا يحتمل أن يكون المتكلم به واحداً ، أو دلّت الأحاديث عن النبي -ﷺ- على انقطاع السياق عما قبله ، أو صح عن جمع من الصحابة -رضي الله عنهم- التفسير بانقطاع السياق ، أو أجمع أهل التفسير عليه ، أو كان سبب النزول دالاً عليه ، أو دلّت اللغة على عدم وصل الكلام ، أو كان أغلب استعمال اللغة على معنى منقطع عما قبله ، أو دل الإعراب على الانقطاع ، على ما سبق تفصيله في الأدلة الماضية. -والله أعلم-.

(١) جامع البيان (١٠/٥٢٣) .

المطلب الرابع: مواضع محتملة لاتصال السياق وانقطاعه:

هذا وإن كان الأصل اتصال السياق ، فإن هناك مواضع يمكن تفسيرها على الانقطاع أو الانفصال ؛ لاحتمالها الوجهين ، مما يدل على أن السياق هو الأصل والأغلب ، ولا حرج من ذكر احتمال الوجهين .

كما في قوله -تعالى- : ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبا: ٢٣] قال -رحمه الله- : " وقد اختلف أهل التأويل في مبلغ مدة الحُقب ، فقال بعضهم : مدة ثلاثمائة سنة... وقال آخرون : بل مدة الحُقب الواحد : ثمانون سنة... وقال آخرون : الحُقب الواحد : سبعون ألف سنة... ورُوي عن خالد بن معدان ^(١) في قوله : ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ ، وقوله : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] : أنهما في أهل التوحيد أهل القبلة ، فإن قال قائل : فما للكفار عند الله عذاب إلا أحقاباً ، قيل : إن الربيع ^(٢) وقتادة قد قالا : إن هذه الأحقاب لا انقضاء لها ، ولا انقطاع ، وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك : لاثنين فيها أحقاباً ، في هذا النوع من العذاب ، هو أهم : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤﴾ [النبا: ٢٤ - ٢٥] فإذا انقضت تلك الأحقاب ، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك ، كما قال -جل ثناؤه- في كتابه : ﴿هَذَا وَرَبِّكَ لِلظَّالِمِينَ لَعْنَتٌ مَّتَابٍ ۝٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَمِنْ أَلْهَادٍ ۝٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۝٥٧﴾ وَآخِرُونَ شَكْلِهِمْ أَنْزَجُ ۝٥٨﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨] وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية... " ^(٣)

(١) هو أبو عبد الله ، خالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي ، الشامي الفقيه ، تابعي أدرك سبعين من الصحابة ، وثقه العجلي وغيره ، قال بالقدر ، توفي سنة ثلاث ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر المعارف صفحة (٦٢٥) ، وسير أعلام النبلاء (٥٣٦/٤) ، ومهذب التهذيب (٥٣٢/١) .

(٢) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي ، قال الذهبي : كان عالم مرو في زمانه ، وفي تقريب التهذيب : صدوق له أوهام رمي بالتشيع ، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (١٦٩/٦) ، وتقريب التهذيب (٢٤٣/١) .

(٣) جامع البيان (٤٠٤/١٢ - ٤٠٥) .

وقال - رحمه الله - : " وفي قوله : ﴿ عَلَن صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ٤] وجهان أحدهما: أن يكون معناه: إنك لمن المرسلين على استقامة من الحقّ ، فيكون حينئذٍ ﴿ عَلَن ﴾ من قوله: ﴿ عَلَن صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ من صلة الإرسال ، والآخر : أن يكون خيراً مبتدأ ، كأنه قيل : إنك لمن المرسلين . إنك على صراط مستقيم . " (١)

وكذلك فعل القرطبي (٢) ، وذكر الزمخشري أنها خبر وصلة (٣) ، ووصلها ابن كثير بالآية التي قبلها (٤) ، وأما الرازي والشوكاني فقالا : خبرٌ بعد خبر . (٥)

(١) جامع البيان (٤٢٥/١٠) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٦/١٥٥) طبع دار الكتب العلمية .

(٣) الكشاف (٣١٤/٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥٤١/٣) .

(٥) مفاتيح الغيب (جزء ٤١/٢٦٦) وفتح القدير (٣٦٠/٤) . وانظر أمثلة أخرى في : آل عمران (١٥) ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِعَهْدِي مِنْ

دَلِيلِكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٠٦/٣) ، والأحزاب (٦) ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْوَيْلَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَجَهُمْ أُهْمَتُهُمْ ﴾ جامع

البيان (٢٦٠/١٠) ، و (٦١) ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ﴾ ، جامع البيان (٣٣٤/١٠) .

المطلب الخامس : مواضع لم يطبق فيها الإمام قاعدة : الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه :

كان الإمام الطبري -رحمه الله- يؤكد على اتصال الكلام بما قبله وبما بعده ، ولا يعيده إلى متقدم بعيد إلا بدليل ، وهناك من المواضع ما كان خارجاً عن هذا الاستعمال ، وهي كالتالي :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء: ١٣١] قال أبو جعفر : " يعني بذلك -جل ثناؤه- : والله ملك جميع ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها ، وإنما ذكر -جل ثناؤه- ذلك بعقب قوله : ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كَلِمًا مِنْ سَعَتِيهِ ﴾ [النساء: ١٣٠] تنبيهاً منه خلقه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته ؛ ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجته ، وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياء كلها ، وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذي فاقة وحاجة ، ويؤنس كل ذي وحشة ، ثم رجع -جل ثناؤه- إلى عدل من سعى في أمر بني أبيرق ^(١) ، وتوبيخهم ، ووعيد من فعل ما فعل المرتد منهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ يقول : ولقد أمرنا أهل الكتاب وهم أهل التوراة والإنجيل ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ يقول : وأمرناكم وقلنا لكم ولهم : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، يقول : احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه ، ﴿ وَإِنْ كَفَرُوا ﴾ يقول : وإن تجحدوا وصيته إياكم أيها المؤمنون فتخالفوها ، ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، يقول : فإنكم لا تضرون بخلافكم وصيته غير أنفسكم ، ولا تعدون في كفركم ذلك أن تكونوا أمثال اليهود

(١) هم : بشرٌ وبشيرٌ ومبشّرٌ ، وكان بشير رجلاً منافقاً ، وقيل اسمه : طعمة بن أبيرق ، ارتدّ ومات كافراً . انظر جامع البيان (٢٦٥/٤ و٢٦٦ و٢٦٩) .

والنصارى ، في نزول عقوبته بكم ، وحلول غضبه عليكم ، كما حلّ بهم...^(١) والآية التي في بني أبيرق مضت قبل آيات كثيرة ، وهي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالِفِينَ خصيماً ﴾ [النساء: ١٠٥] ، وأما الآية التي أرجعها إلى بني أبيرق فهي قوله -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ والفاصل بينهما بعيد ، ولم أجد من خص بني أبيرق مع عموم الخطاب ، فيما اطلعت عليه ، غير ابن جرير -رحمه الله- ، إلا أن يكون مراده أن بني أبيرق أولى من يدخل في هذا الخطاب مع دخول غيرهم -كما هي عادته-.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ لَعَنَّاكَ إِيَّاهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَقْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] قال -رحمه الله- : "وقوله : ﴿ لَعَنَّاكَ ﴾ يقول -تعالى- لنبيه محمد -ﷺ- : وحياتك يا محمد ، إن قومك من قريش ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَقْمَهُونَ ﴾ ، يقول : لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون ."^(٢) والسباق واللاحق لهذه الآية ينفي أن يكون هذا الخطاب حاكياً حال قريش مع النبي -ﷺ- ، بل هو يحكي فعل قوم لوط مع لوط -عليه السلام- -على الصحيح ، كما ذكر ذلك ابن عطية ، ونقله الألويسي عنه .^(٣)

وفي قوله -تعالى- ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ يقول [أي: يوسف عليه السلام] : فعلت ذلك ؛ ليعلم سيدي أني لم أخننه بالغيب ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ : يقول : وأن الله لا يسدّد صنيع من خان الأمانات ، ولا يرشد فعالمهم في خيانتهموها ، واتصل قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ بقول امرأة العزيز : ﴿ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ٥١] ؛ لمعرفة السامعين لمعناه ، كاتصال قول الله : ﴿ وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴾ [النمل: ٣٤]

(١) جامع البيان (٤/٣١٦-٣١٧) ، وتحقيق شاكر (٩/٢٩٥) .

(٢) جامع البيان (٧/٥٢٦) .

(٣) المحرر الوجيز (١٠/١٤٤) ، وروح المعاني (٨/١٠٨) .

بقول المرأة: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَبَةً أَهْلِهَا أُولَةً﴾ [النمل: ٣٤] ، وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤) خير مبتدأ ، وكذلك قول فرعون لأصحابه في سورة الأعراف: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهو متصل بقول الملام: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْزِلَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ١١٠] " (١).

فجعل هذا الكلام من قول يوسف عليه السلام-، مع أن سياق القصة والحادثة ليس فيه ذكر ليوسف معهم ، بل إن يوسف وقتها كان في السجن ، وقد رجح ذلك ابن كثير ؛ بدلالة السياق ، وأنه الأنسب والأليق بالكلام ، وقال: " حكاها الماوردي (٢) في تفسيره (٣) ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله - فأفرده بتصنيف على جدِّه " (٤)

(١) جامع البيان (٧/٢٣٥-٢٣٦) ، وتحقيق شاکر (١٦/٤١١) .

(٢) هو أبو الحسن ، علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي الماوردي ؛ لأنه كان يبيع ماء الورد أو يصنعه ، له : تفسير النكت والعيون والحاوي في الفقه الشافعي ، والأحكام السلطانية ، وغيرها ، توفي سنة خمسين وأربعمائة . انظر الأنساب (٥/١٨١) ، وسير أعلام النبلاء (١٨/٦٤) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٧١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١/٤٢٣) ، وشذرات الذهب (٣/٢٨٥) .

(٣) انظر تفسير النكت والعيون للماوردي (٣/٤٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٤٦٣) طبع دار عالم الكتب ، وانظر بعض هذا البحث لشيخ الإسلام في الآية في الفتاوى (١٥/١٣٨-١٥٦) ومن أدلته : على أن اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ ليس مرجعه إلى يوسف عليه السلام أنه لم يتقدم من يوسف كلام ، ولم يتقدم ذكر عفاف ، بل تقدم قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] ، وقولها: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١] فقط ، ويلزم من القول بأن اسم الإشارة عائد ليوسف أن ترك يوسف للفاحشة إنما كان من أجل العزيز ، ولكن الله عز وجل -أخبر أنه تركها خوفاً من الله ورجاء لثوابه ولعلمه بأن الله يراه ، لا لأجل مجرد علم مخلوق قال الله -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهَمٍ لَوْلَا أَنْ رَمَاهُ رَبُّهُ رَبُّهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ، ثم حال العزيز ليس الغيرة على امرأته بل عكس ذلك ، فلا ينفع هذا الفعل عنده ، ثم الخيانة ضد الأمانة وهما من جنس الصدق والكذب ، وأما فعل الفاحشة فهو من الظلم ﴿إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ السُّوءَ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] ، ثم قد صدق على المرأة وصف النفس الأمارة بالسوء ، وأما يوسف فإن لم تكن نفسه مرحومة عن هذا الوصف فما في الأنفس مرحوم... باختصار وتصرف .

وهذه الآية موضع خلاف بين المفسرين ، ولكن ابن جرير رحمه الله-، لم يذكر فيها إلا قولاً واحداً ، والراجح فيها أن الكلام كله كلام المرأة ؛ لاتصاله بكلامها .
وفي سورة المطففين موضعان متشابهان :

الأول: قوله -تعالى- : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَجِئُونَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ [المطففين: ٨ - ٩] قال ابن جرير: "يقول -تعالى- ذكروه -لنبيه محمد - ﷺ -: وأي شيء أدراك يا محمد؟، أي شيء ذلك الكتاب؟ ثم بين ذلك -تعالى- ذكروه- فقال هو ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وعنى بالمرقوم : المكتوب . " (١)

والثاني : قوله -تعالى- : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المطففين: ١٩ - ٢٠] قال: " يقول -تعالى- ذكروه -لنبيه محمد الله ، مُعَجَّبَهُ مِنْ عَلِيَّيْنِ : وأي شيء أشعرك يا محمد ما عليون ؟ وقوله : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ يقول -جل ثناؤه- : إن كتاب الأبرار لفي عليين ، ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ : أي مكتوب بأمان من الله إياه من النار يوم القيامة ، والفوز بالجنة . " (٢)

فهذان الاستفهامان في السورة : عن المكان ، فكيف يكون الجواب عن المكان بوصف الكتاب ! ، والظاهر من السياق : أن الجواب محذوف تعظيماً ، وما بعده وصف للكتاب ، لا لمكان الكتاب . -والله أعلم- (٣)

وقد جاء في الحديث القدسي عن النبي -ﷺ- أنه قال عن العبد الكافر حين يصعد به إلى السماء : "اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى" وعن العبد المؤمن : "اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة" (٤).

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله- : والسجين اسم لجهنم بإزاء عليين... وقد

(١) جامع البيان (٤٨٨/١٢) .

(٢) جامع البيان (٤٩٥/١٢) .

(٣) انظر معالم التنزيل للبعوي (٤٥٩/٤) ، وتفسير القرآن العظيم (٤٨٦/٤) ، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١٩٤/٣) ، وتفسير التحرير والتنوير (١٩٥/٣٠-١٩٦) .

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان للبيهقي (٣٥٧/١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "ورجال أحمد رجال الصحيح" (٥٠/٣) .

قيل: إن كل شيء ذكره الله -تعالى- بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فسرّه^(١)، وكل ما ذكر بقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ تركه مبهماً، وفي هذا الموضوع ذكر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وكذا في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾^(٢) ثم فسرّ الكتاب لا السجين والعليين^(٣).

وفي ختام هذا المبحث يتبين أهمية قاعدة: الكلام على اتصاله ما لم يدل دليل على انقطاعه، وأن هناك أدلة لغوية على اتصال السياق وانقطاعه يجب مراعاتها، وهناك أشياء أخرى يترك السياق لأجلها -سبق الحديث عنها-، وهذا المبحث أساس دلالة السياق؛ ولذلك طال عرض الأمثلة فيه، مع محاولتي الاختصار والاقتصار على أهم المواضيع التي فيها توضيح لطريقة التعامل مع المواضيع المماثلة -والله تعالى أعلم-.

(١) وقد وردت جملة: ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ في: الحاقة (٣)، والمدثر (٢٧)، والمرسلات (١٤)، والانفطار (١٧-١٨)، والمطففين (١٩و٨)، والطارق (٢)، والبلد (١٢)، والقدر (٢)، والقارعة (١٠و٣)، والهمزة (٥).
 (٢) المطففين (١٩).
 (٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٣٩٩).

المبحث الثاني : إذا تالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها :

معنى القاعدة : أن توارد مفردتين متجاورتين يجعل حمل الثانية نعتاً للمفردة الأولى أفضل من جعلها معنى آخر بعيد ، وسبب ذلك طلب اتصال السياق وعدم انقطاعه ، ويتضح ذلك بالأمثلة :

ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِمَلَكُمْ نَهَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣] قال أبو جعفر : " يعني بقوله: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ واذكروا أيضاً : إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان . ويعني بالكتاب : التوراة ، وبالفرقان : الفصل بين الحقّ والباطل... [ولما سُئل ابن زيد عن هذه الآية قال]...: أما الفرقان الذي قال الله -جل وعز- : ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] فذلك يوم بدر ، يوم فرق الله بين الحق والباطل ، والقضاء الذي فرق به بين الحق والباطل . قال : فكذلك أعطى الله موسى الفرقان ، فرق الله بينهم ، وسلمه وأنجاه ، فرق بينهم بالنصر ، فكما جعل الله ذلك بين محمد ﷺ - والمشركين ، فكذلك جعله بين موسى وفرعون .

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية... أن الفرقان الذي ذكر الله أنه آتاه موسى في هذا الموضع : هو الكتاب الذي فرق به بين الحقّ والباطل ، وهو نعت للتوراة وصفة لها . فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح ، وفرقنا بها بين الحقّ والباطل ، فيكون الكتاب نعتاً للتوراة ، أقيم مقامها استغناءً به عن ذكر التوراة ، ثم عطف عليه بالفرقان ، إذ كان من نعتها... وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالآية وإن كان محتملاً غيره من التأويل ؛ لأن الذي قبله من ذكر الكتاب ، وأن معنى الفرقان الفصل... فإلحاقه إذ كان كذلك بصفة ما وليه أولى من إلحاقه بصفة ما بعد منه... " (١)

وهكذا جعل الإمام الكتاب : التوراة ، والفرقان : وصفاً لها ، إلحاقاً للكلام

(١) جامع البيان (١/٣٢٣) ، وتحقيق شاکر (٧٠/٢) .

بالقريب الأولى من البعيد؛ ليتصل الكلام بعبءه ببعض، مع احتمال الأوجه الأخرى، وهو قول الراغب^(١). ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةَ وَقَدْ كَرَّمْنَا لِمَنْ تَقِيكَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]^(٢) وذكر نحوه ابن كثير^(٣)، وهو القول في تفسير الجلالين^(٤)، ورجح ابن القيم والشوكاني التفريق بينهما، بل جزم ابن القيم بتصحيح هذا القول دون غيره^(٥)، فالكتاب: هو التوراة، والفرقان: الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما، وقال: وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه^(٦)؛ ولكن يشكل عليه الآية الماضية الظاهرة من سورة الأنبياء، في أن الفرقان والتوراة والضياء والذكر أوصاف وأسماء لشيء واحد على القول الراجح، وسيأتي تفصيل هذه الآية بعد قليل -ياذن الله تعالى-.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الذِّكْرَ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكَ آيَاتِ اللَّهِ مِمَّا نَزَّلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمِمَّا لَا يَصْلِحُكَ مِنَ الظَّالِمِينَ إِلَى النَّوْرِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١] قال -رحمه الله-: "اختلف أهل التأويل في المعنى بالذكر والرسول في هذا الموضع، فقال بعضهم: الذكر: هو القرآن، والرسول: محمد -ﷺ-. وقال آخرون: الذكر: هو الرسول."

والصواب من القول في ذلك: أن الرسول ترجمة عن الذكر، وذلك نصب؛ لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة، فتأويل الكلام إذاً: قد أنزل الله إليكم يا أولي الأبواب ذكراً من الله لكم، يذكركم به، وينبهكم على حظكم، من الإيمان بالله والعمل بطاعته، رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه...^(٧)

(١) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٦٣٤).

(٢) انظر روح المعاني (جزء ١/٤١٠) فقد ذكره أول الأقوال وقال: ويؤيده...

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٨٨/١).

(٤) تفسير الجلالين صفحة (١١).

(٥) بدائع التفسير (٢٣٠/١).

(٦) فتح القدير (٨٥/١-٨٦).

(٧) جامع البيان (١٤٤/١٢).

وقال ابن كثير - رحمه الله - : "الذكر : القرآن ، كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر: ٩] والرسول مبلّغه " ، وساق رأي ابن جرير ولم يعلّق عليه ^(١) ، وفي تفسير الجلالين فرّق بين الذكر والرسول : فالذكر القرآن ، والرسول : منصوب بفعل مقدر ، أي : وأرسل ^(٢) .

وذكر الراغب - رحمه الله - : احتمالهما وجهين من الإعراب : إمّا على البدل ، وهو مثل قول ابن جرير ، أو أنّ ﴿رَسُولًا﴾ منتصب بـ ﴿ذِكْرًا﴾ كأنه قال : قد أنزل الله إليكم كتاباً ذكراً رسولاً يتلو ، نحو قوله : ﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ﴾ [البلد: ١٤ - ١٥] فإيماءً نصب بقوله : ﴿إِطْعَمٌ﴾ ^(٣) ، كما أشار الشوكاني - رحمه الله - إلى أنّه : يختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب ^(٤) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى ذكره - : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴾ العدل وهو ﴿ الْقِسْطُ ﴾ ، وجعلُ القسط وهو موحّدٌ من نعت الموازين وهو جمع ؛ لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر . " ^(٥) ففسّر - رحمه الله - الموازين بالعدل ، وأن معنى الموازين : القسط ، فهما كلمتان ، بمعنى واحد .

(١) تفسير القرآن العظيم (١٨١/٨ - ١٨٢) .

(٢) تفسير الجلالين صفحة (٤٩٧) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٣٢٨) .

(٤) فتح القدير (٢٤٧/٥) .

(٥) جامع البيان (٣٣/٩) . وانظر مواضع أخرى مشابهة : في النحل (٦٩) ﴿ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَأَسْكُرِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ الآية جامع البيان (٦١٣/٧) ، ولقمان (٣-٢) ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٢٠١/١٠) ، وفصلت (٢٨) ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ الآية جامع البيان (١٠٥/١١) ، والواقعة (٩٥) ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ مُبِينٌ ﴾ جامع البيان (٦٦٨/١١) .

وذكر القرطبي رحمه الله - الحكمة من وصف الموازين بالقسط - العدل - : فقال:
 " لينبه على مخالفتها لما يكون في وزن الدنيا من بخس وظلم. " (١)
 فهل يلزم من كلمة : ميزان معنى العدل ! ، بحيث يكون ذكر القسط بعد الميزان
 تأكيداً ؟ أم لا بد من تقييد الوزن بالقسط ؟ ؛ لنعرف سبب تفسير ابن جرير للميزان بالعدل ،
 وكون القسط نعتاً للموازين لم أرَ من خالف فيه من المفسرين . -والله أعلم- .
 وثمة تفريعات تلحق بهذه القاعدة ومنها :

- لو وجد بين المفردتين عاطف فإنها قد تلحق بسابقتها ، وقد لا تلحق :

- فمثال ما تلحق بسابقتها : ما في قوله تعالى : ﴿ وَيَبْتِهَأْ جَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (٤٦) [الأعراف: ٤٦] قال أبو جعفر : " يعني - جل ثناؤه - بقوله : ﴿ وَيَبْتِهَأْ جَابٌ ﴾ وبين الجنة والنار حجاب ، يقول : حاجز ، وهو السور الذي ذكره الله -تعالى- فقال : ﴿ فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٣) [الحديد: ١٣] وهو الأعراف التي يقول الله فيها : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ كذلك " (٢) .

وهذا القول هو الأشهر ، وهو الثابت عن الصحابة : أنه المكان المرتفع ، بين الجنة والنار ، عليه أهل الأعراف (٣) ، وقيل الأعراف : من عرفوا أهل الجنة والنار ، والحق أنه مكان (١) .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٩٤/١١) .

(٢) جامع البيان (٤٩٧/٥) ، وتحقيق شاكر (٤٤٩/١٢) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (٧٩) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ

يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية جامع البيان (٣٢٦/٣) ، والحجر

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَنَائِنِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) الآية جامع البيان (٥٤١/٧) ، وطه (١٠٧) ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِصْيَانًا

وَلَا أَمْتًا ﴾ (١٧٧) جامع البيان (٤٥٨/٨-٤٥٩) .

(٣) انظر بدائع التفسير ، الجامع لتفسير ابن القيم (٢١٤/٢) ، جمع يسري السيد محمد .

(١) روح المعاني للآلوسي (جزء ٨/١٨٤) .

وترجيح أن الأعراف مكان مرتفع وأنه أيضا الحجاب المذكور بين الجنة والنار في الآية، تطبيق لقاعدة المبحث : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها ، فالكلمة الأولى : هي كلمة : ﴿الْأَعْرَافِ﴾ ، والكلمة الثانية هي : ﴿حِجَابٌ﴾ .

وقد لا تلحق المفردة بما قبلها ؛ لأن المعنى ليس هو الأغلب في الاستعمال : كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨] قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى ذِكْرُهُ - : ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون ﴿الْفُرْقَانَ﴾ يعني به : الكتاب الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، وذلك هو التّوراة في قول بعضهم... وكان ابن زيد يقول في ذلك...: الفرقان : الحق آتاه الله موسى وهارون ، فرق بينهما وبين فرعون ، ففضى بينهم بالحقّ ، وقرأ : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] قال : يوم بدر .

قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل ؛ وذلك لدخول الواو في الضياء ، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك ، لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء ؛ لأن الضياء الذي أتى الله موسى وهارون هو التوراة ، التي أضاعت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم، فبصرهم الحلال والحرام ، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الأبصار ، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء .

فإن قال قائل : وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان ، وإن كانت فيه واو فيكون معناه : وضياء آتيناه ذلك ، كما قال : ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بِنْتِ الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا ﴿الصفات: ٦ - ٧﴾ ؟ قيل له : إن ذلك وإن كان الكلام يحتمله ، فإن الأغلب من معانيه ما قلنا ، والواجب أن يوجه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوهها المعروفة عند العرب ، ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له ، من حجة خير ، أو عقل .^(١)

(١) جامع البيان (٩/٣٤) .

فلم يحمل معنى الضياء على أنه التوراة ؛ لوجود العطف بالواو ، الدال على المغايرة بين المتعاطفين ، فلا يحمل أحدهما على الآخر ؛ لأن ذلك ليس هو الأشهر في استعمال اللغة .
وقال ابن كثير رحمه الله - : " وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغبي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ؛ ولهذا قال : ﴿ **الْقُرْآنَ وَضِيئَهُ وَذِكْرًا لِلْمُنْفِقِينَ** ﴾ ^(١) " وعلى هذا القول الآلوسي ، وأبو السعود ، وصاحب تفسير الجلالين ^(٢) ، وهذا هو الراجح - والله أعلم -، أن الضياء من آثار التوراة ، فلا مانع من أن تكون ضياء أيضاً نعتاً للفرقان ، والعطف وإن كان يعني المغايرة فإنه يحمل على المعطوف عليه ، كما سبق تفسير : الكتاب والفرقان : بالتوراة مع وجود العطف ، في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْقُرْآنَ وَضِيئَهُ وَذِكْرًا لِلْمُنْفِقِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٤٨] ^(٣) ، فلا مانع من ذلك هنا ؛ لتشابه الموضوعين ^(٤) ، ولابن القيم - رحمه الله - تفریق بينهما فأحدهما : النصر بالقوة واليد ، والثاني بالحجة والبرهان ^(٥) .

وتوقف ابن جرير - رحمه الله - في معنى الرجز : من قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٤] فقال : "...اختلف أهل التأويل في ذلك الرجز الذي أخبر الله أنه وقع بمؤلاء القوم ، فقال بعضهم : كان ذلك طاعوناً... وقال آخرون : هو العذاب...
قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال : إن الله - تعالى

(١) تفسير القرآن العظيم (١٧٧/٣) .

(٢) روح المعاني (جزء ١٧/٨٥) ، وإرشاد العقل السليم ذكره أول قول ، وذكر غيره (١٧٥/١) ، وتفسير الجلالين صفحة (٢٨٩) .

(٣) انظر روح المعاني (جزء ١/٤١٠) .

(٤) انظر أول القاعدة صفحة (٢٠٧-٢٠٨) .

(٥) انظر بدائع التفسير (١/٢٣٠) .

ذِكْرُهُ - أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز ، وهو العذاب والسخط من الله عليهم ، فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم ، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان: الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ؛ لأن كل ذلك كان عذاباً عليهم ، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان طاعوناً ، ولم يخبرنا الله أي ذلك كان ، ولا صحَّ عن رسول الله - ﷺ - بأي ذلك كان - خيرٌ فنسلم له ، فالصواب أن نقول فيه كما قال - جل ثناؤه - : ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ** ﴾ ولا نتعداه إلا بالبيان الذي لا تمنع فيه بين أهل التأويل ، وهو لما حلَّ بهم عذاب الله وسخطه ، ﴿ **قَالُوا يَا مَوْسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** ﴾ يقول: بما أوصاك وأمرك به... ﴿ **لَئِن كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ** ﴾ يقول: لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه... " (١)

فكلمة الرجز لم يفسرها بما سبقها في الآية الماضية في قوله : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ** ، آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ، ولم يفسرها بالطاعون ؛ لعدم الحجّة عن النبي - ﷺ - ولا حجّة لأحد الأقوال على الآخر .

وقد رجّح الرازي رحمه الله - صرف الرجز إلى ما سبق ؛ لأن لفظ الرجز لفظ مفرد محلى بالألف واللام ، فينصرف إلى المعهود السابق ، وهاهنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها ، وأما غيرها فمشكوك فيه (٢) ، وحمل : الألوسي وأبو السعود : معنى الرجز على كل عقوبة وقعت عليهم من العقوبات السابقة حتى طلبوا من موسى أن يدعو لهم . (٣)

(١) جامع البيان (٤٢/٦) ، وتحقيق شاکر (٧٠/١٣) .

(٢) مفاتيح الغيب (جزء ١٤/١٧٩) .

(٣) انظر روح المعاني (جزء ٥٤/٩) ، وإرشاد العقل السليم (٣٩٥/٢) .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة :

حال تتبّعك للسياق عند الإمام الطبري -رحمه الله- من خلال تفسيره جامع البيان تجده يشير إلى أن الأولى في تفسير الآية ما ورد في السورة نفسها دون ما ورد في غيرها .

وسأعرض لأمثلة هذه القاعدة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة ، وما يتعلق بها من تفصيل .

المطلب الثاني : تفسيره الآية بما ورد في السورة نفسها .

المطلب الثالث : تفسيره الآية بما ورد في السورة وغيرها من القرآن .

المطلب الرابع : تفسيره الآية بما ورد في القرآن كله .

المطلب الأول : نص القاعدة وما يتعلق بها من تفصيل :

١- نص القاعدة : واضح في تفسير ابن جرير - رحمه الله - لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] قال أبو جعفر : "اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أنزل الله - جل ثناؤه - فيه هذه الآية وفي تأويلها : فقال بعضهم... [كابن عباس وابن مسعود^(١)] : لما ضرب الله هذين المتلين للمنافقين ، - يعني قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ ، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث - ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْلَيْتَكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧] ، وقال آخرون... [كالربيع بن أنس] : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، إن البعوضة تحيا ما جاءت ، فإذا سمت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتثلوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك ، قال : ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا سُقُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُجِّجُوا بِمَا أُوْتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]... وقال آخرون [كقتادة]... : لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦] .

وقد ذهب كل قائل ممن ذكرنا قوله في هذه الآية وفي المعنى الذي نزلت فيه مذهباً، غير أن أولى ذلك بالصواب وأشبهه بالحق ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عباس،

(١) هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، كان قصيراً جداً ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، خدم النبي - ﷺ - في بيته ، نظر إليه عمر الفاروق فقال: وعاء ملئ علما ، تولى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبي - ﷺ - ، توفي بالمدينة ، سنة اثنتين وثلاثين ، وقد جاوز الستين . انظر الإصابة (٢/٣٦٠) ، ومعرفة القراء الكبار (١/٣٢) ، وغاية النهاية (١/٤٥٨) ، وشذرات الذهب (١/٣٨) ، والأعلام (٤/٢٨٠) .

وذلك أن الله جل ذكره أخبر عباده : أنه **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا** ، عقيب أمثال قد تقدمت في هذه السورة ضربها للمنافقين ، دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها ، فلأن يكون هذا القول ، - أعني قوله : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا** - جواباً لنكير الكفار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال في هذه السورة أحقّ وأولى من أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور ، فإن قال قائل: إنما أوجب أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في سائر السور؛ لأن الأمثال التي ضربها الله لهم ولآلئهم في سائر السور أمثال موافقة المعنى، لما أخبر عنه أنه : لا يستحي أن يضربه مثلاً ، إذ كان بعضها تمثيلاً لآلئهم بالعنكبوت، وبعضها تشبيها لها في الضعف والمهانة بالذباب ، وليس ذكر شيء من ذلك بموجود في هذه السورة فيجوز أن يقال : إن الله لا يستحي أن يضربه مثلاً ما ، فإن ذلك بخلاف ما ظن ، وذلك أن قول الله - جل ثناؤه - : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا** ، إنما هو خبر منه جل ذكره أنه لا يستحي أن يضرب في الحق من الأمثال صغيرها وكبيرها ، ابتلاءً بذلك عباده واختباراً منه لهم ؛ ليميز به أهل الإيمان والتصديق به، من أهل الضلال والكفر به ، إضلالاً منه به لقوم ، وهدايةً منه به لآخرين... " (١)

ففسر - رحمه الله - المراد بالأمثال بما سبق حديث الآيات عنه في سورة البقرة ، مع أن هناك أمثالا في سور أخرى تنصّ على أحقر المخلوقات ؛ وسبب ذلك : أن تفسير الآية بما ورد في السورة نفسها أولى من تفسيرها بما ورد في غيرها ، وهذه الآية فيها ذكر البعوضة وما فوقها فيدخل في المثل الصغير والكبير ، وقال ابن كثير : في سبب اختيار ابن جرير ؛ لأنه أمس بالسورة وهو مناسب (٢) ، وقدم الرازي والشوكاني لهذه الآية بربطها بما تقدم من

(١) جامع البيان (١/٢١٣-٢١٤) ، وتحقيق شاکر (١/٣٩٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٦٢) .

الأمثال^(١)، وضعف الألوحي ما لم يكن فيه ربط بما تقدم وإن جاز، فالمناسب لكل آية أن ترتبط بما قبلها^(٢).

٢- السياق الإعرابي لا يكون بين سورتين بل في سورة واحدة: ففي قوله تعالى:

﴿لَا يَلْتَمِسُ قَرْيَتَيْنِ﴾ [قريش: ١] قال -رحمه الله-: "...اختلف أهل العربية في المعنى الجالب هذه اللام في قوله: ﴿لَا يَلْتَمِسُ قَرْيَتَيْنِ﴾ ①، فكان بعض نحوي البصرة يقول: الجالب لها قوله: ﴿جَمَلَهُمْ كَمَصْفٍ مَّاكُولٍ﴾ ② [الفيل: ٥]، فهي في قول هذا القائل صلة لقوله: جعلهم، فالواجب على هذا القول، أن يكون معنى الكلام: ففعلنا بأصحاب الفيل هذا الفعل، نعمة منا على أهل هذا البيت، وإحساناً منا إليهم، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف، فتكون اللام في قوله: ﴿لَا يَلْتَمِسُ﴾ بمعنى إلى، كأنه قيل: نعمة لنعمة وإلى نعمة؛ لأن إلى موضع اللام، واللام موضع إلى، وقد قال معنى هذا القول بعض أهل التأويل... وكان بعض نحوي الكوفة يقول: قد قيل هذا القول، ويقال: إنه -تبارك وتعالى- عجب نبيه -ﷺ- فقال: اعجب يا محمد لنعم الله على قريش، في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ثم قال: فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك، يستدل بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، وكان بعض أهل التأويل يوجه تأويل قوله: ﴿لَا يَلْتَمِسُ قَرْيَتَيْنِ﴾ إلى ألفة بعضهم بعضاً...

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب، وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فليعبدوا ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف. والعرب إذا جاءت بهذه اللام، فأدخلوها في الكلام للتعجب، اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها... وأما القول الذي قاله من حكينا قوله: أنه من صلة قوله: ﴿جَمَلَهُمْ كَمَصْفٍ مَّاكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] فإن ذلك لو كان كذلك،

(١) مفاتيح الغيب للرازي (جزء ٢/١٤٤)، وفتح القدير (١/٥٦).

(٢) روح المعاني (١/٣٢٩).

لوجب أن يكون ﴿لَا يَلْفِ﴾ بعض ﴿أَلْتَرَّ﴾ [الفيل: ١]، وأن لا تكون سورة منفصلة من ﴿أَلْتَرَّ﴾ وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك ^(١). ولو كان قوله : ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾ من صلة قوله : ﴿جَمَلَهُمْ كَمَثَلِ غَاسِقٍ﴾ لم تكن ﴿أَلْتَرَّ﴾ تامّة حتى توصلَ بقوله : ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾ ؛ لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر... ^(٢)

فتبين أن وصل السورة بسورة أخرى وصلاً إعرابياً خطأ ؛ لإجماع المسلمين على أن هذه سورة ، وتلك سورة أخرى مستقلة عنها ، فلا يمكن أن يكون سياق بين سورتين. -والله أعلم- .

وقد ذكر بعض المفسرين أن مما يؤيد الاتصال بين السورتين : أن سورة الفيل وقريش في مصحف أبيّ بلا فصل ^(٣) ، وضَعَفَ الرازي هذا القول وما يؤيده ؛ لمخالفة مصحف أبيّ لما أطبقت عليه المصاحف ^(٤) .

وقال ابن كثير رحمه الله - : " قد فُصِّلَ بينهما في المصاحف بالبسملة ، وهذا لا يمنع تعلقها بما قبلها في المناسبات والارتباط ، لا في الإعراب ، وقد جزم بهذا محمد بن إسحاق ^(٥) ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . " ^(٦)

(١) انظر كلام ابن النحاس في القطع والانتناف صفحة (٧٨٤) ، تحقيق أحمد خطاب العمر .

(٢) جامع البيان (١٢/٧٠٠-٧٠٢) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/٥٧٨) .

(٤) مفاتيح الغيب (جزء ٣٢/٩٨) الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية ١٤١١ هـ .

(٥) هو أبو بكر ، وقيل أبو عبد الله ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلي ، مولا هم المدني ، إمام حافظ في المغازي والسير ، كثير اختلاف أئمة الجرح والتعديل فيه ، مع اتفاقهم على سعة علمه ، وكثرة اطلاعه ، وجلالته ، وفي تقريب التهذيب : صدوق يدلّس ورمي بالتشيع ، توفي سنة إحدى وخمسين ومائتين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٧/٣٣) ،

وتقريب التهذيب (٢/٥٤) ، ووفيات الأعيان (٤/٢٧٦) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/٥٥٧) .

٣- تفسير ما ورد في سورة بما سبق بيانه قبلها فهذا ليس ممنوع : قال -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَبُحَ ثَمَرُهَا فِي الْجَنَّةِ فَأَمَرَ آدَمُ بِهَا نَارًا فَأَخْرَجَ الْمَلَائِكَةَ أَصْفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦] :

" يعني - تعالى ذكره- بذلك : فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها- على آثار قومك الذين قالوا لك : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠] تمرداً منهم على ربهم ، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك ، فيصدقوا بأنه من عند الله - حزنًا وتلهفًا ووجدًا ، بإدبارهم عنك ، وإعراضهم عما أتيتهم به ، وتركهم الإيمان بك... " (١)

ففي هذا المثال ذكر ما يقرب من معنى هذه الآية مع سورة سابقة لها ، وهذا القرب في المعنى فقط ، وليس في ارتباط الكلام واتصاله في التركيب الإعرابي ، وهذا مذهب كثير من العلماء في المناسبات بين الآيات والصور ، والفارق واضح بين هذا والقول باتصال سورة قريش بسورة الفيل . -والله أعلم- .

(١) جامع البيان (١٧٧/٨) ، ومثله في الجاثية (٩) ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَوَائِنِنَا سَيِّئًا أَخَذَهَا حُزُونًا ﴾ الآية جامع البيان (٢٥٤/١١) .

المطلب الثاني : تفسيره الآية بما ورد في السورة نفسها، وهو على نوعين :

النوع الأول : بدون تضعيف لما لم يرد فيها .

النوع الثاني : قد يورد ما في السورة ويضعف غيره .

النوع الأول : بدون تضعيف لما لم يرد فيها : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُصَدِّقَنَّ عَنْ مَائِدَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الفصل: ٨٧] حيث قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى ذكره-: ولا يصرفنك عن تبليغ آيات الله وحججه بعد أن أنزلها إليك ربك يا محمد هؤلاء المشركون بقولهم : ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ [الفصل: ٤٨] وادع إلى ربك وبلغ رسالته إلى من أرسلك إليه بها..."^(١)

فسر صدّ النبي - ﷺ - عن آيات الله بعد إذ أنزلت عليه ، بقول المشركين له في آية وردت في السورة نفسها ، وفيها صدّ وصرّف عن رسالته ، بحجّة أن القرآن ليس مثل التوراة في قولهم : ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ .

-وقد يفسّر الآية بشيئها في السورة ، فعند قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن قَبْلِ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَأْتِهِمْ قَرَاطِيسَ بُدُونِهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِّمْتُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا أَنْتُمَا وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] قال - رحمه الله - : " وأما قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ فإنه أمرٌ من الله - جلّ ثناؤه - نبيه محمداً - ﷺ - أن يجيب استفهامه هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه ، بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَأْتِهِمْ قَرَاطِيسَ بُدُونِهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا ﴾ بقيل : الله ، كما أمره إياهم في موضع آخر في هذه السورة بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنًا أَجْمَعًا مِنْ هَلْوَءٍ لَّنْ تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣] ، فأمره باستفهام المشركين عن ذلك ، كما أمره باستفهامهم

إذ قالوا: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] عمن أنزل الكتاب الذي به موسى نُوراً وهدى للناس ، ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقبيله : ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كُفْرٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤] ، كما أمره بالإجابة هاهنا عن ذلك بقبيله : ﴿اللَّهُ﴾ أنزله على موسى . " (١)

ففسر هذه الآية بأنها مشتملة على أمر بسؤال المشركين وأمر بالجواب الصحيح عليه في قضية التنزيل ، تماماً كما سبق في السورة نفسها ، أمر بالسؤال وأمر بالجواب في قضية التصرف في الكون وإنحاء المسافر من ظلمات البرّ والبحر في آية ماضية من هذه السورة .

- وقد يفسر الآية بمعنى ما ورد في السورة وهو الأغلب ، قال في قوله تعالى :

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعَالَمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] "يعني - جلّ ثناؤه- بقوله : ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ﴾ يا محمد هوى هؤلاء اليهود والنصارى ، فيما يرضيهم عنك من تهود وتنصّر ، فصرت من ذلك إلى إرضائهم ، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضاللتهم وكفرهم بربكم ، ومن بعد الذي اقتضت عليك من نبأهم في هذه السورة... " (٢)

وفي قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ

وَمَا تَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

﴾ [البقرة: ٢٥٣] قال أبو جعفر : " يعني - تعالى ذكره- بقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ قِصصَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، كَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَشَمُوعَ ، وَدَاوُدَ ،

(١) جامع البيان (٢٦٦/٥) ، وتحقيق شاکر (٥٢٨/١١) .

(٢) جامع البيان (٥٦٥/١) ، وتحقيق شاکر (٥٦٣/٢) .

(٣) هو النبي الذي قص الله -تعالى- قصته ، وكان في بني إسرائيل من بعد موسى -ﷺ- ، وقيل اسمه يوشع بن نون ، وقد =

وسائر من ذكر نبأهم في هذه السورة... " (١)

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤] قال - رحمه الله - "...وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يقول - تعالى ذكروه - : لله الأسماء الحسنى ، وهي هذه الأسماء التي سَمَى الله بها نفسه ، التي ذكرها في هاتين الآيتين... " (٢)

روى ذلك عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (جزء ١/٩٧) ، ورجَّح ذلك ابن كثير في تفسيره (١/٢٨٤).

(١) جامع البيان (٣/٣) ، وتحقيق شاکر (٥/٣٧٨) .

(٢) جامع البيان (١٢/٥٤) . وانظر أمثلة أخرى في : آل عمران (٤٤) { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } الآية ، جامع

البيان (٣/٢٦٥) ، والنساء (١٧٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ جامع البيان

(٤/٣٧٧) ، والمائدة (١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ

أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٤٨٥) ، و(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْتُمْ مَنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا

يَعْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ الآية ، جامع

البيان (٤/٥٤٦) ، و(٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٦٤٦) ، و(٦٨) ﴿قُلْ يَأَهْلَ

الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٦٤٩) ، والأنعام

(١٠٤) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية ، جامع البيان (٥/٢٩٩) ، والتوبة (١٢٤) ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَوَنتَهُمْ مَنْ يَقُولُ

أَيْتَكُمْ زَادَتْهُ هَلْوَءٌ يُمِنُّنَا فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ يُمِنُّنَا﴾ الآية ، جامع البيان (٦/٥١٨) ، وهود (١٠٠) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الْقُرْآنِ نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ ، جامع البيان (٧/١١٠) ، و(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ

أُولُوا بِعِيقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/١٣٥) ، ويوسف (١٠٢)

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣١٠) ، والرعد (٣٤) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَلَذَابُ

الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣٩٥) ، وإبراهيم (٥٢) ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ

وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ ، جامع البيان (٧/٤٨٧) ، والحجر (٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

الآية ، جامع البيان (٧/٥٣٢) ، والنحل (٢٣) ﴿لَا جُرْمَ أَعْيُنَ اللَّهِ يَحْكُمُ مَا يُشَاءُ وَمَا يُغْنِي عَنْكَ الْغَنَى وَالْغَنَى مِنَ اللَّهِ فَكُلُوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ

الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآية ، جامع

(٧/٥٧٤) ، و(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رَدْفًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ، جامع

فهذه الأمثلة وما في معناها تؤكد وتوضح منهج التفسير للآية بما ورد في السورة نفسها قبل غيرها من السور ، وإن كان غير باطل التفسير بغيره - كما في تنوع تفسيرات الإمام للآيات - حسب التقسيم الوارد في هذا المبحث - والله أعلم - .

النوع الثاني : قد يورد ما في السورة ويضعف غيره :

كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦] قال - رحمه الله -: "...اختلف في تأويل الرجوع الذي في قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ : فقال... [بعضهم كأبي العالية^(١)] : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة . وقال آخرون: معنى ذلك أنهم إليه يرجعون بموتهم .

وأولى التأويلين بالآية القول الذي قاله أبو العالية ؛ لأن الله - تعالى ذكّره- ، قال في الآية التي قبلها : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] فأخبر - جل ثناؤه - أن مرجعهم إليه بعد نشرهم وإحيائهم من ماتهم ، وذلك لا شك يوم القيامة ، فكذلك تأويل قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ " .^(٢)

البيان (٦٢٠/٧) ، ومريم (٥٨) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٥٣/٨) ، وطه (٩٩) ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٥٥/٨) ، والنمل (٥٩) ﴿ قُلِ لَمَعَدُ لِلَّهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/١٠) ، والذاريات (٥٠) ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، جامع البيان (٤٧٣/١١) ، والنجم (٢٣) ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ مِمَّنْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حُلِيِّمِهِ مَا قَرَّبَهَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ قَرَّبَهُمَا وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ قَرَّبَهُ وَاسْمَاءَ إِذْ قَرَّبَهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٢٣/١١) ، والإنسان (٢٩) ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَيْكَ ذُرِّيَّتَهُ سَبِيلًا ﴾ ، جامع البيان (٣٧٥/١٢) .

(١) هو رفيع بن مهران البصري ، مقرر مفسر ، من كبار التابعين ، أدرك زمن النبي - ﷺ - وهو شاب ، وأسلم في خلافة الصديق ، قرأ على أبي بن كعب وغيره ، توفي سنة ثلاث وتسعين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٢٠٧/٤) ، وغاية النهاية (٢٨٤/١) .

(٢) جامع البيان (٣٠٢/١) ، وتحقيق شاكر (٢٢/٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] قال - رحمه الله - : "...وقوله: ﴿وَقَدَّ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ اختلَف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معناه : ولقد علمت الجنة إنهم لمُشاهدون الحساب...وقال آخرون : معناه : إن قائلِي هذا القول سيُحضرُون العذاب في النار...

وأولى القولين في ذلك بالصواب : قول من قال : إنَّهم لمُحَضَّرُونَ العذاب ؛ لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة ، إنَّما عُنِيََ به الإحضار في العذاب ^(١) ، فكذلك في هذا الموضع . " ^(٢)

وفي هذين المثالين تضعيف التفسير الذي لم يرد في السورة ؛ لأنه يتغير المعنى معه أو يبعد ، وهناك فرق بين أمثلة هذا القسم وبقية الأقسام التي لا يضعف فيها الوارد في غير السورة ، أما التفسير بالتمثيل على شيءٍ وَرَدَ ذِكْرُهُ في الآية فإنه كثيرٌ في القرآن ، وكتاب الله عزَّ وجلَّ - يفسر بعضه بعضاً .

(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] ، وهذه الآية مثلهما .

(٢) جامع البيان (١٠/٥٣٥-٥٣٦) . ومثلهما في البقرة (١٢٤) ﴿وَإِذْ أَسْنَأَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] الآية ، جامع البيان (١/٥٧٧) .

المطلب الثالث : تفسيره الآية بما ورد في السورة وغيرها من القرآن :

فقد حكى ابن جرير - رحمه الله - الإجماع من أهل التأويل على تفسير آية بما ورد في السورة ، مع الجزم بدخول غيرها من السور في معناها : فعند قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] قال أبو جعفر : " يقول - تعالى ذكروه - : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ الذين كانوا قبلك ، ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فلا تجزع من تكذيب من كذبتك من قومك ، ورد عليك ما جنتهم به ، ولا يضق صدرك فتترك بعض ما أنزلت إليك ، من أجل أن قالوا : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود: ١٢] ، إذا علمت ما لقي من قبلك من رسلي من أمها... وأما قوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله : فقال بعضهم : معناه : وجاءك في هذه السورة الحق... وقال آخرون : معنى ذلك : وجاءك في هذه الدنيا الحق... .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في تأويل ذلك : قول من قال : وجاءك في هذه السورة الحق ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله ، فإن قال قائل : أو لم يجيء النبي - ﷺ - الحق من سور القرآن إلا في هذه السورة ؛ فيقال : وجاءك في هذه السورة الحق ؟ قيل له : بلى قد جاءه فيها كلها ، فإن قال : فما وجه خصوصه إذاً في هذه السورة بقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ ؟ قيل : إن معنى الكلام : وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر سور القرآن ، أو إلى ما جاءك من الحق في سائر سور القرآن ، لا أن معناه : وجاءك في هذه السورة الحق دون سائر سور القرآن .^(١)

وفي هذا الموضع حكى الإجماع ابن جرير - رحمه الله - على أن اسم الإشارة راجع إلى السورة ذاتها دون غيرها ، وأن هذا التثبيت لئلا يزيغ عما قالوا سابقاً : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ

(١) جامع البيان (٧/١٤٢-١٤٤) ، وتحقيق شاکر (١٥/٥٣٩) .

جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴿هود: ١٢﴾ ، ولا يعني ذلك خروج غيرها من السور عن الحق -حاشا وكلا- وإنما المراد جاءك في هذه السورة مع غيرها ، فهو حق مضاف إلى حق .

وفي قوله تعالى : ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصفافات: ١٨١] قال رحمه الله - : " يقول : وأمنة من الله للمرسلين الذين أرسلهم إلى أمهم الذين ذكروهم في هذه السورة وغيرهم ، من فرع يوم العذاب الأكبر ، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قبل الله -تبارك وتعالى- . " (١)

وهذه الأمثلة توضح أنه ينبغي ذكر ما ورد في سياق السورة مما يتصل بالمعنى ، ولا يمتنع دخول غيره إن كان المعنى متماثلاً .

(١) جامع البيان (٥٤٣/١٠) . وانظر بقية الأمثلة في : الأنعام (١٢٦) ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ، جامع البيان (٣٤١/٥) ، والأعراف (١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٨/٦) ، والرعد (٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] الآية جامع البيان (٣٩٨/٧) ، والنحل (٤٩) ﴿وَلَوْ يَسْجُدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ، جامع البيان (٥٩٤/٧) ، و(١٢٥) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية ، جامع البيان (٦٦٣/٧) ، والأنبياء (٣٧) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُولِكُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، جامع البيان (٢٨/٩) .

المطلب الرابع : تفسيره الآية بما ورد في القرآن كله :

ففي قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا
 أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَنْفَكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾
[البقرة: ٢١٩] قال أبو جعفر: "... يعني بقوله - عز ذكره - : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾
 هكذا بيّن ، أي : كما بينت لكم أعلامي وحججي ، وهي آياته في هذه السورة ،
 وعرفتكم فيها ما فيه خلاصكم من عقابي ، وبينت لكم حدودي وفرائضي ، ونبهتكم فيها
 على الأدلة على وحدانيتي ، ثم على حجج رسولي إليكم ، فأرشدتكم إلى ظهور الهدى ،
 فكذلك أبين لكم في سائر كتابي الذي أنزلته على نبيي محمد - ﷺ - آياتي وحججي ،
 وأوضحها لكم لتفكروا في وعدي ووعدتي وثوابي وعقابي ، فتختاروا طاعتي التي تالون بها
 ثوابي في الدار الآخرة ، والفوز بنعيم الأبد على القليل من اللذات ، واليسير من الشهوات ،
 بركوب معصيتي في الدنيا الفانية، التي من ركبها كان معاده إليّ ، ومصيره إلى ما لا قبل له به
 من عقابي وعذابي . " (١)

وهذا النوع تدل عليه الكلمة : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ فهي تشبيه ما ورد في السورة بما جاء في
 القرآن كله .

وفي ختام المبحث : تبين أن منهج ابن جرير - رحمه الله - مراعاة اتصال السياق في
 السورة ، وأن كل سورة لها استقلالها في المعنى والتركيب اللغوي ، وأن الأولى تفسير الآية بما
 ورد في سياق السورة مما يتصل بمعناها ، وقد يضعف ما لم يرد في السورة وقد لا يضعفه ،
 وقد يفسر الآية بما ورد في القرآن كله ، والسبب في مثل هذا التنوع - والله أعلم - وضوح
 المعنى في الآيات عند التفسير بما ورد في السورة وغيرها ، وأن التفسير قد يشمل العموم وقد
 لا يحتمله .

(١) جامع البيان (٣٨١/٢) ، وتحقيق شاکر (٣٤٧/٤) . وانظر أمثلة أخرى في : الأنعام (٥٥) ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ

وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ جامع البيان (٢٠٧/٥) ، والأعراف (١٧٤) ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

جامع البيان (١١٨/٦) ، والروم (٢٩) ﴿ صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٨٢/١٠) .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها :

إن النظر إلى ابتداء الكلام الفصيح البليغ -وأولى ذلك كلام الله -مُعِينٌ على معرفة مناسبة ختامه ، ففواصل القرآن حين يُتَمَلُّ في مناسبة ختامها لابتدائها يخرج من هذا بفوائد كبيرة ، ولم تكن المناسبة هي آخر الفوائد بل يتلوها فوائدها أعظم ، وأهمها معرفة المعنى .

هذا وإن النظر إلى أول الكلام وآخره هو تطبيق لمسألة السياق .

وسأسوق أمثلة هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : ابتداء الآية معين على معرفة مناسبة ختامها : وهو قسمان :

١ - ختام الآيات بالأسماء الحسنى .

٢ - ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنى .

المطلب الثاني : ابتداء الآيات معين على معرفة معنى ما بعدها .

المطلب الثالث : ختام الآية يعين على معرفة معنى أولها .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير -رحمه الله- قاعدة النظر إلى ابتداء

الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها .

المطلب الأول: ابتداء الآية معين على معرفة مناسبة ختامها: وهو قسمان :

١- ختام الآيات بالأسماء الحسنی .

٢- ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنی .

١- ختام الآيات بالأسماء الحسنی :

سيأتي في الأمثلة توضيح لمنهج ابن جرير - رحمه الله - في تفسير الأسماء الحسنی ، بما يناسب ورودها في ختام الآية ، بعد سياق جمل متعددة في موضوع معين ، فهي تعتبر من قواعده في التفسير بالسياق ؛ مما يعطي الاهتمام بالسياق ووجوب مراعاته .

ففي قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ وَمِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يَوْصِيكُمْ بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرَّبْعُ وَمِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ وَمِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِنْ كَانَتْ دَجُلٌ يُوْرَثُ كَالثَّلَاةِ أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدْهُنَّ إِنْ كَانَ لَهُنَّ أَكْثَرٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُنَّ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يَوْصِي بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرَ مُضَاكِرٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾ [النساء: ١٢] قال - رحمه الله - في ختام الآية : " ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يقول : ذو علم بمصالح خلقه ومضارهم ، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسابه من ميراثه ، ومن يحرم ذلك منهم ، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسماً ، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم . ﴿حَلِيمٌ﴾ يقول : ذو حلم على خلقه وذو أناة في تركه معاجلتهم بالعقوبة ، على ظلم بعضهم بعضاً في إعطائهم الميراث لأهل الجلد والقوة من ولد الميت وأهل الغناء والبأس منهم ، دون أهل الضعف والعجز من صغار ولده وإناثهم . " (١)

فمع عموم علم الله - عز وجل - وحلمه على جميع الخلق ، إلا أن ورود الاسمين الجليلين في ختام آية الموارث يجعل تعيين العلم المقصود أولاً : العلم بحال الورثة ، ومن

(١) جامع البيان (٣/٦٣١) ، وتحقيق شاکر (٦٨/٨) .

أنفعهم للمورث ، ويجعل تعيين الحلم المقصود أولاً : الحلم في ترك معاجلة المخالف في توزيع الإرث على خلاف ما شرعه الله تعالى ؛ لدلالة السياق .

وهكذا دواليك في الأمثلة التالية : في قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْتُمَا يَتَقَيَّنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ مَّائِدَةِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] قال رحمه الله - : " وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يقول - تعالى ذكروه- : إن الله كان ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً . " (١)

وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَائِدَتِي لِيُغْرِكُمْ فِي الْوَرْدِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ٩ ﴾ [الحديد: ٩] قال رحمه الله - : " وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ يقول - تعالى ذكروه- : وإن الله بإنزاله على عبده ما أنزل عليه من الآيات البينات - لهدايتكم وتبصيركم الرشاد- لذو رافة بكم ورحمة ، فمن رأفته ورحمته بكم فعمل ذلك . " (٢)

ففي الأمثلة الماضية ونحوها تلحظ أن أسماء الله عز وجل - لها دلالاتها ومعانيها مطلقاً ، ومن السبل المهمة للوصول إلى معانيها الظاهرة الحاضرة في الآية : النظر إلى أول الآية ، إذ أن أول الآية أو ما يسبق من الكلام ، يعين على معرفة مناسبة الختام ، الجالب حتماً لمعرفة المعنى بدقة وصفاء وجلاء .

٢- ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنى : سبق الحديث عن الختام

بالأسماء الحسنى، وهنا عن ختم الآية بغير الأسماء الحسنى ، وتحت هذا النوع أمثلة كثيرة منها:

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

(١) جامع البيان (١٠/٢٩٩) .

(٢) جامع البيان (١١/٦٧٣) . وانظر أمثلة أخرى في البقرة (٢٥٦) ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ الآية ، جامع

البيان (٣/٢٣) ، والأنفال (٦١) ﴿ وَإِنْ جَحَدُوا لِلسَّلَامِ فَاتَّبِعْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الآية ، جامع البيان (٦/٢٧٩) ، والحج

(٧٤) ﴿ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرْتَهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَزِيمٌ ﴾ جامع البيان (٩/١٩٠) ، والشعراء (٢٢٠) ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴾ جامع البيان (٩/٤٨٧) ، وغيرها كثير .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ [البقرة: ٣٣] قال رحمه الله - : في قوله عز وجل - : ﴿وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فروي عن ابن عباس في ذلك... : ﴿وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية ، يعني : ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز... وقال الحسن :... إن الله لما خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجيباً ، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، فأقبل بعضهم إلى بعض ، وأسروا ذلك بينهم ، فقالوا : وما يهمكم من هذا المخلوق ، إن الله لم يخلق خلقاً إلا كئنا أكرم عليه منه... وعن قتادة [نحو قول الحسن] .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن معنى قوله : ﴿وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ﴾ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرون بألسنتكم ، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وما كتمت تخفونه في أنفسكم ، فلا يخفى عليّ شيء ، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم ، والذي أظهره بألسنتهم ما أخبر الله - جلّ ثناؤه - عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] والذي كانوا يكتُمونه : ما كان منطوياً عليه إبليس ، من الخلاف على الله في أمره ، والتكبر عن طاعته ؛ لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت... فإذا كان لا قول في تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت ، ثم كان أحدهما غير موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذي يجب التسليم له ، صحّ الوجه الآخر... فالذي حكى عن الحسن و قتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك ، غير موجودة الدلالة على صحته من الكتاب ولا من خبر يجب به حجة ، والذي قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبر الله - جلّ ثناؤه - عن إبليس وعصيانه إياه إذ دعاه إلى السجود لآدم ، فأبى واستكبر ، وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره ، ما كان له كاتماً قبل ذلك...^(١)

(١) جامع البيان (١/٢٥٩-٢٦١) ، وتحقيق شاکر (١/٤٩٨) .

فمع أن علم الله - عز وجل - عام لكل ما يظهر ويسرّ من الخلق ، إلا أن السياق يجعل ذكر المناسب للسياق - بالنص عليه - له داع في التفسير ، وما لم يدل عليه دليل فيطرح القول به .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِإِذِكِ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قال أبو جعفر : "وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ يقول : والله يعلم ما تصنعون أيها الناس في صلاتكم ، من إقامة حدودها وترك ذلك ، وغيره من أموركم ، وهو مجازيكم على ذلك ، يقول : فاتقوا أن تضيعوا شيئاً من حدودها . -والله أعلم- . " (١)

فجعل المتحدث فيه ، وهو الصلاة والأمر بإقامتها هو الذي يعلمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ، وأدخل غيرها من أمور العباد أيضاً .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قال -رحمه الله- : " يقول - تعالى ذكروه- : وإن تعدّوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها ، والقيام بشكرها إلاّ بعون الله لكم عليها . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ يقول : إن الإنسان الذي بدّل نعمة الله كفراً ﴿ لَظَلُومٌ ﴾ : يقول : لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه ، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحقّ عليه إخلاص العبادة له ، فبعد غيره ، وجعل له أنداداً ليضلّ عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وقوله : ﴿ كَفَّارٌ ﴾ يقول : هو جحود نعمة الله التي أنعم بها عليه ؛ لصرفه العبادة إلى غير من أنعم عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه . " (٢)

فقول الإمام : إنّه الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً ، رجوع إلى الآيات السابقة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]

(١) جامع البيان (١٠/١٤٨) .

(٢) جامع البيان (٧/٤٥٩) .

الآيات (١).

(١) إبراهيم (٢٨-٣٠). وانظر مواضع أخرى في: البقرة (٤٨) ﴿ وَأَنفُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي تَكُنُّ عَن نَّفْسِنَا وَلَا يُقْبَلُ مِنهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٣٨) ، جامع البيان (٣٠٦/١) ، والأعراف (٢٠٥) ﴿ وَأذْكُرْ تَكُونَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣٥) ، جامع البيان (١٦٦/٦) ، والتوبة (٤٧) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا جَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٥/٦) ، و (٤٩) ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَقْدَانَ لِي وَلَا تَفْتَحِي ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٧/٦) ، و (١١٢) ﴿ أَتَشْكُرُونَ الْمَسْجُودَاتِ الْمَسْجُودَاتِ السَّاجِدَاتِ الرَّكْعَاتِ السَّاجِدَاتِ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣) ، جامع البيان (٤٨٧/٦) ، ويونس (٣٦) ﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُ إِلَّا طَنًا ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٦١/٦) ، و (٣٩) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٦٢/٦) ، و (٩٠) ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَقِيمَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٨) ، جامع البيان (٦٠٤/٦) ، و (١٠٠) ﴿ وَمَا كَانَتْ لِيَقِينِ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٦١٦/٦) ، وهود (٥٠) ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرُونَ ﴾ (٥) ، جامع البيان (٥٧/٧) ، ويوسف (٨) ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَحَسُّنَا عُنُوبَهُ إِنْ أَتَانَا لَيَضَلَّ لِيُبِينَنَّ ﴾ (٨) ، جامع البيان (١٥٢/٧) ، و (١٤) ﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبْثُ وَحَسُّنَا عُنُوبَهُ إِنْ أَتَانَا لَيَحْنُرُنَّ ﴾ (١٤) ، جامع البيان (١٥٧/٧) ، و (١٨) ﴿ وَجَاءَهُ عَلَىٰ قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبًا قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ جامع البيان (١٦٢/٧) ، و (٢١) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اشْتَرَيْتَهُ مِن يَمِينِ لَأَمْرًا أَكْرَمِي مَتُونَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَكَّا ﴾ الآية ، جامع البيان (١٧٤/٧) ، و (٤٤) ﴿ قَالُوا أَضَلَّعَتْ أَحْلَامِي وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٤٤) ، جامع البيان (٢٢٤/٧) ، والنحل (٣٥) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، جامع البيان (٥٨٢/٧) ، و (٤٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٨٧/٧) ، و مريم (٣٧) ﴿ فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِن بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴾ (٣٧) ، جامع البيان (٣٤٣/٨) ، والحج (٥٤) ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ جامع البيان (١٧٩/٩) ، والمؤمنون (١٧) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْمَكُم مِّن سَعْيِ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَالِقِ غَافِلِينَ ﴾ (١٧) ، جامع البيان (٢٠٦/٩) ، والشعراء (٢٠٩) ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرِينَةٍ إِلَّا لَمَّا سُئِرَتْ ﴾ (٢٠٩) ، جامع البيان (٤٨٠/٩) ، والقصاص (٤) ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدْعِيْنَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَعِيْنَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤) ، جامع البيان (٢٧/١٠) ، و (٩) ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٣/١٠) ، و (٥٧) ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَّبِيْعُ الْمَدْيَنِ مَعَكَ نَنْخَلِفْ مِن أَرْضِنَا ﴾ جامع البيان (٩٠/١٠) ،

المطلب الثاني : ابتداء الآيات معين على معرفة معنى ما بعدها :

١- وقد يكون ذلك بعد طول فصل : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٣٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩] قال -رحمه الله- : " يقول : فقرأ هذا القرآن على كفار قومك يا محمد ، الذين حتمت عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : لم يكونوا ليؤمنوا به ؛ لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء ، وهذا تسليية من الله نبيه محمداً - ﷺ - عن قومه ؛ لئلا يشتمد وجهه بإدبارهم عنه ، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن ؛ لأنه كان - ﷺ - شديداً حرصه على قبولهم منه ، والدخول فيما دعاهم إليه ، حتى عاتبه ربه على شدة حرصه على ذلك منهم ، فقال له : ﴿ لَمَّا كَانَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُقْرَأُ الرِّسَالَةَ وَهُمْ يُقْرَءُونَهَا مُعْجَمًا كَأَن لَّمْ يَعْلَمِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٣] ، ثم قال مؤيسه من إيمانهم وأهم هالكون ببعض مثلاته ، كما هلك بعض الأمم الذين قص عليهم قصصهم في هذه السورة: ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا محمد لا عليك ، فإنك رجل منهم ، ويقولون لك : ما

والعنكبوت (١٣) ﴿ وَيَخِيلُ لُنَّ أَنَّا آفَاقُهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَقْبَالِهِمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/١٢٦) ، و(٣٤) ﴿ إِنَّا مَنزُلُونَا عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ جامع البيان (١٠/١٣٩) ، و(٤٢) ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبَابٍ وَإِن جَاءَهَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَالْحَيَاءُ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ جامع البيان (١٠/١٥٩) ، و(٦٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا بَيْنَنَا وَمَنْ نَنزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ مِنَ الْقُرْآنِ وَنَنزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ مِنَ الْقُرْآنِ وَنَنزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ مِنَ الْقُرْآنِ وَنَنزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/١٦٠) ، ولقمان (٢٥) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/٢٢٠) ، والزمر (٢٦) ﴿ فَاذْقَاهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية جامع البيان (١٠/٦٣) و(٦٣) ﴿ اللَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/٢٢) ، والدخان (٢٠-٢١) ﴿ وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَن تَرْهُونِي ﴿٢٠﴾ ﴾ جامع البيان (١١/٢٣٣) ، والجاثية (١٩) ﴿ إِنِّيئْتُمْ كُن يَتَعَوَّاهُ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ سَعِيًّا ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/٢٥٩) ، والمملك (٢٨) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/١٧٤) ، والمرسلات (١٥) ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

أنت إلا بشر مثلنا ، وهلا نزل به ملك ، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن ، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق ، وأنه تنزيل من عندي ، ما كانوا به مصدقين ، فحفض من حرصك على إيمانهم به .^(١)

فاتضح المراد من قوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ (٣٨) فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿ ٣٨ ﴾ بما افتتحت به السورة ، من تسلية النبي - ﷺ - ؛ لعدم إيمانهم بقوله تعالى له : ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمِ فَسْكَ آيَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٩) ، مما أكد أن المعنى أن هدايتهم التوفيقية ليست بيد النبي ﷺ بل هي بيد الله - عز وجل - ، وهذا الفاصل بين الآيتين بعيد محله ، لكنه فاصل بقصص كلها لتأكيد لهذا المعنى ، فليس بعيداً على الحقيقة ، خاصة إذا استحضر المتأمل : أن فواتح السور وخواتمها تخدم مقاطعها ، وتتحد بهذا محاور السورة ومواضيعها . -والله أعلم - .

٢- وقد يكون المعين على معرفة المعنى قريباً في الآية نفسها وهو الأكثر :

كما في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] قال - رحمه الله - : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم... وما كان الله ليطلع محمداً على الغيب ، ولكن الله اجتباه فجعله رسولاً ، وقال آخرون :... أي : فيما يريد أن يتليكم به ؛ لتحذروا ما يدخل عليكم فيه ، : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يعلمه .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بتأويله : وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده ، فتعرفوا المؤمنين منهم ، من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالحن والابتلاء - كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد - وجهاد عدوه ، وما أشبه ذلك من صنوف الحن ، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، غير أنه - تعالى ذكره - يجتبي من رسله من يشاء ،

(١) جامع البيان (٩/٤٧٨) .

فيصطفيه ، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم بوحيه ذلك إليه ورسالته... وإنما قلنا هذا التأويل أولى بتأويل الآية ؛ لأن ابتداءها خبر من الله - تعالى ذكروه- أنه غير تارك عباده - يعني : بغير محن - حتى يفرق بالابتلاء بين مؤمنهم وكافرهم وأهل نفاقهم ، ثم عقب ذلك بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْعَيْبِ ﴾ ، فكان فيما افتتح به من صفة إظهار الله نفاق المنافق وكفر الكافر ، دلالة واضحة على أن الذي ولي ذلك هو الخبر عن أنه لم يكن ليطلعهم على ما يخفي عنهم من باطن سرائرهم ، إلا بالذي ذكر أنه مميّز به نعتهم ، إلا من استثناه من رسله الذي خصه بعلمه . " (١)

فلما نظر الإمام الطبري - رحمه الله - إلى ما سبقها من الحمل ، تبين له أن المراد بالغيب : ظهور كفر الكافر ونفاق المنافق ، إذاً الافتتاح بأي خبر الأولى في معنى ما وليه أن يكون متعلقاً به ، فيحمل معنى قوله : ﴿ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْعَيْبِ ﴾ على معرفة ضمائر قلوب العباد ، وتمييز المؤمن من الكافر والمنافق ، وهذا النظر الدقيق إذا أتبع فهو المعين على المعنى الصحيح السليم - إن شاء الله - .

وفي قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَثَرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكَّنْهُدَى مُسْتَقِيمًا ﴾ [الحج: ٦٧] قال - رحمه الله - : " وقوله : ﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ يقول - تعالى ذكروه- : وادع يا محمد منازعك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك ، بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك ، وبعد التصديق بما جنتهم به من عند الله ، وتجنّبوا الذبح للآلهة والأوثان وتبرّءوا منها ، إِنَّكَ لَعَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، غير زائل عن محجة الحقّ والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك ، وهم الضلال على قصد السبيل ؛ لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ، ومطاعهم ، وعبادتهم الآلهة . " (٢)

وهنا جعل الإمام الطبري - رحمه الله - المقصود بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾

(١) جامع البيان (٣/٥٢٩-٥٣٠) ، وتحقيق شاکر (٧/٤٢٦) .

(٢) جامع البيان (٩/١٨٦) .

رَبِّكَ ﴿ الدعوة إلى المنسك وهو الذبح ؛ لأن الجملة الماضية مخيرة عن أن الأمم كلها لها منسك، فالذي يؤمر به الرسول - ﷺ - هنا هو الدعوة إلى توحيد الله في المنسك ، وعدم الاكتراث لشبهه المشركين فيه قبل أن يكون المعنى الدعوة المطلقة .

وفي آيتين متشابهتين وهما قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَوْلَادُكُمْ بِفِتْنَةٍ وَآتَى اللَّهُ عِنْدَهُ جِزْيًا عَظِيمًا ﴾ [الأنفال: ٢٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا آمَنَ أَوْلَادُكُمْ بِفِتْنَةٍ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥] .

قال -رحمه الله- في الآية الأولى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَوْلَادُكُمْ بِفِتْنَةٍ وَآتَى اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ " يقول - تعالى ذِكْرُهُ- للمؤمنين : واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي حولكموها الله ، وأولادكم التي وهبها الله لكم ، اختبار وبلاء ، أعطاكموها ليختبركم بها ويتليكم ؛ لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها ، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها ، ﴿ وَأَتَى اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يقول : واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم ، في أموالكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا ، وأطيعوا الله فيما لكم فيها ، تناولوا به الجزيل من ثوابه في معادكم . " (١)

وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا آمَنَ أَوْلَادُكُمْ بِفِتْنَةٍ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ قال -رحمه الله- : " يقول - تعالى ذِكْرُهُ- : ما أموالكم أيها الناس وأولادكم إلا فتنة ، يعني : بلاء عليكم في الدنيا ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول : والله عنده ثواب لكم عظيم ، إذا أنتم خالفتهم أولادكم وأزواجكم في طاعة الله بركم ، وأطعتم الله -عز وجل- وأديتم حق الله في أموالكم ، والأجر العظيم الذي عند الله الجنة . " (٢)

(١) جامع البيان (٦/٢٢٢) .

(٢) جامع البيان (١٢/١١٨-١١٩) ، وتحقيق شاکر (٤٨٦/١٣) . وانظر مواضع أخرى في النساء (١١٩-١٢٠) ﴿ وَمَنْ

يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا كَثِيرًا ﴾ [الآيتين ، جامع البيان (٤/٢٨٥) ، والزمر (٣)-

(٤) ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الآيتين ، جامع البيان (١٠/٦١٢) .

فخصّ المعنى في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وفي قوله : ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بما كان السياق فيه ، وهو الحديث عن الموفق والمستقيم عند حصول الفتنة في الأموال والأولاد .

المطلب الثالث: ختام الآية يعين على معرفة معنى أولها :

الكلام المتتابع يجب أن يكون مرتبطاً ببعضه ببعض ، وقد سبق أن أول الكلام يعين على الوصول إلى المعنى ، وكذلك آخر الكلام يعين على الوصول إلى معنى أوله ، وإليك بعض الأمثلة :

ففي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالاَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠] قال أبو جعفر : "يقول - تعالى ذكره- : أقسم لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على الإخلاص وتوحيدنا ، والعمل بما أمرناهم به ، والانتفاء عما نهيناهم عنه ، وأرسلنا إليهم بذلك رسولاً ، ووعدناهم على ألسن رسلنا إليهم على العمل بطاعتنا الجزيل من الثواب ، وأوعدناهم على العمل بمعصيتنا الشديد من العقاب ، كلما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهي نفوسهم ، ولا يوافق محبتهم ، كذبوا منهم فريقاً ، ويقتلون منهم فريقاً ، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجرأة علينا ، وعلى خلاف أمرنا ."^(١)

فالميثاق المذكور في أول الآية في قوله : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يُفْهَمُ معناه بالشيء المنصوص عليه الذي هم نقضوه ، من فعل القتل والتكذيب في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ فعكس نقض العهد والميثاق بالتكذيب والتقتيل للأنبياء ، إمضاؤه بالتصديق والنصر والتأييد .

ومن طريقة الإمام -رحمه الله- في مواضع : أن يشير في أول الآية إلى ما سيرد في آخرها ، حرصاً على التوضيح ، والفهم الكامل للآية :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧] قال -رحمه الله- :

(١) جامع البيان (٤/٦٥٠) ، وتحقيق شاکر (١٠/٤٧٧) .

" يقول - تعالى ذِكْرُهُ- : ومن حجج الله تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه ، اختلاف الليل والنهار ، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه ، والشمس والقمر ، لا الشمس تدرك القمر ، ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، وكلٌّ في فلَكٍ يَسْبَحُونَ، لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر ، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان بما لكم بإجراء الله إياهما لكم ، طائعين له في جريهما ومسيرهما ، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما ، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضرراً ، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم ، فله فاسجدوا ، وإياه فاعبدوا دونهما... " (١)

فقوله في أول تفسير الآية : ومن حجج الله تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه ، اختلاف الليل والنهار...: هو المنصوص عليه في ختام الآية : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فكان ذكر الآيات من خلق الله ؛ ليستدل بها على تفرد الله وحده ، واستحقاقه للعبادة بدليل ختم الآية بالنهي عن السجود لهذه المخلوقات ، فعظمتها ليست دليلاً على أنها آلهة، بل دليل على استحقاق خالقها للعبادة .

(١) جامع البيان (١١٢/١١) . وانظر موضعاً آخر في فصلت (٣٩) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنك تَرَى الْأَرْضَ خَاسِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ الآية ، جامع البيان (١١٣/١١) .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير -رحمه الله- قاعدة : النظر

إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها:

لقد ظهرت طريقة الإمام ابن جرير -رحمه الله- في الاستعانة بجميع الألفاظ وكيفية ترتيبها على توضيح معاني كتاب الله- عزّ وجل - ، وكان هذا الأعمّ الأغلب ، ولكن هناك بعض المواضع التي ظهر أنها خرجت عن هذا التعامل الذي قرّره -رحمه الله- ، والأولى السير بها على الطريقة الماضية ، ومن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾

[الإسراء: ٢١] قال -رحمه الله- : " يقول - تعالى ذِكْرُهُ- لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - : انظر يا محمد بعين قلبك إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما الدار العاجلة ، وإياها يطلب ، ولها يعمل ، والآخر الذي يريد الدار الآخرة ، ولها يسعى ، موقناً بثواب الله على سعيه ، كيف فضّلنا أحد الفريقين على الآخر ، بأن بصرنا هذا رشده ، وهديناه للسبيل التي هي أقوم ، ويسرناه للذي هو أهدى وأرشد ، وخذلنا هذا الآخر ، فأضللناه عن طريق الحقّ ، وأغشيناه بصره عن سبيل الرشده ، ﴿ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ ﴾ يقول : وفريق مريد الآخرة أكبر في الدار الآخرة درجات ، بعضهم على بعض ؛ لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة ، وأكبر تفضيلاً بتفضيل الله بعضهم على بعض ، من هؤلاء الفريق الآخرين في الدنيا ، فيما بسطنا لهم فيها . " (١)

وهذا التفضيل في هذه الآية واقع في الدنيا بين المؤمنين والكافرين ، فما الذي يمنع من أن يكون التفاضل في الآخرة بينهم أيضاً - أعني : الكفار والمؤمنين - المؤمنون يتفاضلون في الدرجات ، والكفار يتفاضلون في الدرجات ، فيتفاوت كل فريق في مرتبته ودرجته ، ويتفاوت الفريقان المؤمنون مع الكافرين من باب الأولى . (٢)

(١) جامع البيان (٥٧/٨) .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣-٣٤) .

وإن كان ثمَّ سبب لتخصيص المؤمنين عند ابن جرير-رحمه الله- ، فقد يكون تسمية المتفاضل عليه بالدرجة على أنها مراتب الجنان ، وأما في النار فتسمّى دركات -نعوذ بالله من النار ونسأل الله الجنة والله أعلم - .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] قال رحمه الله- : " ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يقول : فعلنا ذلك بهم ، بتكذيبهم بحجنا وأعلامنا ^(١) التي أريناهموها ، ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ يقول : وكانوا عن النعمة التي أحللناها بهم غافلين قبل حلولها بهم ، أنها بهم حالّة ، والهاء والألف في قوله : ﴿ عَنْهَا ﴾ كناية من ذكر النعمة ، فلو قال قائل : هي كناية من ذكر الآيات ، ووجه تأويل الكلام إلى : وكانوا عنها معرضين ، فجعل إعراضهم عنها غفولاً منهم إذ لم يقبلوها ، كان مذهباً... " ^(٢)

ثم قال في آية بعدها شبيهة بها : وهي قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَُوا سَيِّئًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَيِّئًا وَإِنْ يَرَُوا سَيِّئًا لَغِيًّا يَتَّخِذُوهُ سَيِّئًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] " ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ يقول - تعالى ذكره- : صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها ، فيعتبروا بها ويذكروا فينبوا ، عقوبة مناهم على تكذيبهم بآياتنا ، ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ يقول : وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه غافلين ، لا يتفكّرون فيها ، لاهين عنها ، لا يعتبرون بها ، فحقّ عليهم حينئذ قول ربنا ، فعطبوا . " ^(٣)

(١) هي الآيات والعلامات والمعجزات الدالة على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٢) جامع البيان (٤٣/٦) ، وتحقيق شاکر (٧٥/١٣) .

(٣) جامع البيان (٦١/٦-٦٢) وتحقيق شاکر (١١٥/١٣) .

والجملتان متماثلتان^(١)، فالأولى أن يكون مرجع الهاء من: ﴿عَنهَا﴾ في الآية الأولى إلى الآيات ، كما كان مرجعها في تفسيره للآية الثانية ؛ لأن الجملتين تعليل للإغراق^(٢)، وقد ذكره ابن جرير -رحمه الله- لكن على وجه الاحتمال ، ولم يقدمه .
والقول برجوع الهاء إلى الانتقام ، مروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ، ويستدل له بكلمة : انتقمنا في قوله : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾^(٣) .

ومثلها تأويله قوله تعالى : ﴿وَأَرْفَعْنَا نَمَ الْأَخْرَيْنَ ﴿١٤﴾ وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرَيْنَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ الْعَزِيزُ الرَّجِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٤ - ٦٨] قال -رحمه الله-: " ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول : وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين . " ^(٤)

ثم في قوله تعالى عن عاد : ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٣٩] قال -رحمه الله-: " ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يقول - تعالى ذكْرُهُ- : إن في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها ، عبرة وموعظة لقومك يا محمد ، المكذبيك فيما أتيتهم به من عند ربك ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول : وما كان أكثر من أهلكننا بالذين يؤمنون في سابق علم الله" ^(٥) .

والموضع الأول فيه خلاف بين المفسرين ، والمقصود : أن الأولى في المواطن المتشابهة أن يتشابه تفسيرها أيضاً ، إلا ما دلّ الدليل على افتراق فيفارق بينها .^(٦)

(١) في تفسير الجلالين قال عند تفسير الآية المتأخرة: "تقدم مثله"صفحة (١٥٥) ، والموضع الأول في صفحة (١٥٣) .

(٢) فتح القدير (٢/٢٣٨) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٧/٢٧٢) ، والموضع الثاني في (٧/٢٨٣) ، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ .

(٤) جامع البيان (٩/٤٥٠) .

(٥) جامع البيان (٩/٤٦٤) .

(٦) يراجع تفصيل الألوسي -رحمه الله- عند الآية (٦٧) من الشعراء (١١/١٣٤-١٣٨) فقد ذكر رأي أبي السعود، أن المقصود بالأكثر قوم محمد ﷺ - وأنه الذي تقتضيه جزالة النظم من مطلع السورة إلى آخرها ، وضعف قول من قال: الأكثر من

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٥٠] قال - رحمه الله - : " يقول - تعالى ذِكْرُهُ - : ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهوراً ؛ لنحيي به الميت من الأرض ، بين عبادي ليتذكروا نعمي عليهم ، ويشكروا أياديّ عندهم ، وإحساني إليهم ، ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا** ﴾ يقول : إلا جحوداً لنعمي عليهم ، وأياديّ عليهم . " (١)

والمقصود أن الختام في الأولى : إن كان الحديث عن الماء أن يدخل أولاً ، وتذكر هذه النعمة ، ولا مانع من ذكر غيرها ؛ لعموم الختام في قوله : ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا** ﴾ ، فيقال مثلاً في المعنى هنا : فأبى أكثر الناس إلا كفرأ بنعمة الماء ، فنسبوا السقيا إلى الأنواء (٢) ، ثم يذكر العموم فيقال : وهذه فعلة الإنسان الكافر .

وفي ختام القاعدة : يتبين المنهج السديد في تفسير الآية بالنظر والتأمل في الجمل كلها ، سواء كان النظر إلى الجمل الأولى ، أو إلى الجمل الأخيرة ، وقد ذكرت أمثلة على القسمين ، وتفسير كل هذه الجمل يجب أن يكون بما يكون معه سياق الكلام على أحسن بيان ، وأجمل نظام ، فيظهر الالتئام والتماسك ، فيؤيد الكلام بعضه بعضاً .

القوم المتحدث عنهم ؛ لأن الحديث عن القوم المكذبين ، ووقوع العذاب عليهم ، فكيف يخبر أن أكثرهم لم يؤمنوا بعد الإخبار عن هلاكهم وإنحاء المؤمنين من العذاب ؟ واختار الألوسي هذا مستنداً بأن صدر السورة وآخرها تسليية وتثبيت للنبي - ﷺ - عن تكذيب قومه له وكفرهم بالكتاب الملم عليه ، ونهيه أن يهلك نفسه إن لم يؤمنوا ، ثم قال : وكذا يقال في جميع ما يأتي . وانظر إرشاد العقل السليم (٢١٥/٤) .

(١) جامع البيان (٣٩٧/٩) .

(٢) جمع نوء ، وهو النجم إذا سقط في المغرب ، وطلع الذي بعده في المشرق ، وبين كل نجم والآخر ثلاثة عشر يوماً ، إلا نجمة الجبهة فتزيد يوماً . انظر مختار الصحاح مادة (ن و أ) .

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ يُنزّه القرآن عنه:

لقد فاق القرآن كل أنواع الكلام إعجازاً وبلاغاً ، ومن تمام الكلام وكماله أن لا يكون فيه تكرار بلا فائدة ، فإن لزم من التفسير التكرار الذي لا فائدة منه فذلك مما ينزه القرآن عنه ، مما يعني خطأ ذلك التفسير ووجوب إبداله بما يليق بكلام الله العزيز.

وسيكون الحديث في هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : الأمثلة على القاعدة .

المطلب الثالث : الجواب على ما تكرر في القرآن .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير -رحمه الله- قاعدة : إذا لزم من

تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ ينزه القرآن عنه .

المطلب الأول : نص القاعدة :

أبدأ الدخول إلى نص القاعدة من خلال هذا المثال الذي يعتبر تطبيقاً لها :

ففي قوله -تعالى- : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] قال أبو جعفر -رحمه الله- : "... ولم نحتاج إلى الإبانة عن وجه تكرير الله ذلك في هذا الموضع ، إذ كنا لا نرى أن : ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ١] من فاتحة الكتاب آية ، فيكون علينا لسائل مسألة بأن يقول : ما وجه تكرير ذلك في هذا الموضع ، وقد مضى وصف الله - عزَّ وجلَّ - به نفسه في قوله : ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخرى ، ومجاورتها لصاحبتها ؟ بل ذلك لنا حجة على خطأ دعوى من ادعى أن : ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ من فاتحة الكتاب آية ، إذ لو كان ذلك كذلك لكان ذلك إعادة آية بمعنى واحد ، ولفظ واحد مرتين ، من غير فصل يفصل بينهما ، وغير موجود في شيء من كتاب الله آيتان متجاورتان مكررتان ، بلفظ واحد ، ومعنى واحد ، لا فصل بينهما من كلام يخالف معناه معناهما ، وإنما يؤتى بتكرير آية بكماها في السورة الواحدة ، مع فصول تفصل بين ذلك ، وكلام يُعرض به بغير معنى الآيات المكررات ، أو غير ألفاظها ، ولا فاصل بين قول الله -تبارك وتعالى اسمه - : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ من : ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، وقول الله : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، من : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] . " (١)

فهنا قد استدلل الإمام الطبري -رحمه الله- بالسياق على أن البسمة ليست من الفاتحة ؛ لما يلزم من تكرار في تفسير : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ في البسمة ، وفي وسط سورة الفاتحة ، بلا فائدة محصلة من ذلك ، مما ينزه عنه الكلام البليغ ، فضلاً عن المعجز . (٢)

(١) جامع البيان (١/٩٣-٩٤) ، وتحقيق شاکر (١/١٤٦) .

(٢) مسألة هل البسمة من الفاتحة ؟ محل خلاف بين العلماء : فقد عدّها الشافعي وابن المبارك آية من الفاتحة ؛ واستدلوا بأن الصحابة أثبتوها في المصاحف ، ولم يعدّها أبو حنيفة ومالك والأوزاعي آية ، واختلفت الرواية عن أحمد ، والمنصور عند

وقد اعتبر الإمام ابن جرير -رحمه الله- هذا التكرار دليلاً على أن البسملة ليست من الفاتحة ؛ لعدم الفاصل بينها وقوله : ﴿الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ﴾ ، ولعدم وجود معنى جديد في هذا التكرار .

أصحابه عدم عدّها آية ؛ لحديث : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" رواه مسلم وغيره، فلو كانت آية لعدّها وبدأ بها ، ولا يتحقق التنصيف بعدّها كما في الحديث ؛ ولأن مواضع الآي تثبت بالتواتر ولم ينقل التواتر فيها. انظر المغني لابن قدامة (٤٨٠/١-٤٨٢) بتصرف .

وقيل : لا يصح الاستدلال بعدّها آية في المصحف ؛ لأن المصاحف العثمانية قد وضعت على هذين القولين : فعُدّت البسملة آية: في المصحف المكي والكوفي. ولم يعد ﴿مِرْرًا لِلَّذِينَ آمَنَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] آية ، ولم تعد البسملة آية : في المصحف المدني والبصري والشامي، وقد عدّها آية من القراء : ابن كثير وعاصم والكسائي . انظر إتحاف فضلاء البشر (٣٥٧/١) .

وهناك قول آخر : بأن عدّ الآيات لم يكن في المصاحف العثمانية ، وإنما هذا مأخوذ عن أهل العد في الأمصار ، وهو مأخوذ عن الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا أقرب والله أعلم ، وقد أشرت لنحو هذا في كتاب سورة الصلاة تترجح بها المساجد والمصليات ولكن في الطبعة الأخيرة صفحة (٢٠) .

المطلب الثاني : الأمثلة على القاعدة :

لقد تعددت الأمثلة على هذه القاعدة ، وتبين أن التكرار فيها ، يكون مرجعه إلى شيئين : إمّا الكلمات ، وإمّا الحروف ، وسيكون التمثيل عليهما :

١ - الأمثلة على القاعدة من الكلمات :

في قوله -تعالى- : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَقَةَ فَلُوْهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَنْرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ [التوبة: ٦٠]

قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ- : ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سَمَّاهم الله -جلّ ثناؤه- ، ثم اختلف أهل التأويل في صفة الفقير والمسكين ، فقال بعضهم : الفقير : المحتاج المتعفف عن المسألة ، والمسكين : المحتاج السائل... وقال آخرون : الفقير : هو ذو الزمانة من أهل الحاجة ، والمسكين : هو الصحيح الجسم منهم... وقال آخرون : الفقراء : فقراء المهاجرين ، والمساكين : من لم يهاجر من المسلمين وهو محتاج... وقال آخرون : المسكين : الضعيف الكسب... وقال بعضهم : الفقير من المسلمين ، والمسكين من أهل الكتاب..."

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب : قول من قال : الفقير : هو ذو الفقر والحاجة ، ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم في هذا الموضع ، والمسكين : هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم ؛ وإنما قلنا إن ذلك كذلك وإن كان الفريقان لم يعطيا إلا بالفقر والحاجة دون الذلة والمسألة ، لإجماع الجميع من أهل العلم أن المسكين إنما يعطى من الصدقة المفروضة بالفقر ، وأن معنى المسكنة عند العرب : الذلة ، كما قال الله -جلّ ثناؤه- : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] يعني بذلك الهون ، والذلة لا الفقر . فإذا كان الله -جلّ ثناؤه- قد صَنَّفَ من قسم له من الصدقة المفروضة قسماً بالفقر ، فجعلهم صنفين ، كان معلوماً أن كل صنف منهم غير الآخر ، وإذا كان ذلك كذلك كان لا شك أن المقسوم له باسم الفقير غير المقسوم له باسم الفقر والمسكنة ، والفقير

المعطى ذلك باسم الفقير المطلق هو الذي لا مسكنة فيه ، والمعطى باسم المسكنة والفقير هو الجامع إلى فقره المسكنة ، وهي الذلّ بالطلب والمسألة ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك معناه : إنما الصدقات للفقراء المتعفف منهم الذي لا يسأل ، والمتذل منكم الذي يسأل...^(١)

والمقصد من المثال طريقة التعامل مع المعطوفات : ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ فهو لاء غير أولئك ، وأما الفرق بينهما فهو محل خلاف بين العلماء ، وليس هذا محل تفصيله .
والله أعلم .

وفي قوله -تعالى- : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنِّسَاءِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا ذُمُّهُ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ ﴿٩٦﴾ [المائدة: ٩٦] قال أبو جعفر : "يقول -تعالى- ذكْرُهُ- : أَحِلَّ لَكُمْ : أيها المؤمنون ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ وهو ما صيد طرياً ، وعني بالبحر في هذا الموضع الأنهار كلها... قال أبو جعفر : فتأويل الكلام : أحلّ لكم أيها المؤمنون طري سمك الأنهار ، الذي صدتموه في حال حلكم وحرمكم ، وما لم تصيدوه من طعامه الذي قتله ثم رمى به إلى ساحله ، واختلف أهل التأويل في معنى قوله : ﴿وَطَعَامُهُ﴾ فقال بعضهم: عني بذلك: ما قذف به إلى ساحله ميتاً... وقال آخرون : عني بقوله : ﴿وَطَعَامُهُ﴾ : المليح من السمك [أي : المملح] ، فيكون تأويل الكلام على ذلك من تأويلهم: أحلّ لكم سمك البحر ومليحه في كل حال ، في حال إحلالكم وإحرامكم... وقال آخرون: ﴿وَطَعَامُهُ﴾ : ما فيه..."

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا : قول من قال : طعامه : ما قذفه البحر ، أو حسر عنه فوجد ميتاً على ساحله ، وذلك أن الله -تعالى- ذكْرُهُ - ذكْر قبله صيد الذي يصاد ، فقال : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ فالذي يجب أن يعطف عليه في المفهوم ما لم يصد منه ، فقال : أحلّ لكم ما صدتموه من البحر ، وما لم تصيدوه منه . وأما المليح ، فإنه ما كان منه مملح بعد الاصطياد فقد دخل في جملة قوله : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ فلا وجه

(١) جامع البيان (٦/٣٩٦-٣٩٧) ، وتحقيق شاکر (١٤/٣٠٥) .

لتكريره ؛ إذ لا فائدة فيه ، وقد أعلم عباده - تعالى ذِكْرُهُ - إجلاله ما صيد من البحر بقوله : ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ فلا فائدة أن يقال لهم بعد ذلك : ومليحه الذي صيد حلال لكم ؛ لأن ما صيد منه فقد بيّن تحليله طرياً كان أو مليحاً ، بقوله : ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ والله يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة... " (١)

(١) جامع البيان (٧٠-٦٩/٥) ، وتحقيق شاكر (٥٧/١١) . وانظر بقية المواضع في : البقرة (٤٨) ﴿وَأَنفُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهَا تُنُوجٌ وَلَا قُرْآنٌ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُؤْذَنُ وَبَيْنَا عَدْلٌ وَلَا لَهُمْ فِيهَا يُصْرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ جامع البيان (٣٠٨/١) ، و(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَعْرَةٌ لَا دَولُ تُبْرِئُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْفِي لَمَرْتٍ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ الآية جامع البيان (٣٩٤-٣٩٥) ، و(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ الآية جامع البيان (٤٤٩/١) ، و(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ الآية جامع البيان (١٠٣/٢) ، وآل عمران (٣) ﴿تَزَلَّ عَلَيْكَ الْكُتُبُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ الآية جامع البيان (١٦٨/٣) ، و(٤٨) ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ جامع البيان (٢٧٣-٢٧٢/٣) ، والنساء (٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ الآية جامع البيان (٥٨٩/٣) ، والمائدة (٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُجِلَ لَكُمْ﴾ الآية جامع البيان (٤٣٠/٤) ، و(٦) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّالِحِينَ فَاسْأَلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى السَّمَوَاتِ وَأَنْسُخُوا بِرُءُوسِهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى السَّمَوَاتِ﴾ الآية جامع البيان (٤٧٨/٤) ، و(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية جامع البيان (٣٩-٣٧/٥) ، و(٩٥) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ الآية جامع البيان (٥٦/٥) ، و(١٠٦) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَهُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ أَحَدُهُمَا ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ غَيْرُكَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] الآية جامع البيان (١٠٨-١٠٦/٥) ، و(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرِي نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذِ ابْتَدَأْتَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُحَاكِمُ النَّاسَ فِي السَّحَابِ وَكَهَلَا﴾ الآية جامع البيان (١٢٨/٥) ، والأنعام (١٣) ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ أَجْرَهُ وَيَا قَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُكُمْ وَلَا يَطَعُكُمْ﴾ الآية جامع البيان (١٥٩/٥) ، و(٦٩) ﴿قَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ الآية جامع البيان (٢٨٠/٥) ، والأعراف (١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْنَاكَ﴾ الآية جامع البيان (٤٤٠/٥) ، وطه (١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ الآية جامع البيان (٤٧٢/٨) ، والأحقاف (١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية جامع البيان (٢٨٤-٢٨٥/١١) ، والحشر (٧) ﴿مَا آفَأَهُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلْيَبْزُزُوا لَهُمْ أُولَٰئِكَ وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ الآية جامع البيان (٣٧/١٢) ، والقيامة (١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْتَ وَالْقُرْآنَ جَمِيعًا﴾ الآية جامع البيان (٣٤١-٣٤٠/١٢) .

فضعّف قول من قال : معنى : الطّعام المملّح ؛ لأنّ الصيد قد يملّح فيدخل معناه في معنى الطعام المعطوف على الصيد ، فيلزم منه التكرار بلا فائدة ، وكلام الله عزّ وجلّ - ينزّه عن ذلك .

- ٢ - الأمثلة على ما يقرب من معنى القاعدة ، بذكر حروف قيل فيها : إنها زائدة لا معنى لها :

وإنما ذكرت هذه المسألة هنا ؛ لقرابها وشبهها في الضعف من القول الذي يلزم منه تكرار بلا فائدة : ففي قوله -تعالى- : ﴿ **أَوْكَلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْزَمُمْ لَا يَوْمُنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٠٠] قال أبو جعفر : " اختلف أهل العربية في حكم «الواو» التي في قوله : ﴿ **أَوْكَلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا** ﴾ ، فقال بعض نحويي البصريين : هي واو تجعل مع حروف الاستفهام ، وهي مثل «الفاء» في قوله : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ [البقرة: ٨٧] ، قال : وهما زائدتان في هذا الوجه ، وهي مثل «الفاء» التي في قوله : فالله لتصنعنّ كذا وكذا ، وكقولك للرجل : أفلا تقوم ، وإن شئت جعلت الفاء والواو هاهنا حرف عطف ، وقال بعض نحويي الكوفيين : هي حرف عطف أدخل عليها حرف الاستفهام .

والصواب في ذلك عندي من القول : أنها واو عطف أدخلت عليها ألف الاستفهام ، كأنه قال -جلّ ثناؤه- : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ، ثم أدخل ألف الاستفهام على «وكلما» ، فقال : قالوا : سمعنا وعصينا أوكلما عاهدوا عهداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ، وقد بيّنا فيما مضى أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له ، فأغنى ذلك عن إعادة البيان على فساد قول من زعم أن الواو والفاء من قوله : ﴿ **أَوْكَلَمَا** ﴾

و ﴿ **أَفَكُلَّمَا** ﴾ زائدتان لا معنى لهما .^(١)

(١) جامع البيان (١/٤٨٧) ، وتحقيق شاکر (٢/٣٩٩) .

ووجه الزيادة المنفيّة في هذا المثال : إذا قلنا : إن الواو والفاء من قوله : ﴿أَوْكَلْنَا﴾
و﴿أَنْكَلْنَا﴾ لا معنى لهما ، حيث بين الإمام الطبري -رحمه الله- ، أنه غير جائز أن
يكون في كتاب الله حرف لا معنى له ، والصواب أنهما حرفا عطف بعد همزة استفهام^(١).

(١) وانظر موضعين آخرين في : المائدة(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية جامع البيان (٤/٤٣٩) ، والقلم (٦) ﴿يَأْتِيَكُمُ الْمُنْتَهَنُ﴾ جامع البيان (١٢/١٨١) .

المطلب الثالث: الجواب على ما تكرر لفظه في القرآن :

من خلال المواضع المتعلقة بقاعدة نفي التكرار بلا فائدة ، أجاب الإمام الطبري - رحمه الله- عن مواضع فيها تكرر ، وبين الفائدة منه ، فكان على هذا النحو :

١- التكرار قد يكون مراعاة لتناسب ختام كل آية مع ما قبلها من الجمل :

كما في قوله -تعالى- : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٣٢] قال أبو جعفر : " يعني بذلك -جلّ ثناؤه- : والله ملك جميع ما حوته السموات والأرض ، وهو القيم بجميعه ، والحافظ لذلك كله ، لا يعزب عنه علم شيء منه ، ولا يؤوده حفظه وتدييره... فإن قال قائل : وما وجه تكرر قوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝﴾ في آيتين إحداهما في إثر الأخرى ؟ ^(١) قيل : كرّر ذلك ؛ لاختلاف معنى الخبرين عما في السموات والأرض في الآيتين ، وذلك أن الخبر عنه في إحدى الآيتين ذكر حاجته إلى بارئه ، وغنى بارئه عنه ، وفي الأخرى حفظ بارئه إياه ، وعلمه به بتدييره ، فإن قال : أفلا قيل : وكان الله غنياً حميداً ، وكفى بالله وكيلاً ؟ قيل : إن الذي في الآية التي قال فيها : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝﴾ [النساء: ١٣١] مما صلح أن يختم ما ختم به من وصف الله بالغني وأنه محمود ، ولم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفه معه بالحفظ والتديير ؛ فلذلك كرّر قوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝﴾ . " ^(٢)

ومن هنا يتبيّن أن التكرار الموجود في بعض المواضع لحكم ، منها : مراعاة تناسب ختام كل آية مع ما قبلها من الجمل ، فأسماء الله عزّ وجلّ - في ختام الآيات لها معنى مناسب لما قبلها ، ولا تجمع الأسماء بغير مناسبة ؛ ولذلك تعاد الجملة مرة أخرى ، كما

(١) النساء (١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝﴾ .

(٢) جامع البيان (٤/٣١٧-٣١٨) ، وتحقيق شاکر (٩/٢٩٧) .

في تكرار قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ لنختتم بما يناسبها من الأسماء الحسنى .

- ٢ - جعل الآيات المكررة في سورتي الرحمن والمرسلات ترجع كل جملة مكررة

منها إلى ما قبلها :

لقد كان ابن جرير -رحمه الله- يفسر ما تكرر في سورة الرحمن والمرسلات بجعل الآية المكررة من سورة الرحمن والمرسلات عائدة إلى ما قبلها .

فقوله: ﴿فِي آيَةِ آءِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ في سورة الرحمن : راجعة على كل نعمة سبقتها :

ففي قوله -تعالى- : ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٧﴾ فِي آيَةِ آءِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٨﴾ مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ

﴿٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَّا يَتَّيَبَانِ ﴿١٠﴾ فِي آيَةِ آءِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿١١﴾﴾ [الرحمن: ١٧ - ٢١].

قال -رحمه الله- في الآية الأولى : " وقوله : ﴿فِي آيَةِ آءِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٨]

يقول : فبأي نعم ربكما معشر الجنّ والإنس من هذه النعم التي أنعم بها عليكم - من تسخير الشمس لكم في هذين المشرقين والمغربين ، تجري لكما دائبة بمرافقتكما ، ومصالح دنياكما ومعاشكما - تكذبان . "

وقال في الثانية: "وقوله: ﴿فِي آيَةِ آءِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢١] يقول -تعالى- ذكّره -:

فبأي نعم الله ربكما معشر الجنّ والإنس تكذبان من هذه النعم التي أنعم عليكم ، من مرّجه البحرين ، حتى جعل لكم بذلك حلية تلبسونها كذلك . " (١) وهكذا بقيّة المواضع .

وفي قوله -تعالى- : ﴿وَلِئَلَّ يُؤْمِنُوا لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ من سورة المرسلات ، راجعة إلى ما ذكر

قبلها من الأخبار :

كما في قوله -تعالى- : ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ

الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَلِئَلَّ يُؤْمِنُوا لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: ١١ - ١٥] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿وَلِئَلَّ يُؤْمِنُوا

لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول -تعالى- ذكّره - : الوادي الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها للمكذبين

(١) جامع البيان (١١/٥٨٥ و٥٨٨) .

بيوم الفصل . " (١)

وفي قوله -تعالى- : ﴿ أَلَمْ نُنشَأِكِ الْوَالِدِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المسالات: ١٦ - ١٩] قال -رحمه الله- : " ﴿ وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأخبار الله التي ذكرناها في هذه الآية ، الجاحدين قُدرته على ما يشاء . " (٢) وهكذا بقية المواضع .
 وأستطرد فأسوق مثالا آخر من كتب المتشابه : قال الكرمانى في حكمة تكرر قوله -تعالى- : ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَهُ يَلْ أذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٤٧-٤٨ ، ١٢٢-١٢٣] : " لَأَنَّ كُلَّ واحدة صادفت معصية تقتضي تنبيهاً ووعظاً ، وكل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى ، فالمعصية الأولى : ﴿ أَنْتُمْ مَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] والثانية : ﴿ وَكَانَ رِضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] " (٣) .

- ٤ - وقد تذكر كلمة مشابهة للأولى في المعنى -وليس في اللفظ كما سبق-

يفسر الثانية بالأولى :

فمن ذلك قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكره -لنبيه محمدٍ - ﷺ - : قل يا محمد لسائلك عن الساعة آياتٍ مرساها : ﴿ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يقول : لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي ، ولا دفع ضررٍ يحل بها عنها ، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن أملكه من ذلك بأن يقويني عليه ويعينني... وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ يقول : وما مسني الضرّ... " (٤)

(١) جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

(٢) جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

(٣) انظر البرهان في متشابه القرآن للكرمانى صفحة (٤٢) .

(٤) جامع البيان (٦/١٤١) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٠١) . ومثله في الحجر (٦٣-٦٤) ﴿ قَالُوا بَلْ جَعَلْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

الآيتين جامع البيان (٧/٥٢٤) .

ففسر الضرّ الأول ، والسوء التالي : بالضر ، وهما متقاربان ، فالضرّ سوء الحال ، وهو مقابل النفع ، والسوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ، ومن الأحوال النفسية ، والبدنية ، والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميم^(١) ، وكلّ سوءٍ فهو ضرٌّ ، وفيه نقصٌ نفعٍ .

٥ - وقد يفسر كلمتين متتاليتين بأحدهما من باب إضافة الشيء إلى نفسه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَدِيدٍ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمْ مَا تُوَسَّوْهُ بِهِ فَسَمُّهُ وَيَمْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ق: ١٥ - ١٦] قال -رحمه الله- : "وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوْهُ بِهِ فَسَمُّهُ ﴾ يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تخدّث به نفسه ، فلا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه ، ﴿ وَيَمْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يقول : ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق ، والوريد : عرق بين الحلقوم والعلباوين ، والحبل : هو الوريد ، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه . " (٢)

هذه بعض الأسباب التي ذكرها الطبري -رحمه الله- وقد ذكر الكرمانى -رحمه الله- أسباباً غيرها ، منها : قطع الاشتراك : كقوله -تعالى- : ﴿ يَاكَ تَبِيئُهُ وَإِيَّاكَ نَتَّبِعُ ﴾ [الفاحة: ٥] (٣) .

وكذلك المطابقة : كقوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١] خص السمع بالذكر ؛ لما في الآية من قوله : ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾ [البقرة: ١٨١] ؛ ليكون مطابقاً (٤) .

وقد يكون التكرار لاختلاف الأقوال : كقوله -تعالى- : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن ، مادة ضرٌّ ، صفحة (٥٠٣-٥٠٤) ، ومادة سؤاً صفحة (٤٤١) .

(٢) جامع البيان (٤١٥/١١) . ومثله أيضا آية (١٩) ﴿ وَبَدَّلَتْ سَكْرَةَ التَّوْبِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ جامع البيان (٤١٨/١١) .

(٣) البرهان في متشابه القرآن صفحة (٢٠) .

(٤) المرجع السابق صفحة (٣٦) .

[المائدة: ٧٢، ٧٣] قالوا : إن كل قول لفرقة من فرق النصارى .^(١) اهـ .

وقد يكون الفرق بين بعض المفردات غير واضح فيظهره ويبرزه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣ - ١٤] قال -رحمه الله- :
 " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ -: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى تَصْدِيقِهِمْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَخْلُطُوهُ بِشْرِكٍ ، وَلَمْ يَخَالِفُوا اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ... " ^(٢)
 فقول : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وعطف الاستقامة عليه ، دال على فرق ، ففعل الإيمان لا يلزم منه المداومة ، فأكدتها بالاستقامة ، وهي أمر زائد على إعلان الإيمان .

(١) المرجع السابق صفحة (٥٥-٥٦) .

(٢) جامع البيان (٢٨٣/١١) . وانظر مواضع أخرى في هود (٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا مِن عَذَابٍ عَلِيمٍ ﴾ [٥٨] جامع البيان (٦١/٧) ، والحج (٥٥) ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [٥٥] جامع البيان (١٨١/٩) .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خلفاً ينزه القرآن عنه :

لقد برزت طريقة ابن جرير-رحمه الله-وفكرته ، ولكن هناك مواضع قد تكون بخلاف القاعدة ، ومنها :

في قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت: ٦ - ٧] ... قال -رحمه الله- : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ " اختلف أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم : معناه : الذي لا يعطون الله الطاعة التي تطهرهم ، وتزكّي أبدانهم ، ولا يوحدونه... وقال آخرون : بل معنى ذلك : الذين لا يقرون بزكاة أموالهم التي فرضها الله فيها ، ولا يعطونها أهلها... "

والصواب من القول في ذلك : ما قاله الذين قالوا : معناه : لا يؤدّون زكاة أموالهم، وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وأن قوله في : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ دليلاً على أن ذلك كذلك ؛ لأن الكفار الذين عنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، فلو كان قوله : ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ مراداً به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، لم يكن لقوله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ معنى ؛ لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة ، وفي إتباع الله قوله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ قوله : ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ما ينبئ عن أن الزكاة في هذا الموضع معني بها زكاة الأموال...^(١).

وموضع الضعف في هذا التفسير ليس عدم تطبيق القاعدة ، بل إن تطبيقها هنا واضح ؛ ولكن تعارضها مع وقت النزول هو القادح ، وذلك أن زكاة المال : إنّما فرضت

(١) جامع البيان (١١/٨٦) .

بالمدينة ، والآية من أول المكي ^(١) ، وأكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ، على أن الزكاة هنا : هي التوحيد... وهو أصل كل زكاة ونماء ^(٢) ، وهذا الوجه أوفق لتأليف النظم. ^(٣) فلا يلزم من الشهادة بالتوحيد إثبات اليوم الآخر .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ قِيلَ اصْحَابِ الْأَخْدُودِ ﴾ [البروج: ٤] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ قِيلَ اصْحَابِ الْأَخْدُودِ ﴾ يقول : لعن أصحاب الأخدود ، وكان بعضهم يقول : معنى قوله : ﴿ قِيلَ اصْحَابِ الْأَخْدُودِ ﴾ خبر من الله عن النار أنها قتلتهم . وقد اختلف أهل العلم في أصحاب الأخدود من هم ؟ . فقال بعضهم : قوم كانوا أهل كتاب من بقايا الجوس... وقال آخرون: بل الذين أحرقتهم النار هم الكفار الذين فتنوا المؤمنين... عن الربيع بن أنس قال : كان أصحاب الأخدود قوماً مؤمنين ، اعتزلوا الناس في الفتر ، وإن جباراً من عبدة الأوثان أرسل إليهم ، فعرض عليهم الدخول في دينه ، فأبوا ، فخذَّ أخدوداً ^(٤) ، وأوقد فيه ناراً ، ثم خيرهم بين الدخول في دينه ، وبين إلقاءهم في النار ، فاختاروا إلقاءهم في النار ، على الرجوع عن دينهم ، فألقوا في النار ، فنجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق ، بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ، فذلك قول الله : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ ﴾ [البروج: ١٠] في الآخرة ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البروج: ١٠] في الدنيا...

وأولى التأويلين بقوله : ﴿ قِيلَ اصْحَابِ الْأَخْدُودِ ﴾ : لعن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود ، وإنما قلت : ذلك أولى التأويلين بالصواب ؛ للذي ذكرنا عن الربيع من العلة ، وهو أن الله أخبر أن لهم عذاب الحريق مع عذاب جهنم ، ولو لم

(١) انظر المحرر الوجيز (١٤/١٦٤) .

(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم (٤/٩٥) ، وعزاه لإغاثة اللهفان صفحة (٤٩) .

(٣) روح المعاني للآلوسي (٢٣/١٥١) .

(٤) الأخدود : الشق في الأرض ، والحفرة المستطيلة فيها . انظر مقاييس اللغة (٢/١٤٩) مادة خدّ ، وترتيب القاموس (٢/٢٠) .

مادة حدد .

يكونوا أحرقوا في الدنيا لم يكن لقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معنى مفهوم ، مع إخباره أن لهم عذاب جهنم ؛ لأن عذاب جهنم هو عذاب الحريق مع سائر أنواع عذابها في الآخرة...^(١) ولكن ختام السورة يدل على أن الله لم يوقع على أصحاب الأخدود الكفرة العقاب الدنيوي ؛ ولذلك تبه الله -عز وجل- على كمال قدرته بإيقاع العذاب في الدنيا بما فعل بالجنود ، فرعون وثمود ، ولو شاء لفعل بأصحاب الأخدود مثل ذلك ، ولكنه -تعالى- لم يشأ ذلك.^(٢)

وهكذا يتضح للقارئ قاعدة : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خلفٌ ينزه القرآن عنه ، فقد اتضح نص القاعدة ، وأتبع بأمثلة على نوعيه : الكلمات التي قيل فيها : إن فيها تكرار ، والأحرف التي قيل فيها : إنها زائدة ، ثم ذكرت إجابة الإمام الطبري على ما تكرر في القرآن بأجوبة سديدة ، ثم جاءت الإشارة إلى بعض ما خرج عن القاعدة والأولى خلافه . -والله أعلم -.

(١) جامع البيان (١٢/٥٢٣-٥٢٦) .

(٢) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب (جزء ٣٠/١١٣ و١١٦) طبعة الحلبي الأولى .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما أتسق وانتظم معه الكلام :

تتنوع معاني الجمل على اختلاف مساقات الكلام ؛ ولذلك يجب على المفسر اختيار

الأنسب للمقام ، والمتفق مع حال الكلام .

وسيكون عرض الأمثلة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : يختار من المعاني ما يناسب سياق الكلام .

المطلب الثالث : المعنى المضاد والمقابل للجمل والكلمات .

المطلب الرابع : ذكر معنى ما سيحيى في مستقبل الجمل والآيات المتأخرة أول ورود مقطوعها.

المطلب الخامس : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري - رحمه الله - قاعدة : اختيار

المعاني التي يتسق وينتظم معها الكلام .

المطلب الأول : نص القاعدة :

على المفسر لكلام الله - عز وجل - أن يبذل جهده في حمل معاني الآيات على المعاني التي ينتظم معها الكلام ، ويكون على مساق واحد لا يتنافى ولا يتنافر .

يوضح هذا تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ مُوَلِّئُهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قال أبو جعفر : " يعني بقوله - جل ثناؤه - : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ فإن كان المدين الذي عليه المال ﴿ سَفِيهًا ﴾ : يعني جاهلاً بالصواب في الذي عليه أن يمّله على الكاتب... وقال آخرون : بل السفيه في هذا الموضع الذي عناه الله : الطفل الصغير... "

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالآية : تأويل من قال : السفيه في هذا الموضع : الجاهل بالإملاء ، وموضع صواب ذلك من خطئه ؛ لما قد بيننا قبل من أن معنى السفه في كلام العرب : الجهل ، وقد يدخل في قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ كل جاهل بصواب ما يمل من خطئه ، من صغير وكبير ، وذكر وأثنى ، غير أن الذي هو أولى بظاهر الآية أن يكون مراداً بها كل جاهل بموضع خطأ ما يمل وصوابه - من بالغى الرجال الذين لا يؤلى عليهم والنساء ؛ لأنه حل ذكره ابتداء الآية بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينِكُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والصبي ومن يؤلى عليه لا يجوز مداينته ، وأن الله - عز وجل - قد استثنى من الذين أمرهم بإملاء كتاب الدين مع السفيه : الضعيف ، ومن لا يستطيع إملائه ، ففي فصله - جل ثناؤه - الضعيف من السفيه ، ومن لا يستطيع إملاء الكتاب ، في الصفة التي وصف بها كل واحد منهم ، ما أنبأ عن أن كل واحد من الأصناف الثلاثة الذين ميز بين صفتهم ، غير الصنفين الآخرين ، وإذا كان ذلك كذلك ، كان معلوماً أن الموصوف بالسفه منهم دون الضعف هو ذو القوة على الإملاء ، غير أنه وضع عنه فرض الإملاء بجهله بموضع صواب ذلك من خطئه ، وأن الموصوف بالضعف منهم هو العاجز عن إملائه وإن كان شديداً رشيداً ، إما لعبي لسانه أو خرس به ، وأن الموصوف بأنه

لا يستطيع أن يميل : هو الممنوع من إملاله ، إما بالحبس الذي لا يقدر معه على حضور الكاتب الذي يكتب الكتاب فيمل عليه ، وإما لغيبته عن موضع الإملال فهو غير قادر من أجل غيبته عن إملال الكتاب ، فوضع الله -عز وجل- عنهم فرض إملال ذلك ؛ للعلل التي وصفنا إذا كانت بهم ، وعذرهم بترك الإملال من أجلها ، وأمر عند سقوط فرض ذلك عليهم ولي الحق بإملاله ، فقال : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَيُئْتِ بِالْمَدْلِ ﴾ يعني : ولي الحق ، ولا وجه لقول من زعم أن السفية في هذا الموضع هو الصغير ، وأن الضعيف هو الكبير الأحمق ؛ لأن ذلك إن كان كما قال يوجب أن يكون قوله : ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ﴾ هو العاجز من الرجال - العقلاء الجائزي الأمر في أمواهم وأنفسهم - عن الإملال ، إما لعله بلسانه من خرس أو غيره من العلل ، وإما لغيبته عن موضع الكتاب ، وإذا كان ذلك كذلك معناه ، لبطل معنى قوله : ﴿ فَلْيُمِلْ وَيُئْتِ بِالْمَدْلِ ﴾ ؛ لأن العاقل الرشيد لا يولّي عليه في ماله ، وإن كان أحرس أو غائباً ، ولا يجوز حكم أحد في ماله إلا بأمره ، وفي صحة معنى ذلك ما يقضي على فساد قول من زعم أن السفية في هذا الموضع: هو الطفل الصغير ، أو الكبير الأحمق... " (١)

فنفي تفسير السفية : بالصغير ، والضعيف : بالكبير الأحمق ؛ لأنه يوجب تفسير : قوله ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ﴾ بالعاجز من الرجال ؛ والرشيد لا يولّي عليه في ماله ، ولو كان أحرس أو غائباً ؛ لأن بعد هذه الجملة : ﴿ فَلْيُمِلْ وَيُئْتِ بِالْمَدْلِ ﴾ ففسد بذلك تفسير الذي لا يستطيع أن يميل بالعاجز من الرجال جائزي التصرف ؛ لتناقضه مع الحكم بإملال وليه ، فهذا لا يكون إلا بإذن الولي صاحب المال العاقل ولم يذكر ذلك في الآية ، بالإضافة إلى أن الصغار لم يدخلوا في الآية ابتداء ؛ لأن الخطاب في ابتدائها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، والصبي ومن يولّي عليه لا يجوز مداينته .

(١) جامع البيان (٣/١٢١-١٢٢) ، وتحقيق شاکر (٥٧/٦) .

المطلب الثاني: يُختار من المعاني ما يُناسب سياق الكلام :

لقد كان الإمام الطبري -رحمه الله يختار المعاني المناسبة ، ويقتنصها بدقة من خلال سياقات الآيات ، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله -تعالى- : ﴿ وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ بَيْنَهُ إِذْ أَخَذَ مِنْكُمُ الذِّكْرَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]... ﴿ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : أو إلى بني آدم الموت والحياة فيُنهي أحدهم أن يموت إلا على حالة دون حالة ؟ قيل له : إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت ، وإنما معنى : ﴿ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : فلا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم ، وذلك أن أحدا لا يدري متى تأتية منيته ؛ فلذلك قال لهم : ﴿ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ لأنكم لا تدرُونَ متى تأتيةكم منايكم من ليل أو نهار ، فلا تفارقوا الإسلام فتأتيةكم منايكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم ، فتموتوا وربكم ساخط عليكم ، فتهلكوا. ^(١)

فاختار المعنى المناسب للمخاطب ، الذي لا يستطيع تقديم الموت ، ولا رده عن نفسه ، فيبين أن المراد هو مداومة الاستقامة حتى إذا جاء الموت كان على أحسن حال منها، وليس مدافعة الموت الذي ليس له به قدرة .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَذَلِكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] قال أبو جعفر : " يعني -تعالى- ذكْرُهُ -[بقوله] : ﴿ وَذَلِكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أيام بدر وأُحد ، ويعني بقوله : ﴿ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ نجعلها دولاً بين الناس مصرفة ، ويعني بالناس : المسلمين والمشركين ، وذلك أن الله - عزَّ وجلَّ - أَدال المسلمين من المشركين ببدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا سبعين ، وأدال المشركين من المسلمين بأُحد، فقتلوا منهم سبعين ، سوى

(١) جامع البيان (١/٦١٢) ، وتحقيق شاکر (٣/٩٦) .

من جرحوا منهم ، يقال منه : أدال الله فلاناً من فلان فهو يديله منه إدالةً ، إذا ظفر به فانصر منه ، مما كان نال منه المدال منه... " (١)

ولما كانت السورة تتحدث عن وقائع غزوة أحد ، وتسلي المؤمنين ، وتوجههم وتقوّمهم ، دل على أن المراد ما وقع من انتصار في بدر ، وهزيمة في أحد.

وفي قوله - تعالى - : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُوْجِبُ الْحَسَنَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] قال أبو جعفر : " يعني بذلك - تعالى ذكّره - : فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم ، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم ، وعلى جهاد عدوّهم ، والاستعانة بالله في أمورهم ، واقتنائهم مناهج إمامهم ، على ما أبلوا في الله - ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ يعني : جزاءً في الدنيا ، وذلك النصر على عدوّهم وعدوّ الله ، والظفر والفتح عليهم ، والتمكين لهم في البلاد ، ﴿ وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ ﴾ يعني : وخير جزاء الآخرة ، على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة ، وذلك الجنة ونعيمها... " (٢)

فذكر - رحمه الله - أن الثواب الذي لهم في الدنيا في قوله : ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ هو النصر ، وقد تقدم في الآية أنهم قاتلوا نصرة للدين ، بل وذكر الله قولهم فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧] وأما : ثوابهم في الآخرة في قوله : ﴿ وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ ﴾ فقد طلبوا في دعائهم : مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم - كما سبق - . (٣)

(١) جامع البيان (٣/٤٤٨-٤٤٩) ، وتحقيق شاکر (٧/٢٣٩) .

(٢) جامع البيان (٣/٤٦٦) ، وتحقيق شاکر (٧/٢٧٥) .

(٣) وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٩) ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامِنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ جامع البيان

(١٥١/١) ، و(١٣) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّعْبَاءُ ﴾ الآية جامع البيان (١/١٦١) ، والنساء

(٢٨) ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ جامع البيان (٤/٣٢) .

المطلب الثالث : المعنى المضادّ والمقابل للجمل والكلمات :

لقد وصف الله عزّ وجلّ - كتابه بأنه مثاني فقال : ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣] قال ابن كثير رحمه الله- عند تفسير هذه الآية : " قال مجاهد : يعني : القرآن كلّ متشابه مثاني ، وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ، وقال الضحاك : ﴿مَثَانِي﴾ ترديد القول ؛ ليفهموا عن رهم -تبارك وتعالى - ، وقال عكرمة والحسن : ثنى الله فيه القضاء ، زاد الحسن : تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿مَثَانِي﴾ مرّد ، ردّد موسى في القرآن ، وصالح ، وهود ، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في أمكنة كثيرة ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس-رضي الله عنهما- : ﴿مَثَانِي﴾ قال : القرآن يشبه بعضه بعضاً ، ويردّ بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء : ويروى عن سفيان بن عيينة ^(١) : معنى قوله -تعالى- : ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ أن سياقات القرآن تارة : تكون في معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارة : تكون بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني ، كقوله -تعالى- : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] ، وكقوله - عزّ وجلّ- : ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧] إلى أن قال : ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨] ، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَّابٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص: ٤٩] إلى أن قال : ﴿هَذَا وَرَكٌّ لِلطَّالِقِينَ لَشَرِّ مَكَابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥] ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثاني ، أي : في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً ، فهو المتشابه ، وليس هذا

(١) هو أبو محمد ، سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي المكي ، الحافظ ، مولى ، ولد سنة سبع ومائة ، محدّث مفسر ، يدلّس عن الثقات ، عاش إحدى وتسعين سنة ، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٨) ، ووفيات الأعيان (٣٩١/٢) ، وشذرات الذهب (٣٥٤/١) .

من المتشابه المذكور في قوله -تعالى- : ﴿ هُنَّ أُمَّ الْكَاتِبِ وَأُمَّرُ الْمُتَشَبِهَاتِ ﴾ [آل عمران: ٧] ذاك معنى آخر .^(١)

ومن المثاني -كما سبق- : أن يذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا مثانٍ .
ويشبه هذا إلى حد ما ، عطف بعض الجمل على بعض في : جزاء المؤمنين والكافرين، وفي تنويع العقاب وتقابله مع الثواب .

والأمثلة على ذلك قد تكون كلماتٍ أو جملاً :

١ - الأمثلة على المعنى المتقابل بين الكلمات :

في قوله -تعالى- : ﴿ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَىٰ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٥] قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكْرُهُ -:
ثم بدلنا أهل القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ، مكان السيئة : وهي البأساء والضراء. وإنما جعل ذلك سيئة ؛ لأنه مما يسوء الناس ، ولا تسوؤهم الحسنة، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة... " ^(٢)
فاستدل على أن الحسنة الرخاء وسعة المعيشة ؛ لأنها ضد ما أخذوا به من قبل ، أعني: البأساء والضراء .

وقال -تعالى- : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدْعَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدْعَىٰ آمَنَّا بِهِ ﴾ يقول-: قالوا : وآنما سمعنا القرآن - الذي يهدي إلى الطريق المستقيم - آمنا به ، يقول: وصدقنا به ، وأقررنا أنه حق من عند الله ، ﴿ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴾ يقول : فمن يصدق بربه : ﴿ فَلَا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٢) .

(٢) جامع البيان (٦/٨) ، وتحقيق شاکر (١٢/٥٧٣) .

يَخَافُ بِحَسَا ﴿٢٤﴾ يقول: لا يخاف أن ينقص من حسناته، فلا يجازى عليها، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ﴿٢٥﴾ ولا إنما يُحْمَلُ عليه من سيئات غيره، أو سيئة [لم] يعملها. " (١)

فالبخس: النقص في الحسنات، وضده الرهق: وهو زيادة؛ ولكن في السيئات.

وفي قوله -تعالى-: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ [النبا: ٢٤ - ٢٥]

قال -رحمه الله-: " وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ يقول: لا يطعمون فيها برداً يُبْرَدُ حرّ السعير عنهم، إلا العساق، ولا شراباً يرويههم من شدة العطش الذي بهم إلا الحميم... وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ يقول -تعالى- ذكره -: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً قد أغلي حتى انتهى حرّه، فهو كالمُهْل يَشْوِي الوجوه، ولا برداً إلا عَسَاقًا... فإن قال قائل: فإنك قد قلت: إن العساق: هو الزمهير، والزمهير: هو غاية البرد، فكيف يكون الزمهير سائلاً؟ قيل: إن البرد الذي لا يُسْتَطَاع ولا يُطَاق، يكون في صفة السائل من أجساد القوم من القيح والصيد. " (٢)

فالعساق مقابل الحميم شديد الحرارة؛ إذا: هو باردٌ شديد البرودة، وقد ورد في

الحديث أن عذاب النار من الحرارة والبرودة، فقال -ﷺ-: " اشتكت النار إلى ربّها،

(١) جامع البيان (٢٦٧/١٢).

(٢) جامع البيان (٤٠٥/١٢-٤٠٨). وانظر بقية المواضع في: النور (٥٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ

لَمْ يَلْمِزُوا لَكُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية جامع البيان (٣٤٥/٩)، والشعراء (١٠٠-١٠١) ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿١٠﴾ وَلَا صَافِيِي حِيمٍ ﴿١١﴾

جامع البيان (٤٥٦/٩)، وفاطر (٢١) ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ ﴿١١﴾ جامع البيان (٤٠٦/١٠)، وغافر (٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِي

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَالصَّالِحِينَ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ الآية جامع البيان (٧٢/١١)، و(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا

مِن قَبْلِكَ مِنهَرٍ مِّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ الآية جامع البيان (٨٠/١١)، والرحمن (٦) ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ

يَسْمُونَ﴾ ﴿٦﴾ جامع البيان (٥٧٥/١١)، والمجادلة (١٨) ﴿يَوْمَ يَمُوتُمُ اللَّهُ حَمِيمًا مُّجْتَلُونَ لَكُمَا يَحْلِقُونَ لَكُمَا﴾ الآية جامع البيان

(٢٤/١٢)، والملك (٢٨) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكٰفِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ جامع البيان

(١٧٣/١٢)، والنبا (٤٠) ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ الآية جامع البيان (٤١٨/١٢)،

والتكوير (١٦) ﴿لِجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ ﴿١٦﴾ جامع البيان (٤٦٩/١٢).

فقال: رب أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفسٌ في الشتاء ، ونفسٌ في الصيف ، فهو أشد ما تجدون من الحرّ ، وأشد ما تجدون من الزمهرير " (١) .

٢ - الأمثلة على المعنى المضاد والمقابل بين الجمل :

في قوله -تعالى- : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَهُمْ ﴾ يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - : فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات ، ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ وهم أتباعها الذين صدّقوها وآمنوا بها ، وقوله : ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - : وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم برهم " (٢) .

فالمسرفون هم المكذبون بالرسل ، مقابلة لهم بالذين أنجاهم الله ؛ لتصدقهم بالرسل .

وقد تكون المقابلة في جواب كلام :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٩ - ٥٠] قال -رحمه الله- : يقول -تعالى- ذِكْرُهُ - لنبية محمدٍ - ﷺ - : قل يا محمد لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علم ، أتباعاً منهم لكل شيطان مرید : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم في الدنيا ، وعذابه في الآخرة أن تَصَلَوْهُ ، ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يقول : أبين لكم إنذاري ذلك وأظهره ؛ لتنبؤوا من شرككم وتحذروا ما أنذركم من ذلك ، لا أملك لكم غير ذلك ، فأما تعجيل العقاب وتأخيره -الذي تستعجلوني به -فإلى الله ، ليس ذلك إلي ولا أقدر

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، صفحة (٦٦٦) ، حديث (٣٢٦٠) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر...، (٤٣١/١-٤٣٢) ، حديث (٦١٧) ، وهذا لفظ مسلم .

(٢) جامع البيان (٨/٩) .

عليه^(١).

فقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جواب لطلبهم العذاب المذكور في قوله: ﴿وَسْتَغْمِلُونَكَ بِالْمَدَابِ﴾ [الحج: ٤٧] والجواب: مقابل السؤال ولا شك؛ ولذلك صحّ قوله: فأما تعجيل العقاب وتأخيرها - الذي تستعجلونني به - فإلى الله، ليس ذلك إليّ ولا أقدر عليه.

(١) جامع البيان (١٧٣/٩). وانظر مثله في النساء (١٦٢) ﴿لَكِنَّ الْرَّسُوحَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٣/٤)، وانظر بقية مواضع هذا النوع عامة في: آل عمران (١٩٨) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الآية جامع البيان (٥٥٨/٣)، والمؤمنون (٢٩-٣٠) ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُزْلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ الآية جامع البيان (٢١١/٩)، والأحزاب (٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية جامع البيان (٢٨١/١٠)، والزمر (٣٣) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية جامع البيان (٥-٤/١١)، والنجم (٣٠) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية جامع البيان (٥٢٥/١١)، والمتحنة (٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الآية جامع البيان (٦١/١٢)، والجمعة (١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ الآية جامع البيان (٩٩/١٢)، والأعلى (١٠-١١) ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يُخَشَى﴾ جامع البيان (٥٤٦/١٢).

المطلب الرابع : يذكر معنى ما سيجيء في الجمل والآيات المتأخرة في أول ورود مقطعها :

وسبب ذلك النهج طلب توضيح المراد ، وهذا الوارد المتأخر قد يكون في الآية الواحدة ، وقد يكون بعدها :

١- الأمثلة في الآية الواحدة على ذكر معنى الوارد المتأخر في أول تفسير الآية:

في قوله -تعالى- : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ **وَالْكَافِرِينَ أَهْمَانَهَا** ١٠ ﴾ [محمد: ١٠] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ- : أفلم يسر هؤلاء المكذِّبون محمداً -ﷺ-، المنكرو ما أنزلنا عليه من الكتاب - في الأرض سفراً ، وإئتما هذا توبيخ من الله لهم ؛ لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام ، فيرون نقمة الله التي أحلها بأهل حجرِ ثمود ، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحلَّ الله بسبِّاً ، فقال لنبية - عليه الصلاة والسلام - وللمؤمنين به : أفلم يسر هؤلاء المشركون سفراً في البلاد فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم ، من الأمم المكذِّبة رسلها ، الرّادّة نصائحها ؟ . ألم تهلكها فندمّر عليها منازلها ونخرّبها ؟ . فيتعظوا بذلك ، ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياه ، فينبوا إلى طاعة الله في تصديقك ، ثم توعدّهم -جلّ ثناؤه- ، وأخبرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله ، أنه مُجِلُّ بهم من العذاب ما أحلَّ بالذين كانوا من قبلهم من الأمم ، فقال : ﴿ **وَالْكَافِرِينَ أَهْمَانَهَا** ﴾ يقول : وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله -ﷺ- من العذاب العاجل ، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمداً -ﷺ- . " (١)

فقول الإمام الطبري -رحمه الله- : أنه تمديد للكفار ووعظ ، يدل عليه قوله

(١) جامع البيان (١١/٣١١) .

- تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْمًا﴾ فاختار من المعاني والمقاصد ما ناسب السياق وانتظم معه الكلام.
 وفي قوله -تعالى-: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَوْتٌ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ۖ﴾ [احمد: ٢٠] قال -رحمه الله-: "يقول -تعالى- ذكروه -: ويقول الذين صدقوا الله ورسوله: هالاً نزلت سورة من الله ، تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار، ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ يعني: أنها محكمة بالبيان والفرائض... وقوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ يقول: وذكر فيها الأمر بقتال المشركين..." (١)

فالمقصود ليس طلب تنزيل سورة فقط أيًا كانت ، وإنما المطلوب سورة معينة لها صفة أساسية ، وهي : أنها تأمر بالجهاد ؛ بدليل عتاب الله لهم على إعراضهم عما طلبوه من فرض الجهاد وتشريعه .

- ٢ - الأمثلة على ذكر المعنى الوارد المتأخر في آية مستقلة في أول تفسير للمقطع التي هي فيه ، وقد يكون ختام الآية بالأسماء الحسنى ، أو غيرها :

أ- فمثال تفسير ختام الآية بأسماء الله الحسنى بما يرد بعدها : قول الله -تعالى-: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ مِمَّا سَنَّتَ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِغٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾ [فصلت: ١٢] قال -رحمه الله-: "وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يقول -تعالى- ذكروه -: هذا الذي وصفت لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما ، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب على ما بيّنت ، تقدير العزيز في نعمته من أعدائه ، العليم بسرائر عباده وعلائيتهم ، وتديبرهم على ما فيه صلاحهم ." (٢)

ثم قال في قوله -تعالى-: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝﴾ [فصلت: ١٣] : "يقول -تعالى- ذكروه -: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن هذه الحجّة التي

(١) جامع البيان (١١/٣١٨) .

(٢) جامع البيان (١١/٩٣) .

بيئتها لهم يا محمد ، ونبهتهم عليها ، فلم يؤمنوا بها ، ولم يقرّوا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره ، فقل لهم : أنذرتكم أيها الناس : صاعقة تهلككم ، مثل صاعقة عاد وثمود. ^(١) " ففسّر ختام الآية بالأسماء الحسنى في قوله -تعالى- : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ بأنّ العزة في انتقامه من الكفار ، وهذا التفسير مناسب للتعقيب بالآية التي بعدها في قوله -تعالى- : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ^(١٣) .

ب- ومثال تفسير ختم الآية بغير الأسماء الحسنى بما يدلّ عليه ما بعدها : قوله -تعالى- : ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ^(١٤) [الأحقاف: ٢٦] قال -رحمه الله- : " يقول: وعاد عليهم ما استهزءوا به ، ونزل بهم ما سخرُوا به ، فاستعجلوا به من العذاب ، وهذا وعيد من الله -جلّ ثناؤه- لقريش ، يقول لهم : فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله ما حلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة . " ^(٢)

ثم قال أول الآية التالية وهي قوله -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ^(١٥) [الأحقاف: ٢٧] : " يقول -تعالى- ذكره- لكفار قريش محذّره بأسه وسطوته ، أن يحلّ بهم على كفرهم : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ أيها القوم من القرى ما حول قريبتكم ، كججرِ ثمود ، وأرض سدوم ، ومأرب ، ونحوها ، فأندرنا أهلها بالمثلات ، وخرّبنا ديارها ، فجعلناها حاوية على عروشها . " ^(٣)

فالذي دلّ على المعنى التحذيري ما بعدها من ذكر أحوال المهلكين قبل هذه الأمة .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ^(١٦) فَقُلَّ كَيْفَ قَدَّرَ ^(١٧) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ^(١٨) ثُمَّ نَظَرَ ^(١٩) ثُمَّ عَبَسَ ^(٢٠) وَبَسَرَ ^(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ^(٢٢) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَعْرٌ يُؤْتَرُ ^(٢٣) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ^(٢٤) ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذكره- : إن هذا الذي خلقته وحيداً ، فكّر فيما أنزل على

(١) جامع البيان (٩٣/١١) . ومثله في الحشر (٢-١) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآيتين جامع البيان (٢٧/١٢) .

(٢) جامع البيان (٢٩٥/١١) .

(٣) جامع البيان (٢٩٥/١١) .

عبده محمد ﷺ - من القرآن ، وقدّر فيما يقول فيه... " (١)

فالتفكير واقع من هذا الرجل - وهو الوليد بن المغيرة (٢) - في القرآن ماذا يقول فيه ؛ بدليل قوله - تعالى - بعدها حكاية عن الوليد : ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۗ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۗ ﴾ ؛ لأنه إنما قال هذا الكلام بعد تفكيره وتقديره، فالمفكر فيه هو المتكلم فيه قطعاً، وهو القرآن .

(١) جامع البيان (٣٠٨/١٢) . وانظر مواضع أخرى في : الفتح (١٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ بِدَأْ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية جامع البيان (٣٣٨/١١) ، وسورة ق (٤١-٤٢) ﴿ وَأَسْتَعِمْ يَوْمَ يُبَادُ الْمَنَاوِدُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٣٨/١١) ، والمنتحنة (٤) ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِرَبِّهِمْ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَنَحْنُ نَسْتَعِدُّونَ ﴾ الآية جامع البيان (٥٩/١٢) ، والحاقة (٣٨-٤٠) ﴿ فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُجْرُونَ ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٢/١٢) ، والإنسان (٢٣-٢٤) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ الآية جامع البيان (٣٧٣/١٢) ، والمرسلات (٧-١٥) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَيْحٍ ﴾ الآية جامع البيان (٣٨٢/١٢) .

(٢) هو أبو عبد شمس ، المخزومي ، أحد رؤساء قريش ، ومن قضاة العرب ، وأول من خلع نعليه في الجاهلية لدخول الكعبة ، أدرك الإسلام شيخاً هرمًا فعاداه ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ، وهو والد سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد . انظر المعارف صفحة (٥٥١) ، وجامع البيان (٣٠٩/١٢) ، وتفسير القرآن العظيم (٤٤٣/٤) ، والأعلام (١٤٤/٩) .

المطلب الخامس : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري -رحمه الله - قاعدة : اختيار المعاني التي يتسق وينتظم معها الكلام :

لقد حصل من عرض الأمثلة الماضية : أن الإمام الطبري -رحمه الله- يسير على قاعدة لها ميزها وفوائدها ، ويأتي تعليقه عليها واضحاً جلياً ، وهذا في الأعم الأغلب ؛ ولكن هناك مواضع لم تكن على هذا النحو ، وهي قليلة منها :

في قوله -تعالى- : ﴿ **وَقِيَّ آمُرُؤَلَيْهِمْ حَتَّىٰ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ** ﴾ [الذاريات: ١٩] قال -رحمه الله- : "يقول -تعالى- ذِكْرُهُ -: وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حقّ لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم ، وبنحو الذي قلنا في معنى السائل ، قال أهل التأويل ، وهم في معنى : المحروم مختلفون ، فمن قائل : هو المحارَف^(١) الذي ليس له في الإسلام سهم... [أو] الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك... ومن قائل : هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً... وقائل : هو الذي لا سهم له في الغنيمة... وقائل : هو الذي لا ينمى له مال... وقائل : هو الذي قد ذهب ثمره وزرعه... وكان الشعبي يقول في ذلك : أعياني أن أعرف ما المحروم .

والصواب من القول في ذلك عندي : أنه الذي قد حُرِمَ الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره ، فصار ممن حرمه الله ذلك ، وقد يكون بسبب تعفّفه وتركه المسألة ، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة ؛ لغيبته عن الوقعة ، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن نعم ، كما قال -جلّ ثناؤه- : ﴿ **وَقِيَّ آمُرُؤَلَيْهِمْ حَتَّىٰ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ** ﴾^(٢) .

فهنا لم يقل بالتضادّ بين : السائل والمحروم -كما هي عادته في مواضع كثيرة غيرها- ، وكان الأولى : أن يُختار لمعنى المحروم ما يقابل السائل ، فيقال : هو الذي لا

(١) المحارَف : هو المحدود المحروم ، الذي لا ينمى له مال ، وهو ضدّ المبارك . انظر مختار الصحاح صفحة (١٠٥) .

(٢) جامع البيان (١١/٤٥٦-٤٥٩) .

يسأل وهو محتاج ، على أي حال كان ، حتى ينتظم الكلام ويكون على معنى بين مناسب .
 وفي قوله -تعالى- : ﴿ **وَاللَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ** ﴾ [النجم: ٤٨] قال رحمه الله- : " يقول
 -تعالى ذِكْرُهُ - : وأن رَبِّكَ ﴿ **هُوَ أَغْنَىٰ** ﴾ : من أغنى من خلقه بالمال وأقناه ، فجعل له قُنية
 أصول أموال ، واختلف أهل التأويل في تأويله : فقال بعضهم بالذي قلنا في ذلك ... وقال
 آخرون : غُنِيَ بقوله : ﴿ **أَغْنَىٰ** ﴾ : أخدم... وقال آخرون : بل غُنِيَ بذلك : أنه أغنى من
 المال ، وأقنى : رضي... وقال آخرون : بل غُنِيَ بذلك : أنه أغنى نفسه ، وأفقر خلقه
 إليه... وقال آخرون : بل غُنِيَ بذلك : أنه أغنى من شاء من خلقه ، وأفقر من شاء...^(١)
 ولم يرجح مقابلة الغنى مع الفقر ، وقد قال به جماعة من المفسرين -كما أورد-
 وهي الأنسب والأوفق للكلام .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ **قَالُمُورِيَّتٍ قَدْحًا** ﴾ [العاديات: ٢] قال رحمه الله- : " اختلف
 أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم : هي الخيل تُوري النارَ بجوافرها... وقال آخرون : بل
 معنى ذلك : أن الخيل هَجَنَ الحرب بين أصحابهنَّ ورُكبانهنَّ... وقال آخرون : بل غُنِيَ
 بذلك : الذين يُورون النار بعد انصرافهم من الحرب... وقال آخرون : بل معنى ذلك : مكر
 الرجال... وقال آخرون : هي الألسنة... وقال آخرون : هي الإبل حين تسيّر تَنْسِفَ
 بمناسمها الحصى^(٢) ...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله -تعالى ذِكْرُهُ - أقسم بالموريات
 التي توري النيران قدحاً ، فالخيل تُوري بجوافرها ، والناس يورونها بالزناد ، واللسان مثلاً
 يوري بالمنطق ، والرجال يورون بالمكر مثلاً ، وكذلك الخيل تميج الحرب بين أهلها إذا
 التقت في الحرب ، ولم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعضٌ دون بعض ، فكل ما

(١) جامع البيان (١١/٥٣٥-٥٣٦) .

(٢) المُسَمِّ حَفَّ البعير . مختار الصحاح صفحة (٤٨٠) مادة (ن س م) .

أُورَت النَّارَ قَدْحًا ، فداخلةٌ فيما أقسم به ؛ لعموم ذلك بالظاهر .^(١) ولم يحمل ما أقسم الله به في سورة العاديات على محملٍ واحد ، مع عطف بعضها على بعض ، ولو قال : يدخل الخيل أولها في الوصف لكان أحسن .

هذه نقاط القاعدة السادسة ، عسى أن تكون واضحة فقد تبيّن فيها : نص القاعدة ، وطريقة البحث عن المقابل المضاد في الكلمات والجمل ، حيث إنه من طريقة القرآن ونهجه في عرض المثاني ، وكذا يحسن بالمفسر عرض ما سيرد متأخراً في تفسير أول الآية أو الآيات ؛ لأنه أوضح في بيان المراد ، ثم عرض لما خرج عن هذه القاعدة من التطبيق ، وأن الأولى اختيار ما يناسب المقام . -والحمد لله رب العالمين- .

(١) جامع البيان (١٢/٦٦٧-٦٦٩) . وانظر مثله في طه (٥٩-٦٠) ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ مُجَشَّرَ النَّاسِ سُمَّيْ ﴾ الآيةين
جامع البيان (٨/٤٢٧) .

المبحث السابع : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشابههم :

يربط الإمام الطبري -رحمه الله- كثيراً الخطاب بمن نزلت فيه الآيات حسب سياقها ، وهنا يتضح أنه بهذا التعيين لا يقصد عدم دخول غيرهم في الخطاب ، كلا ؛ إذ القرآن نزل لجميع الخلق ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧). وقبل الدخول للقاعدة أذكر نبذة مختصرة عن أصل هذا المبحث ، وهو قاعدة أصولية تختلف فيها : هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟.

وتتضح هذه القاعدة من خلال التمثيل بآيات اللعان : وهي قول الله -تعالى-:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَكُرَّيْمًا شَهَدَةً إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْوَجُ أَرْبَعِ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) وَالْفَتْمَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْفَتْمَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ [النور: ٦ - ٩] ، الآيات التي نزلت في عويمر العجلاني^(١) أو هلال بن أمية^(٢) ، يرى الجمهور أن كلمة "الذين" صيغة من صيغ العموم ، ولا حاجة إلى دليل آخر لإثبات العموم ، من قياس أو غيره ، بل هو ثابت بعموم النص.^(٣) ، والقول الآخر : أن العبرة بخصوص السبب^(٤) ومعناه : أن لفظ الآية مقصور على التي نزلت فيه ، أما أشباهها فلا يعلم الحكم من نص الآية ، بل بدليل آخر هو : القياس ، إذا استوفى شروطه ، أو بالحديث النبوي الذي روي عنه -ﷺ- : "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة"^(٥).

(١) هو عويمر بن أبي أبيض بن العجلان ، وأبيض لقب لبعض آبائه . انظر الإصابة (٤٥/٥) .

(٢) هو هلال بن أمية بن عامر الأنصاري الواقفي ، شهد بدرًا وما بعدها ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم . انظر الإصابة (٢٨٩/٦) .

(٣) ويمثلهم : الإمام أحمد والشافعي وأكثر المالكية والحنفية . انظر شرح الكوكب المنير (١٧٧/٣-١٧٨) .

(٤) ويمثله : الإمام مالك وأبو ثور والمزني والقفال والدقاق من الشافعية . انظر شرح الكوكب المنير (١٧٨/٣) .

(٥) هذا الحديث لا أصل له ، وفي معناه مما له أصل قوله ﷺ : "وما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمائة امرأة" رواه الترمذي

فيلاحظ أنّ نهاية العمل مع النصّ عند الفريقين : هو القول بتعدي النص -الذي له سبب معيّن - من نزلت فيه إلى غيره ؛ ولكن : هل هذا التعدي بالنص نفسه ؟ أو بغيره ؟ هذا هو محل الخلاف^(١).

ويشير شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى نتيجة الخلاف فيقول : "والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب ، هل يختص بسببه أم لا ؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهيّاً ، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذمّ ، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته أيضاً " ^(٢).

وسأعرض لأمثلة هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

- المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها .
- المطلب الثاني : التعامل مع ما ورد فيه سبب نزول .
- المطلب الثالث : التعامل مع ما ورد فيه لفظ عموم .
- المطلب الرابع : موضع لم يستعمل فيه الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشابههم .

بنحوه في كتاب السير ، باب ما جاء في بيعة النساء (٤/١٢٩) ، (٤٣٦/١) حديث (١٥٩٧) ، وبين الدارقطني أن حديث الترمذي على شرط الشيخين ، وأحمد نحوه (٦/٣٥٧) حديث (٢٧٠٥١-٢٧٠٥٥) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/١١٧) حديث (١٣٠٠) ، وانظر كشف الخفا للعجلوني بتصرف صفحة (٤٣٦) ، والمقاصد الحسنة صفحة (١٩٢-١٩٣) .

(١) انظر مناهل العرفان (١/١٢٥-١٢٦) دار إحياء الكتب العربية .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، (٣٣٨/١٣-٣٣٩) ، وانظر كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية صفحة (٥٠٣ و٥٠٣) .

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها :

١- نص القاعدة : قد يحدّد المفسّر المخاطب بالآية بأنهم قوم معيّنون ، ولكن لا يفهم من ذلك خروج غيرهم من الخطاب ، ولو كان ذلك لذهبت فوائد عظيمة من قصص وأخبار كثيرة ، ساقها الله - عزّ وجلّ - في كتابه للعبرة ، والخطاب فيها لمعيّنين :

ففي قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَفْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧] قال - رحمه الله - : "...اختلف أهل المعرفة في معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسوله - ﷺ - ، ونقضهم ذلك تركهم العمل به . وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وإياهم عني الله جل ذكره بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦] وبقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَأْمُرُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ٨] ، فكلّ ما في هذه الآيات فعُدلّ لهم^(١) ، وتويخ إلى انقضاء قصصهم ، قالوا : فعهد الله الذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة ، من العمل بما فيها ، واتباع محمد - ﷺ - إذا بعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك ، وكنماهم علم ذلك للناس ، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق لبيئته للناس ولا يكتُمونه ، فأخبر الله - جلّ ثناؤه - : أنهم نبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، وقال بعضهم : إن الله عني بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيدهم : ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه : ما احتج به لرساله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك :

(١) العذل : الملامة . وانظر معجم مقاييس اللغة (٤/٢٥٨) ، وترتيب القاموس المحيظ (٣/١٧٩) .

تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق . وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله جل ذكره ، هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم...

وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك : قول من قال : إن هذه الآيات نزلت في كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجر رسول الله ﷺ - وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل ، ومن كان على شركه من أهل النفاق... وقد دللنا على أن قول الله - جل ثناؤه - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] ، وفي من كان على مثل الذي هم عليه من الشرك بالله ، غير أن هذه الآيات عندي وإن كانت فيهم نزلت ، فإنه معني بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال ، ومعني بما وافق منها صفة المنافقين خاصة جميع المنافقين ، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيراً في كفرهم ، وذلك أن الله - جل ثناؤه - يعم أحياناً جميعهم بالصفة ؛ لتقديمه ذكر جميعهم في أول الآيات التي ذكرت قصصهم ، ويخص أحياناً بالصفة بعضهم لتفصيله في أول الآيات بين فريقيهما ، أعني : فريق المنافقين من عبدة الأوثان وأهل الشرك بالله ، وفريق كفار أحبار اليهود... وإنما قلت : إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عنى بها ؛ لأن الآيات من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم ، وفي الآية التي بعد الخبر عن خلق آدم وبيانه في قوله : ﴿ يَبَيِّنْ لَكُمْ إِسْرَارَهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا فَعَسَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَجِبُّ عَنِ الْيَقِينِ ﴾ [البقرة: ٤٠] ، وخطابه إيّاهم - جل ثناؤه - بالوفاء بذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الْيَقِينِ ﴾ [البقرة: ٢٧] مقصود به كفارهم ومنافقوهم ، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم ، غير أن الخطاب وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل في أحكامهم وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ كل من كان على

سبيلهم ومنهاجهم ، من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي...^(١) ففي هذا المثال يتضح كيفية التعامل مع الآيات المخاطبة لمعينين : حيث لا مانع من جعل الخطاب لأشخاص حال نزوله ، مثل : اليهود أو المنافقين ، ولكن لا يعني ذلك اختصاص محتوى الخطاب وتوجيهاته بهم ، بل يدخل من يشاكلهم ويشاكلهم في الوصف والعمل . وهذا هو معنى القاعدة .

٢ - الأمثلة الموضحة للقاعدة :

بعد ذكر نص القاعدة ومثالها الموضح لها ، يحسن ذكر أمثلة أخرى يكون من مجموعها : إبراز معنى القاعدة ، وتأکید العمل بها ، والأمثلة كثيرة منها :

في قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَنَكُمْ لِسِيمًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْ حَتَّىٰ نُنصِرُكَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَهُوتُ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال -رحمه الله - : "...اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية: فقال بعضهم : عني بها المسلمون من أمة محمد - ﷺ - وفيهم نزلت...وقال آخرون : عني ببعضها أهل الشرك وبعضها أهل الإسلام..."

قال أبو جعفر : والصواب من القول عندي أن يقال : إن الله -تعالى- ذكّره - توعده بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان ، وإياهم خاطب بها ؛ لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم ، وذلك أنها تتلو قوله : ﴿ قُلْ مَنْ يُنصِرُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ أَلَّنَّ وَالْبَحْرِ نَدْعُونَهُ نَضْرِبُهَا لِيَن أَجْنَاسًا مِّنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [١٣] قُلْ اللَّهُ يُنصِرُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ دَرَبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] ويتلوها قوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦] ، وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذّبين ، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك ، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين ، كان بيّناً أن ذلك وعيد لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك وتأخر الخبر عنه بالكذب ، لا لمن لم يجر له ذكر ، غير أن ذلك وإن كان كذلك فإنه قد عم وعيده

(١) جامع البيان (١/٢١٩-٢٢١) ، وتحقيق شاكر (١/٤٠١) .

بذلك : كل من سلك سبيلهم ، من أهل الخلاف على الله ، وعلى رسوله ، والتكذيب بآيات الله ، من هذه وغيرها... " (١)

وهذا نص واضح في الاهتمام بتحديد المخاطب من السياق ، بمراعاة ما قبل الآية وما بعدها ، وأن الآية ونحوها تتبع بسباقها ولحاقها ، ومع القول بتحديد المخاطب ، فإنه يدخل في الخطاب كل من شابه المعين في صفته ، وسلك سبيله ، فيشملة الوعيد ونحوه (٢).

وفي قوله -تعالى- : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال -رحمه الله- : "...فإن قال قائل : أضمنسوخ ذلك ؟ قيل : لا دلالة عندنا على أنه منسوخ ، إذ كان جائزاً أن يكون ، وإن كان الله أنزله على نبيّه -عليه السلام- في تعريفه عشرة من لم يؤمر بقتاله من المشركين ، مراداً به تأديب نبي الله والمسلمين جميعاً في عشرة الناس وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم ، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليماً من الله خلقه صفة عشرة بعضهم بعضاً ، [إذا] لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم ، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم استعمال الواجب ، فيكون قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أمراً بأخذه ما لم يجب غير العفو ، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك ، فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة... وأما قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فإنه أمر من الله -تعالى- نبيّه -ﷺ- أن يعرض عن جهل . وذلك وإن كان أمراً من الله نبيّه ، فإنه تأديب منه - عزّ ذكره - خلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم ، لا بالإعراض عن جهل الواجب عليه من حقّ الله ، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين

(١) جامع البيان (٢٢٣/٥) ، وتحقيق شاكر (٤٢١/١١) .

(٢) اختلف المفسرون في المراد بالآية : فمنهم ذهب إلى العموم ، ومنهم من قال : هي في الكفار ، ومنهم من قال : هي في المسلمين ، فذهب القرطبي أن الصحيح أنها في المسلمين أهل الصلاة ١٢/٧-١٣ ، وأنكر ابن عاشور على من جعل الآية في المسلمين ، وساق حديث البخاري مرفوعاً لما نزلت : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَائِدُ عَلَيَّ أَنْ يَبْتَغَىٰ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن قَوْلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: أعوذ بوجهك... الحديث ، ووجهه بأنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف من أن يصل عذاب الكافرين إلى المؤمنين...وله في ذلك تفصيل ٢٨٥/٧/٤ ، والأول أولى على ما ذكر ابن جرير .

حَرْبٌ. " (١)

وفي قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١] قال -رحمه الله-: " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ- : إنَّ الذين أقرّوا بتوحيد الله ، وهم هؤلاء القوم الذين حرّقهم أصحاب الأخدود ، وغيرهم من سائر أهل التوحيد... " (٢)

ففي الأمثلة الماضية يتبين أن قول المفسر : إن الله -عزّ وجلّ- خاطب المشركين أو اليهود أو غيرهم بدليل سياق الآيات أو سبب النزول ، معناه : حال نزوله ، وأن هذا الخطاب لا يختص بهم بل يدخل غيرهم ممن هو على شاكلتهم إلى يوم القيامة ، بل حتى الخطاب للنبي -ﷺ- لا يعني اختصاصه بالخطاب ، إلا ما ورد الدليل على أنه خاص به -ﷺ- (٣) .

(١) جامع البيان (٦/١٥٣-١٥٤) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٢٩) .

(٢) جامع البيان (١٢/٥٢٨) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ جامع البيان (٣/٣٥٣) ، والمائدة (٤٤) ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ بَتَوْلُوكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية جامع البيان (٤/٥٨٨) ، والإسراء (٢٢) ﴿لَا يَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مِثْلَ مَا خَرَفْتُمْ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٢٢﴾﴾ جامع البيان (٧/٥٧) و(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية جامع البيان (٧/٧٦) ، و(٨٥) ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية جامع البيان (٧/١٤٣-١٤٤) ، والإنسان (٨) ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِيانًا وَبَيْتًا وَأَبْدَانًا ﴿٨﴾﴾ جامع البيان (١٢/٣٦٠) .

(٣) فقوله : ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ﴾ [الزمل: ١] خطاب للنبي -ﷺ- ؛ ولكنه عام للأمة عند الجمهور ، ولا يكون خاصاً بالرسول إلا بدليل ، كما في قوله : ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ إِنَّا أَنزَلْنَا لَكَ أَرْزَاقَ النَّبِيِّ ءَأَيَّتِ أَجْرُهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمِكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلرَّبِّ إِنْ أَرَادَ الرَّبُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ، فـ ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ قرينة دلّت على خصوص الخطاب ، وعدم دخول الأمة فيه . انظر شرح الكوكب المنير (٣/٢١٨) ، والواضح في أصول الفقه للدكتور محمد الأشقر صفحة (١٩١-١٩٢) .

المطلب الثاني : التعامل مع ما ورد فيه سبب نزول :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١] قال -رحمه الله - : " اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية : فروي عن سلمان الفارسي^(١) أنه كان يقول : لم يجيء هؤلاء بعد... وقال آخرون :...هم المنافقون... "

وأولى التأويلين بالآية : تأويل من قال : إن قول الله -تبارك اسمه- : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله -ﷺ- ، وإن كان معنياً بها كل من كان يمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة ، وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية : ما جاء هؤلاء بعد ، أن يكون قاله : بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفة على عهد رسول الله -ﷺ- ، خيراً منه عمّن هو جاء منهم بعدهم ولما يجيء بعد ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن هذه صفة أحد ، وإنما قلنا أولى التأويلين بالآية ما ذكرنا ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك صفة من كان بين ظهري أصحاب رسول الله -ﷺ- على عهد رسول الله -ﷺ- من المنافقين ، وأن هذه الآيات فيهم نزلت ، والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن من قول لا دلالة على صحته من أصل ولا نظير^(٢).

وإذا ثبت نزول الآية في معينين لم يجوز أن يقال بنزولها في غيرهم ؛ لأن سبب النزول ليس بالاجتهاد وإنما هو بالنقل ، ولكن إنما يقال بدخول غيرهم إذا وافقوهم

(١) هو أبو عبد الله ، سلمان الفارسي ، أصله من رامهرمز أو أصبهان ، وقصة إسلامه مليئة بالعبث ، فقد كان مجوسياً ، ثم تنصّر ، فلم يزل من راهب إلى آخر ، حتى سرق فيبع ، فسمع بمحمد -ﷺ- فامتحن صدقه ، ونظر صفاته ، التي في التوراة والإنجيل فأمن ، وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، وأول حضور له الخندق ؛ لأنه كان مستترقاً قبلها ، وهو صاحب فكرة الخندق ، توفي سنة ست أو سبع وثلاثين . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٨/١-٢٣٦) ، وتاريخ بغداد (١٦٣/١) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٥/١) ، والإصابة (١١٣/٣) .

(٢) جامع البيان (١٥٨/١-١٥٩) ، وتحقيق شاکر (٢٨٧/١) .

وشاكلوهم في صفاتهم ؛ لأن القرآن نزل لهداية العالمين ، من بعثة نبينا محمد ﷺ - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُؤَلُّوهُمْ أَلا يُؤَلُّوا ﴾ (١٥)

وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمِئِذٍ دُبُرُهُ إِلا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَى الْإِنِّ فَتَوَّ فَقد بَاءَ يَعْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنُهُ جَهَنَّمُ
وَبَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦] قال -رحمه الله- : "...اختلف أهل العلم في حكم قول الله -عز وجل- : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمِئِذٍ دُبُرُهُ إِلا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَى الْإِنِّ فَتَوَّ فَقد بَاءَ يَعْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَنُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هل هو خاص في أهل بدر؟ أم هو في المؤمنين جميعاً ؟ . فقال قوم : هو لأهل بدر خاصة ؛ لأنه لم يكن لهم أن يتركوا رسول الله ﷺ - مع عدوه وينهزموا عنه ، فأما اليوم فلهم الانهزام... وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولّى الدبر عن العدو منهزماً... .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي ، قول من قال :

حكمها محكم ، وأما نزلت في أهل بدر ، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين... " (١)
وفي هذه الآية حكم ووعيد نزل في أهل بدر ، ولكن لا يصح جعل الحكم خاصاً بهم مع عدم الدليل ، وإنما يقال بالنسخ أو الخصوصية بدليل وبرهان ، ويطل القول بالخصوص عند عدم دليل التخصيص ، ويصبح اللفظ عاماً لكل من يصلح لهم الخطاب .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ آلِهونٍ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٦) [الأنعام: ٩٣] قال

- رحمه الله - : "...وقد اختلف أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم فيه : [هذا تسفيه من الله وتجهيل للعرب في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (٢) لنبى الله ﷺ - بدعوى

(١) جامع البيان (٦/٢٠١-٢٠٢) ، وتحقيق شاكر (٤٣٦/١٣) .

(٢) هو الصحابي ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث ، كان مؤمناً من كتبة الوحي ، ثم ارتدّ وسب دين الإسلام ،

أنه جاء بمثل ما جاء به رسول الله -ﷺ- والحنفي مسيلمة^(١) لنيبي الله -ﷺ- - بدعوى النبوة]...، وقال آخرون : بل نزل ذلك في عبد الله بن سعد خاصة... وقال آخرون : بل القائل : ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ مسيلمة الكذاب...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب : أن يقال : إن الله قال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ولا تمنع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال : إني قد قلت مثل ما قال محمد ، وأنه ارتد عن إسلامه ولحق بالمشركين . فكان لا شك بذلك من قبله مفترياً كذباً . وكذلك لا خلاف بين الجميع : أن مسيلمة ، والعنسي^(٢) الكذابين : ادّعى على الله كذباً أنه بعثهما نبيين ، وقال كل واحد منهما : إن الله أوحى إليه ، وهو كاذب في قبله ، فإذا كان ذلك كذلك ، فقد دخل في هذه الآية كل من كان محتلقاً على الله كذباً ، وقائلاً في ذلك الزمان وفي غيره : أوحى الله إلي ، وهو في قبله كاذب لم يوح الله إليه شيئاً ، فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب

فأهدر الرسول -ﷺ- دمه عند فتح مكة ، وجاء به عثمان إلى الرسول -ﷺ- فعفا عنه ، وأسلم ، ثم حسن إسلامه ، فأصبح من قواد الجيوش ، وهو أخ لعثمان بن عفان من الرضاعة ، وولد لعثمان على مصر كلها ، وكان محموداً ، توفي سنة ست وثلاثين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٣٣/٣) ، والإصابة (٧٦/٤) ، وشذرات الذهب (٤٤/١) .
(١) هو أبو ثمامة ، مسيلمة الكذاب بن ثمامة بن بكر بن حبيب الحنفي الوائلي ، ولد ونشأ باليمامة ، وهي حالياً تسمى بالجبيلة ، قرب العيينة بوادي حنيفة في نجد ، ادّعى النبوة ، وتبعه قومه ، وتزوج سجاح التي تنبأت ، وتبعها قومها من بني تميم ، توفي النبي -ﷺ- قبل أن يقضي على فتنته ، وأرسل أبو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد فقتله وانتصر على جيشه ، سنة إحدى أو اثني عشرة . انظر المعارف صفحة (١٧٠ و٢٦٧ و٤٠٥) ، والسير النبوية لابن هشام (٢٤٦/٤) ، وهذيب الأسماء واللغات (٩٥/٢) ، والكامل في التاريخ (٢٤٣/٢-٢٤٧) .

(٢) هو عيهلة الأسود بن كعب العنسي ، من مدحج ، ارتد وتنبأ بصنعاء ، وغزا نجران ، وسار إلى صنعاء ، وملك من مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين إلى عدن ، واستطار أمره كالحريق ، وأمر النبي بقتاله أو قتله غيلة ، فأجابوه وقتله فيروز ، وكان أول أمره إلى آخره ثلاثة شهور . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٤٦/٤) ، والكامل لابن الأثير (٢٣٠-٢٢٧/٢) .

بعضهم ، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم ، وجائز أن يكون عني به جميع المشركين من العرب... " (١)

ففي هذين المثالين يظهر جلياً أن آيات الله المنزلة إن كانت ذا سبب ومخاطبين معاصرين لنزولها ، فإن هذا لا يعني اختصاصها بهم ، وإنما يدخل في معناها كل من شابههم .

ويمكن التفريق بين من نزلت الآيات بسببه وبين من شابهه : بأن دخول من نزلت فيه الآية قطعي لا يخرج مطلقاً من دلالة الآية ، وأما غيره فهو محل اجتهاد ونظر^(٢) . هل هو مشابه لمن نزلت بسببه الآيات أم لا ؟ . وهذا لا يتعارض مع قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وإنما يجعل إدخال الشخص في مضمونها مشروطاً بتوفر الصفات وصحة القياس فيمن يقال بدخوله في مدلول الآيات . - والله أعلم - .

(١) جامع البيان (٢٦٨/٥-٢٦٩)، وتحقيق شاكر (٥٣٣/١١) . وانظر مواضع أخرى في : النساء (١٣٤) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ قَوَابَ الدُّنْيَا فَوَسَدَ اللَّهُ قَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية جامع البيان (٣١٩/٤) ، و(١٣٥) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِالْأَسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية جامع البيان (٣٢٠/٤) ، والنحل (٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُرُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الآية جامع البيان (٦٣٦/٧) ، والنور (٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُنثُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ الآية جامع البيان (٢٩٢/٩) .

(٢) انظر شرح الكوكب المنير (١٨٧/٣) .

المطلب الثالث : التعامل مع ما ورد فيه لفظ عموم :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤] قال - رحمه الله - : "...فإن قال قائل : ومن الذي عني بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ وأي المساجد هي ؟ . قيل : إن أهل التأويل في ذلك مختلفون : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه : هم النصارى ، والمسجد : بيت المقدس... وقال آخرون: وهو يختصّر وجنده ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد : مسجد بيت المقدس... وقال آخرون: بل عني الله عزّ وجلّ- بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام..."

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية : قول من قال : عني الله عزّ وجلّ- بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ : النصارى ، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده . والدليل على صحة ما قلنا في ذلك : قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها ، وأن لا مسجد عني الله عزّ وجلّ- بقوله : ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ إلا أحد المسجدين ، إمّا مسجد بيت المقدس ، وإمّا المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أنّ مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام ، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله - ﷺ - وأصحابه من الصلاة فيه ، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله عزّ وجلّ- بالسعي في خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارها ، إذ كان مشركو قريش بنو المسجد الحرام في الجاهلية ، وعمارته كان افتخارهم ، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على

غير الوجه الذي يرضاه الله منهم ، وأخرى : أن الآية التي قبل قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ مَضَتْ بالخبر عن اليهود والنصارى وذمّ أفعالهم ^(١)، والتي بعدها نبّهت بدمّ النصارى والخبر عن افتراءهم على ربهم ^(٢) ، ولم يَجْرَ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها ، فيوجه الخبر بقول الله - عزّ وجلّ - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه : هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرها نظيراً وشكلاً ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت . فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك ، إذ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في المسجد [المقدس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، فيلجئون] ^(٣) توجيه قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ إلى أنه معنيّ به مسجد بيت المقدس ، فقد أخطأ فيما ظنّ من ذلك ، وذلك أن الله - جلّ ذكّره - إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل ، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد ، وإن كان قد دلّ بعموم قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أن كلّ مانعٍ مصلياً في مسجد لله فرضاً كانت صلاته فيه أو تطوعاً ،

(١) وهي قوله عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى سَنَى وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى سَنَى وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ١١٣] وما قبلها .

(٢) وهي قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦] .
(٣) في تحقيق شاكر أشار : إلى أن العبارة هكذا وردت في النسخ المطبوعة والمخطوطة ، ولعلّ فيها سقطاً ونحريفاً ، ويمكن أن يكون الكلام هكذا " فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك ، إذ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في مسجد بيت المقدس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، وكان النصارى واليهود لم يمنعواهم قط من الصلاة فيه ، فيجوز توجيه قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤] إلى أنه معنيّ به مسجد بيت المقدس" . انظر تحقيق شاكر . (٥٢٣/٢) .

وكل ساعٍ في خرابه فهو من المعتدين الظالمين .^(١)

ويستفاد من المثال أن العموم يؤخذ من لفظ العموم في الآية ، وهو ﴿ وَمَنْ ﴾ ، فهو يشمل من نزلت فيه الآيات ومن شاهه؛ لكن دخول من نزلت فيه الآيات دخول أولي .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧] قال -رحمه الله-: "...واختلفوا في معنى الاعتداء الذي قال -تعالى- ذكروه- : ﴿ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فقال بعضهم : الاعتداء الذي نهى الله عنه في هذا الموضع : هو ما كان عثمان بن مظعون^(٢) هم به من حب نفسه ، فنهى عن ذلك ، وقيل له : هذا هو الاعتداء... وقال آخرون : بل ذلك هو ما كان الجماعة من أصحاب رسول الله - ﷺ - هموا به من تحريم النساء ، والطعام ، واللباس ، والنوم ، فنهوا أن يفعلوا ذلك ، وأن يستنوا بغير سنة نبيهم محمد - ﷺ -... وقال بعضهم : بل ذلك نهى من الله -تعالى- ذكروه- أن يتجاوز الحلال إلى الحرام... وقد بينا أن معنى الاعتداء : تجاوز المرء ماله إلى ما ليس له في كل شيء..."

قال أبو جعفر : وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله -تعالى- ذكروه- قد عم بقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَدُوا ﴾ النهي عن العدوان كله ، كان الواجب أن يكون محكوماً لما عمه بالعموم ، حتى يخصه ما يجب التسليم له ، وليس لأحد أن يتعدى حد الله -تعالى- في شيء من الأشياء مما أحل أو حرّم ، فمن تعداه فهو داخل في جملة من قال -تعالى- ذكروه- : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ . وغير مستحيل أن تكون الآية نزلت في : أمر عثمان بن مظعون ، والرهط

(١) جامع البيان (١/٥٤٥-٥٤٧) ، وتحقيق شاكر (٢/٥٢٠) .

(٢) هو أبو السائب ، عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي ، من سادة المهاجرين ، هاجر الهجرتين ، توفي بعد بدر ، وهو أول من مات من المهاجرين بعد بدر ، قبله رسول الله ﷺ بعد موته ، ودموعه تسيل على خد عثمان ، وصلى عليه ، وهو أول من دفن في البقيع ، سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل اثنتين . انظر حلية الأولياء (١/١٠٢) ، وسير أعلام النبلاء (١/١٥٣) ، والإصابة (٤/٢٢٥) ، وشذرات الذهب (١/٩) .

الذين همّوا من أصحاب رسول الله - ﷺ - بما همّوا به من تحريم بعض ما أحلّ الله لهم على أنفسهم ، ويكون مراداً بحكمها كلّ من كان في مثل معناهم ، ممن حرّم على نفسه ما أحلّ الله له ، أو أحلّ ما حرّم الله عليه ، أو تجاوز حدّاً حدّه الله له ، وذلك أن الذين همّوا بما همّوا به من تحريم بعض ما أحلّ لهم على أنفسهم ، إنّما عوتبوا على ما همّوا به من تجاوزهم ما سنّ لهم وحدّ إلى غيره .^(١)

فاستفيد العموم من النهي المطلق في قوله : ﴿ وَلَا تَمْتَدُوا ﴾ فيدخل تحت النهي : كلّ ما كان اعتداء سواء بالتحليل أو بالتحريم ، ودخول المعتدي إن كان فاعلاً أولى من دخول من نزلت فيه الآيات ؛ لأن من نزلت فيهم الآيات لم يكن منهم فعلٌ بل هم فقط .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ يعني بقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ ﴾ إن مَبْغُضَكَ يا محمد وعدوك ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ يعني بالأبتر : الأقلّ الأذلّ المنقطع دابره ، الذي لا عَقِبَ له . واختلف أهل التأويل في المعنى بذلك : فقال بعضهم : عُنِيَ به العاص بن وائل السهمي^(٢)... وقال آخرون : بل عُنِيَ بذلك عُنِيَ بذلك : عَقْبَةُ بن أبي مُعَيْط^(٣)... وقال آخرون : بل عُنِيَ بذلك جماعة من قريش... "

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن الله -تعالى- ذكّره -أخبره أن مَبْغُضَ رسول الله - ﷺ - هو الأقلّ الأذلّ المنقطع عقبه ، فذلك صفة كلّ من أبغضه من

(١) جامع البيان (١٢/٥-١٣) ، وتحقيق شاکر (٥٢١/١٠) .

(٢) هو العاص بن وائل السهمي ، والد الصحابي عمرو بن العاص ، من المستهزئين ، وكانت حرفته معالجة الخيل والإبل ، وكان من الحكام في الجاهلية ، مات بعد ورمٍ في رجله لم يُدر ما سببه ! ، ولم يعرف تحديد وفاته . انظر المعارف صفحة (٥٧٦ و ٢٨٥) ، والأعلام (١١/٤) .

(٣) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد وكنيته ابن أبي معيط ، كان شديد الأذى للمسلمين ، وكان من أسرى بدر ، وقتله النبي ﷺ بعدها صبراً . انظر المعارف صفحة (١٥٥) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٩٨/٢) ، والأعلام (٣٦/٥) .

الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخصٍ بعينه .^(١) فكلٌّ من أبغض دعوة الإسلام وحاربها ، فهو منقطعٌ منهزمٌ هالكٌ ، سواءً كان الفاعل لذلك في عهد نبينا محمد -ﷺ- وحياته ، أو كان في زمنٍ بعده إلى قيام الساعة . وفي مثل هذه المواضع يتضح بجلاء : أن ما كان فيه لفظ عموم مثل : مَنْ ، أو الأمر ، أو النهي المطلق ، فيشمل جميع ما يندرج تحته من أيِّ شخصٍ كان ، وقد يكون اللفظ مفرداً فلا مانع من دخول جمع تحته ، إذا تشابهوا في وصف الآية ؛ لأن العبرة ليست بخصوص السبب بل بعموم اللفظ . -والله أعلم- .

(١) جامع البيان (١٢/٧٢٥-٧٢٦) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (١٩٩) ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاثَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٦٠) ، والزمر (٣١) ﴿ تَدْرَأُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَخَصِمُوا ﴾ ﴿ جامع البيان (٤/١١) ، وفصلت (٤٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ الآية جامع البيان (١١/١١٥) ، والهمزة (١) ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً ﴾ ﴿ جامع البيان (١٢/٦٨٧-٦٨٨) .

المطلب الرابع : موضع لم يستعمل فيه الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم ، بل يدخل من يشابههم :

لقد نهج الإمام -رحمه الله- باطراد غالب على تطبيق هذه القاعدة ،ولكن هناك موضع واحد لم يتعامل معه التعامل نفسه :

ففي قوله -تعالى- : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الرَّشَدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ اللَّغْوِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال أبو جعفر : "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : فقال بعضهم [كابن عيينة] : معناه : سأنزع عنهم فهم الكتاب...وأصرفهم عن آياتي .

قال أبو جعفر : وتأويل ابن عيينة هذا يدلّ على أن هذا الكلام كان عنده من الله وعيداً لأهل الكفر بالله ممن بعث إليه نبينا -ﷺ- دون قوم موسى ؛ لأن القرآن إنما أنزل على نبينا محمد -ﷺ- دون موسى -عليه السلام- . وقال آخرون في ذلك : معناه : سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته ، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته ، في توحيده وعدله ، وغير ذلك من فرائضه ، والسماوات والأرض وكلّ موجود من خلقه فمن آياته ، والقرآن أيضاً من آياته ، وقد عمّ بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحقّ ، وهم الذين حقّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون ، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والأدكار بما مصروفون ؛ لأنهم لو وفّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به اتعظوا وأنابوا إلى الحقّ ، وذلك غير كائن منهم ؛ لأنه -جلّ ثناؤه- قال : ﴿ وَإِنْ يَرَُوا

كُلِّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿﴾ فلا تبديل لكلمات الله .^(١)

وقد عمّم الإمام -رحمه الله- معنى الآيات التي يصرف عنها المتكبرون على وجه العموم من عهد موسى -ﷺ- أو غيره ، واستدل بالعموم في قوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ وهذا صحيح ؛ ولكن السياق هنا : في اليهود ، والأحسن أن يقال : يدخل اليهود أولاً ، ولا يلزم من معنى الآيات أن يكون القرآن وحده ؛ لأن القرآن لم ينزل في عهد موسى -ﷺ- ، ويدخل غير اليهود ممن شاكرهم تبعاً .

وقد قال أبو السعود -رحمه الله- : "ارتباط الآية بوعد اليهود بدخول الأرض المقدسة ، أو بمواظب التوراة ، وعلى هذا يكون الكلام مع موسى -ﷺ- ، والآية متعلقة بقوله : ﴿ سَأُورِيكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أو بما تقدمه " ^(٢) . وقال الألوسي -رحمه الله- : " وجوز الطيبي^(٣) : كونها متصلة بقوله : ﴿ وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥] ، وقيل : الكلام مع كافر مكة ، والآية متصلة بقوله : ﴿ أَوْلَتْ يَهْدٍ لِلَّذِينَ يَرْتُوتُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ [الأعراف: ١٠٠] ، وإيراد قصة موسى وفرعون ؛ للاعتبار في أن فرعون لم يستطع إبطال آيات موسى -ﷺ- - " ^(٤) . وأجاز ابن عاشور^(٥) الوجهين : أن تكون متصلة بما قبلها وتكتمل لها ، وفي هذا تعريض بكفار العرب ، أو تكون جملة معترضة عن كفار قريش ،

(١) جامع البيان (٦/٦٠-٦١) ، وتحقيق شاکر (١١٢/١٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٤٠٣/٢) .

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي ، كان غنياً فأنفق حتى عاد فقيراً ، من مؤلفاته : شرح المشكاة ، وشرح الكشاف ، توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (١٥٦/٢) .

(٤) انظر روح المعاني (٦/٩٠) .

(٥) هو محمد بن الطاهر بن محمد عاشور ، مالكي المذهب ، رئيس المفتين في تونس ، وشيخ جامع الزيتونة ، ومن أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، له : التفسير العظيم المسمى : بالتحريير والتنوير ، وقد اهتم فيه باللغة والبيان بأسلوب واسع ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر المفسرون بين التأويل والإنبات لآيات الصفات (٣٥٧/٢) للمغراوي .

وصفاتهم مطابقة لما ذكر في الآية أتم انطباق. ^(١)

وفي ختام القاعدة تبينت طريقة العمل الصحيحة مع القرآن لفهمه كما هو وقت نزوله ، وما يصاحب النزول من أسباب وما يلحق به من توابع ، مع مراعاة سياق الآيات في السورة نفسها ، واستحضار حقيقة : أن القرآن ليس مقصوداً به من نزلت فيه الآيات أو كانت بسببه ، بل إنه نزل لكافة البشرية إلى قيام الساعة . -والله الموفق للصواب- .

(١) التحرير والتنوير (جزء ٩/١٠٥) .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق :

يمتاز القرآن الكريم بأنه لا يذكر القصص والأخبار لذاتها ، وإنما لما يحصل منها من الدروس والتوجيهات ، ولا بد حال النظر إلى هذه التوجيهات في ختام الحوادث والأخبار وغيرها من اعتبار رجوعها إلى ما ذكر من أفعال سابقة ، هذا هو الأصل المتبع ، وهو معنى هذه القاعدة باختصار .

وسأعرض لأمثلة هذا المبحث من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها .

المطلب الثاني : الأمر والنهي .

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها :

نص القاعدة : من عادة القرآن وطريقته : التعقيب على الأوامر والنواهي ، والترغيب والترهيب ، ونحو ذلك ، والواجب في فهم التعقيب أن يفسر على أنه عائد إلى ما سبق التعقيب ، دون ما لم يجر له ذكر .

وإليك هذا المثال الواضح في تفسير القاعدة وتطبيقها :

في قوله -تعالى- : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَزٌ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [البقرة: ١٠] قال -رحمه الله- : في قوله -تعالى- : ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ " اختلفت القراءة في قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم : ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ مخففة الذال مفتوحة الياء ، وهي قراءة عظم قراءة أهل الكوفة . وقرأه آخرون : ﴿ **يَكْذِبُونَ** ﴾ بضم الياء وتشديد الذال ، وهي قراءة عظم قراءة أهل المدينة والحجاز والبصرة .^(١) وكان الذين قرأوا ذلك بتشديد الذال وضم الياء رأوا أن الله -جل ثناؤه- إنما أوجب للمنافقين العذاب الأليم ، بتكذيبهم نبيه -ﷺ- وبما جاء به ، وأن الكذب لولا التكذيب لا يوجب لأحد اليسير من العذاب ، فكيف بالأليم منه !؟ . وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالوا ، وذلك أن الله -عز وجل- -أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة ، بأنهم يكذبون بدعواهم الإيمان ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعاً لله -عز وجل- -ولرسوله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة: ٨ - ٩] بذلك من قبلهم مع استسرارهم الشك والريبة ، وما يخدعون بصنيعهم ذلك إلا أنفسهم ، دون رسول الله -ﷺ- -والمؤمنين ، وما يشعرون بموضع خديعتهم أنفسهم ، واستدراج الله -عز وجل- -إياهم بإملائه لهم في قلوبهم شك النفاق وريبته ، والله زائدهم شكاً وريبة بما كانوا يكذبون الله

(١) قرأ بالأولى -التخفيف وفتح الياء- : عاصم وحمزة والكسائي وخلف ، وقرأ بالثانية -التشديد مع ضم الياء: الباقون . انظر إتخاف فضلاء البشر (١/٣٧٨) ، والمبسوط في القراءات العشر صفحة (١١٥) .

ورسوله والمؤمنين ، بقولهم بألسنتهم : ﴿ **ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ وهم في قلوبهم ذلك كذباً ؛ لاستسراهم الشك والمرض في اعتقادات قلوبهم في أمر الله وأمر رسوله - ﷺ - ، فأولى في حكمة الله - جلّ جلاله - أن يكون الوعيد منه لهم ، على ما افتتح به الخير عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم ، دون ما لم يجر له ذكر من أفعالهم ، إذ كان سائر آيات تنزيله بذلك نزل ، وهو أن يفتتح ذكر محاسن أفعال قوم ، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من أفعالهم ، ويفتتح ذكر مساوئ أفعال آخرين ، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم . فكذاك الصحيح من القول في الآيات التي افتتح فيها ذكر بعض مساوئ أفعال المنافقين ، أن يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من قبائح أفعالهم ، فهذا هذا ، مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا ، وشهادتها بأن الواجب من القراءة ما اخترنا ، وأن الصواب من التأويل ما تأولنا : من أن وعيد الله المنافقين في هذه الآية العذاب الأليم على الكذب الجامع معنى الشكّ والتكذيب ، وذلك قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ**

قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ **أَتَّخَذُوا آيَاتِنَا حُجَّةً**

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [المنافقون: ١ - ٢] والآية الأخرى في المجادلة : ﴿ **أَتَّخَذُوا آيَاتِنَا حُجَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ [المجادلة: ١٦] فأخبر - جلّ ثناؤه - أن المنافقين بقلوبهم ما قالوا لرسول الله - ﷺ - ، مع اعتقادهم فيه ما هم معتقدون كاذبون . ثم أخبر - تعالى - ذكره - أن العذاب المهين لهم على ذلك من كذبهم . ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة : ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [بالتشديد] لكانت القراءة في السورة الأخرى : والله يشهد إن المنافقين لمكذبون ؛ ليكون الوعيد لهم الذي هو عقيب ذلك وعيداً على التكذيب ، لا على الكذب... " (١)

فهنا رجح أن المراد : معنى التكذيب ، وأنها القراءة الصحيحة ، دون معنى الكذب ، وعليه ضعف القراءة الأخرى ، مستندلاً بافتتاح الحديث عن تكذيب المنافقين لا كذبهم ،

(١) جامع البيان (١/١٥٧-١٥٨) ، وتحقيق شاکر (١/٢٨٤) .

وعزّز ذلك بآيات أخر في المنافقين من سور أخرى ، فطريقة القرآن إذا افتتح بخبر وختم بوعيد ونحوه بعده ، أن يعيد الختام على ما افتتح الحديث عنه ، دون ما لم يجز له ذكر ، فالمقصود والشاهد هنا أن الختام يعود على السابق وإن اختلف في تحديده .

وسياقي لمسألة القراءات والترجيح بينها وتضعيف بعضها مزيد بيان في الباب الثاني - إن شاء الله- ، ولكن يلزم توجيه معنى القراءة المشددة المتواترة التي ضعفها الإمام الطبري -رحمه الله- بقوله : "الواجب من القراءة ما اخترنا"...وقوله : "ولو كان الصّحيح من القراءة على ما قرأه القارئون " يقصد القراءة بالتشديد ، فإن معنى القراءة بالتشديد على ما قاله جمع من المفسرين والقراء : يكذبون الرسل ويردون على الله -عز وجل- ويكذبون بآياته ، وأما قراءة التخفيف : فترجع إلى قولهم : السابق ﴿ **ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِآٰتِہِ** **الْآخِرِ** ۝﴾^(١).

وقال ابن كثير -رحمه الله-: " وقد كانوا متّصفين بهذا وهذا ، فقد كانوا كذّبة ، ويكذبون بالغيب ، يجمعون بين هذا وهذا " .^(٢)

والتحقيق : أن قراءة التخفيف دلت عليها الآية نفسها حين كانت قراءتها مخففة ، ودلالة ما قبلها في تكذيب الله لهم بقوله : ﴿ **وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ۝﴾ ودلالة ما بعدها في قوله : ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطٰنِہِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ** ۝﴾ [البقرة: ١٤] فقولهم لشياطينهم : ﴿ **إِنَّا مَعَكُمْ** ۝﴾ كذب لقولهم : ﴿ **ءَامَنَّا** ۝﴾ ، فحسنت القراءة بالتخفيف ؛ ليكون الكلام على نظام واحد مطابق لما قبله ، وقراءة التشديد فيها استدلال بما سبق أيضاً ، فقولته -تعالى- : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ** ۝﴾ [البقرة: ١٠] أي : مرض الشك ، ومن شك في شيء لم يتيقنه ولا أقرّ بصحّته ، ومن لا يقرّ بالشيء ولا آمن بصحّته فقد كذب به وحده ، فهم مكذبون لا كاذبون ، وفيها مبالغة في الذم ؛ لأن كلّ مكذب كاذب ، وليس كلّ كاذب

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١/١٩٨) ، والتفسير الكبير (٢/٧٢) ، وتفسير الجلالين صفحة (٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٧) .

(١) مكذباً .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣] قال أبو جعفر: "...اختلف أهل التأويل في المعنى بالذين كفروا: في هذا الموضع، والمراد بقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾: فقال بعضهم: المعنى بالذين كفروا: اليهود، وبالذين لا يعقلون: أهل الأوثان... وقال آخرون: بل هم أهل ملة واحدة، ولكن المفترين المتبوعون، والذين لا يعقلون: الأتباع..."

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن المعنيين بقوله: ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الذين بَحَرُوا البحائر، وسَيَّبُوا السوائب، ووصَلُوا الوسائل، وحمَّوا الحوامي، مثل: عمرو بن لحي^(٢) وأشكاله، ممن سنَّ لأهل الشرك السنن الرديئة، وغير دين الله دين الحق، وأضافوا إلى الله -تعالى- ذكْرُه - أنه هو الذي حرَّم ما حرَّموا، وأحلَّ ما أحلَّوا، افتراء على الله الكذب وهم يعلمون، واختلاقاً عليه الإفك وهم يفهمون، فكذبهم الله -تعالى- ذكْرُه - في قيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرَّموا، فقال -تعالى- ذكْرُه -: ما جعلت من بحيرة ولا سائبة؛ ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك، ويفترون على الله الكذب. وأن يقال: إن المعنيين بقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ هم أتباع من سنَّ لهم هذه السنن من جهلة المشركين، فهم لا شك أنهم أكثر من الذين سنَّوا ذلك لهم، فوصفهم الله -تعالى- بأنهم لا يعقلون؛ لأنهم لم يكونوا يعقلون أن الذين سنَّوا لهم تلك السنن، وأخبروهم أنها من عند الله كذبة في إخبارهم أفكاً، بل ظنَّوا أنهم فيما يقولون محقون، وفي أخبارهم صادقون. وإنما معنى الكلام: وأكثرهم لا

(١) انظر كتاب الكشف في القراءات السبع (١/٢٢٨-٢٢٩)، لمكي القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان .

(٢) هو أبو ثمامة، عمرو بن لحي بن قَمَعَةَ بن خندف الأزدي من قحطان، جلب الأصنام إلى جزيرة العرب، بعد أن كانت على التوحيد دين إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، قال فيه رسول الله -ﷺ-: " رأيت عمرو بن لحي بن قَمَعَةَ بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار " أي أمعاه . انظر مسلم (٤/٢١٩١)، والأعلام (٥/٢٥٧).

يعقلون أن ذلك التحريم الذي حرّمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله -تعالى ذكّره- كذب وباطل... ولا معنى لقول من قال: عني بالذي كفروا: أهل الكتاب، وذلك أن النكير في ابتداء الآية من الله -تعالى ذكّره- على مشركي العرب، فالختم بهم أولى من غيرهم، إذ لم يكن عرض في الكلام ما يصرف من أجله عنهم إلى غيرهم. (١)

فالكذب المقصود هنا تابع لمن تحدث الله عنهم قبل، وهم المشركون، الذين شرعوا ما لم يأذن به الله في شأن الأنعام، وليس له اتصال باليهود؛ إذ ما قبله في المشركين.

وفي قوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ إِذًا هُمْ يُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤] قال -رحمه الله-: "...فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقد علمت أن باب الرحمة وباب التوبة [لم يُفتح لهم]، ولم تفتح لهم أبواب آخر غيرهما كثيرة؟ قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم استدراجاً منّا لهم، أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إيّاهم بالبأساء والضراء؛ ليتضرّعوا، إذ لم يتضرّعوا وتركوا أمر الله -تعالى ذكّره-؛ لأن آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله، وذلك كما قال -تعالى ذكّره- في موضع آخر من كتابه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّوْنَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَالسَّرَّاءِ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ وَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٧﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنهم نسوا ما] ذكّرهم، بقوله: ﴿ فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ هو: تبديله لهم مكان السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إيّاهم من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة، ومن الضرّ في الأجسام إلى الصحة والعافية، وهو فتح أبواب كل شيء كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذكره قبل قوله: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، فردّ قوله: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عليه. ويعني -تعالى- بقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾

(١) جامع البيان (٥/٩٣-٩٤)، وتحقيق شاکر (١١/١٣٤).

يقول : حتى إذا فرح هؤلاء المكذّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة والصحة في الأجسام...^(١)

وهذه الآية فيها خبرٌ عن أممٍ سابقة ، حين كذبت رسلها فابتلاها الله بالبأساء والضراء عليها تتضرّع ، قال -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] فالله -عزّ وجلّ- ابتلاهم بالبأساء ، وهي الفقر ، والضراء ، وهو المرض ، فلما كذبت فتح عليها أبواب كل شيء سدّ عنهم قبل ذلك ، ففتح الله عليهم أبواب كل شيء ليس مطلقاً ، بل في الرزق البدني والمالي ؛ لأنه ضدّ البأساء والضراء ، ولا تدخل الرحمة والهداية فيما وهبهم الله بهذا الفتح ؛ لأنه استدراج من الله -عزّ وجلّ- لهم لما نسوا ما ذكروا به ، وهذا المعنى مستند إلى قاعدة: آخر الكلام مردود على أوّله .^(٢)

٢ - أمثلة موضحة للقاعدة : سبق الحديث عن نصّ القاعدة ، ولكن يحسن ذكر ما يعضدها ، ويوضحها من الأمثلة ، ومنها :

قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُغْلَبْ نُزُقُهُ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج: ٢٥] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذكّره- : إن الذين جحدوا توحيد الله وكذّبوا رسله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم ، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يقول: ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه ، وعن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة ، لم يخص منها بعضاً دون بعض ، ﴿ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ ... واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال

(١) جامع البيان (١٩٢/٥) ، وتحقيق شاكر (٣٥٧/١١) .

(٢) ومثل ما سبق : في الأنعام (٦٨) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهَا ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٥/٥) .

بعضهم : معناه : سواء العاكف فيه : وهو المقيم فيه ، والباد في أنه ليس أحدهما بأحق بالمنزل فيه من الآخر... وقال آخرون في ذلك نحو الذي قلنا فيه [وهو : أن العاكف : المقيم ، والبادي : القادم إليه من بلده هما في حرمة سواء]... وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك؛ لأن الله -تعالى ذكّره- ، ذكر في أوّل الآية : صدّ من كفر به من أراد من المؤمنين قضاء نسكه في الحرم عن المسجد الحرام ، فقال : ﴿ **لِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ ثم ذكر - جلّ ثناؤه - صفة المسجد الحرام ، فقال : ﴿ **الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ** ﴾ فأخبر -جلّ ثناؤه- : أنه جعله للناس كلهم ، فالكافرون به يمنعون من إرادته من المؤمنين به عنه . ثم قال : ﴿ **سَوَاءَ الْعَنَكَفِ فِيهِ وَالْبَادِ** ﴾ فكان معلوماً أنّ خيره عن استواء العاكف فيه والباد ، إنما هو في المعنى الذي ابتدأ الله الخبر عن الكفار أنهم صدّوا عنه المؤمنين به ، وذلك لا شكّ طوافهم، وقضاء مناسكهم به والمقام ، لا الخبر عن ملكهم إياه وغير ملكهم... " (١)

إذاً معنى قوله -تعالى- : ﴿ **سَوَاءَ الْعَنَكَفِ فِيهِ وَالْبَادِ** ﴾ هو في دخول المسجد الذي جعله الله -تعالى - للناس جميعاً؛ لأن ما قبلها حديث عن صدّ الكفار المؤمنين أن يدخلوا المسجد الحرام .

(١) جامع البيان (١٢٨/٩-١٢٩) . وانظر مواضع أخرى في: النساء (١٦٠) ﴿ **فَيُظَلُّونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ ﴿ **وَالْأَنْعَامِ (٣٦٢/٤)** ، والأنعام (٣٦) ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾ الآية جامع البيان (١٨٤/٥) ، والأعراف (١٥٢) ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَالَ سَنَاءً لِمَنْ عَضَبْتُمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ الآية جامع البيان (٧٠/٦) ، وهود (٨) ﴿ **وَلَيَنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْكَ أُمَّةً مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ** ﴾ الآية جامع البيان (٩/٧) ، والنحل (٥٩) ﴿ **يَتَوَرَّوْنَ مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُئِيَتْ بِهِ** ﴾ الآية جامع البيان (٦٠٠/٧) ، و(٨٨) ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ** ﴾ ﴿ **وَالْأَنْبِيَاءِ (٣)** ﴿ **لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ الآية جامع البيان (٤/٩) .

المطلب الثاني : الأمر والنهي :

حين يذكر في الآية أمر ويختتم بنهي ، أو يذكر نهي ويختتم بأمر ، فإن الأولى في تفسير التالي أن يكون على مقابلة الأول ، ومن أمثلة ذلك :

قوله -تعالى- : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّوِّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

قال أبو جعفر : "...اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فقال بعضهم : معنى ذلك : فأتوا نساءكم إذا تطهرن من الوجه الذي هيتم عن إتيانهن منه في حال حيضهن ، وذلك الفرج الذي أمر الله بترك جماعهن فيه في حال الحيض... وقال آخرون: معناه : فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله فيه أن تأتوهن منه ، وذلك الوجه هو الطهر دون الحيض . فكان معنى قائل ذلك في الآية : فأتوهن من قبل طهرهن لا من قبل حيضهن... وقال آخرون : بل معنى ذلك : فأتوا النساء من قبل النكاح لا من قبل الفجور...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك عندي : قول من قال : معنى ذلك : فأتوهن من قبل طهرهن ، وذلك أن كل أمر بمعنى فنهى عن خلافه وضده ، وكذلك النهي عن الشيء أمر بضده وخلافه . فلو كان معنى قوله : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فأتوهن من قبل مخرج الدم الذي هيتمكم أن تأتوهن من قبله في حال حيضهن؛ لوجب أن يكون قوله : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تأويله : ولا تقربوهن في مخرج الدم دون ما عدا ذلك من أماكن جسدها ، فيكون مطلقاً في حال حيضها إتيانهن في أدبارهن ، وفي إجماع الجميع على أن الله -تعالى- ذكره- لم يطلق في حال الحيض من إتيانهن في أدبارهن شيئاً حرّمه في حال الطهر ، ولا حرم من ذلك في حال الطهر شيئاً أحله في حال الحيض ، ما يعلم به فساد هذا القول . وبعد : فلو كان معنى ذلك على ما تأولوه قائلوه هذه المقالة لوجب أن يكون الكلام : فإذا تطهرن فأتوهن في حيث أمركم الله، حتى يكون معنى الكلام حينئذ على

التأويل الذي تأوله ، ويكون ذلك أمراً بإتيانهم في فروجهن ؛ لأن الكلام المعروف إذا أريد ذلك أن يقال : أتى فلان زوجته من قبل فرجها، ولا يقال : أتاه من فرجها إلا أن يكون أتاه من قبل فرجها في مكان غير الفرج...^(١)

فرجَّح الإمام الطبري-رحمه الله- أن المراد بالأمر : هو مقابل النهي ، ولما كان النهي عن إتيان الحائض جعل الأمر بما يقابله ، وهو الأمر بإتيانها بعد ذهاب حيضها في المكان الذي نهي المكلف عن الإتيان فيه حال الحيض .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ رَيْبٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِن قَامُوا فِإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦]... ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال أبو جعفر : "يعني -تعالى- ذكْرُه- بذلك : فإن رجعوا إلى ترك ما حلفوا عليه أن يفعلوه بمن من ترك جماعهن فجامعوهن وحنتوا في أيامهم ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ ﴾ : لما كان منهم من الكذب في أيامهم بأن لا يأتوهن ثم أتوهن ، ولما سلف منهم إليهن من اليمين على ما لم يكن لهم أن يحلفوا عليه، فحلفوا عليه ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ : بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين..."^(٢)

فختام الآية من وعد بالمغفرة لمن فاء ورجع ، عائد إلى ما عزموا عليه من الامتناع عن إتيان نسائهم.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَاقُوتَ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنَهَا سَأُورِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]... ﴿ سَأُورِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ قال أبو جعفر : " يقول -تعالى- ذكْرُه- لموسى إذ كتب في الألواح من كل شيء : خذها بجد في العمل بما فيها واجتهاد ، وأمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها ، وانهم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي، فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم ، فإنني سأريه في الآخرة عند مصيره إلى ﴿ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ وهي نار الله التي أعدّها لأعدائه . وإنما

(١) جامع البيان (٢/٤٠١-٤٠٢) ، وتحقيق شاکر (٤/٣٨٨) .

(٢) جامع البيان (٢/٤٣٤) ، وتحقيق شاکر (٤/٤٦٥) .

قال : ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري !، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : فقال بعضهم: بنحو ما قلنا في ذلك... وقال آخرون : معنى ذلك: سأدخلكم أرض الشام ، فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجابرة والعمالقة... وقال آخرون : معنى ذلك : سأريكم دار قوم فرعون ، وهي مصر...^(١)

قال أبو جعفر : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك ؛ لأن الذي قبل قوله -جل ثناؤه-: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أمرٌ من الله لموسى وقومه بالعمل بما في التوراة ، فأولى الأمور بحكمة الله -تعالى- أن يختتم ذلك بالوعيد على من ضيَّعه وفرط في العمل لله ، وحاد عن سبيله ، دون الخبر عما قد انقطع الخبر عنه أو عما لم يجر له ذكر.^(٢)

فعلم من رد ختام الآية إلى أولها : أن الوعيد مناسب ومقابل لما قبله من الأمر بحفظ التوراة والعمل بها ، هذا في أول نزول الخطاب فدخولهم أولي فيستقيم العمل بهذه القاعدة ، بالإضافة إلى دخول من بعدهم في معناها -كما سبق تقريره في المبحث الماضي وهو : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشاهمهم .

وفي ختام المبحث يتبين معنى القاعدة : وأن كل وعد أو وعيد محتوم بتعليق وتوجيه فهو راجع إلى الوعد والوعيد ، وكذا كل أمر أو نهي ، وعُقِّب عليه بخلافه فيحمل على نقيض الأول ، وقد عززت ذلك بذكر الأمثلة ؛ ليستفاد منها في توضيح تطبيقات القاعدة . -والله الموفق -.

(١) في تحقيق شاکر إشارة إلى وجود بياض بعد هذا النص ، بمقدار خمسة أسطر . (١١١/١٣) .

(٢) جامع البيان (٦/٥٩-٦٠) ، وتحقيق شاکر (١١٠/١٣) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (١٥٠) ﴿يَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ جامع البيان (٣/٤٦٧) ، والمائدة (٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ الآية جامع البيان (٥/٣٦-٣٧) ، والأعراف (٣١) ﴿يَبْنَیْ مَادِمٌ حُدُودًا زَيْنَتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية جامع البيان (٥/٤٧٢) .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب:

كثيراً ما يعلّل الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيره جامع البيان المذهب الذي يراه ويرجّحه على غيره بالظاهر من الخطاب ، وهذا يدلّ على سعة هذا المبحث وتشعبه ، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه ، فسأعرض لأهم الأمثلة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : ضوابط استعمال الظاهر من الخطاب .

المطلب الثالث : متى يترك الأظهر من الخطاب ويصار إلى غيره .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة : تفسير السياق بالظاهر من الخطاب .

وقبل الدخول إلى المبحث أقدم بأوضح التعريفات للظاهر عند الأصوليين : **قال السرخسي -رحمه الله-^(١) : " هو ما يعرف المراد منه بنفس السماع من غير تأمّل ، وهو الذي يسبق إلى العقول والأوهام ؛ لظهوره موضوعاً فيما هو المراد ."^(٢)**

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل ، شمس الأئمة ، من كبار قضاة الحنفية ، من أهل سرخس في خراسان ، من أهم مصنفاته : المبسوط في أصول الفقه ، وشرح الكافي ، والأصول ، توفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وقيل غير ذلك. انظر الجواهر المضية (٢/٢٨)، والفتح المبين (١/٢٦٤) ، وتاج التراجم صفحة (٢٣٥) .

(٢) أصول السرخسي (١/١٦٣-١٦٤) طبع دار الكتاب العربي بمصر ، ١٣٧٢هـ ، والسرخسي من الحنفية ، وقد عرف الظاهر أبو زيد الدبوسي فقال : ما ظهر للسامع بنفس السمع . وقال البيهقي : الظاهر اسم لكل كلام ظهر المراد به للسامع بصيغته . وراجع تفسير النصوص في الفقه الإسلامي (١/١٤٢-١٤٣) للدكتور : محمد أديب صالح . وقد سبق ذكر دلالات الألفاظ من حيث الظهور والخفاء ، وأنه قد وقع الخلاف بين الجمهور والحنفية فيها ، ينظر التمهيد صفحة (٦١) و(٧٤) وما بعدها .

المطلب الأول : نصّ القاعدة :

يعمد المفسّر إلى بيان كلام الله -عزّ وجلّ- على وجهه الأظهر حين سماعه ،
الأغلب في استعماله ، ولا ينتقل إلى الأقل الأغرّب إلا بشروط سيأتي بيانها - إن شاء الله - .

ومن أمثلة هذه القاعدة : قوله -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٦٥] قال -رحمه الله- : "...عن مجاهد : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةً خَاسِرِينَ ﴾ ﴾ قال : مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم : ﴿ وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخِرِ ﴾ [الجمعة: ٥] .

قال أبو جعفر : وهذا القول الذي قاله مجاهد ، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف ، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت^(١) ، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبیهم : ﴿ أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] ، وأن الله -تعالى- ذكّره - أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأهمّ عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأهمّ أمروا بدخول الأرض المقدسة ، فقالوا لنبیهم : ﴿ قَاذَهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فابتلاهم بالتيه . فسواءً قائل قال : هم لم يمسخهم قردة ، وقد أخبر -جل ذكره- أنه جعل منهم قردة وخنازير ، وآخر قال : لم يكن شيء مما أخبر الله عن بني إسرائيل أنه كان منهم من الخلاف على أنبيائهم والتكال والعقوبات التي أحلها الله بهم . ومن أنكر شيئاً من ذلك وأقرّ بأخر منه ، سئل البرهان على قوله ، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقرّ به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح . هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحجّة ، التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة

(١) وذلك في قوله تعالى في المائدة (٦٠) ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ﴾ الآية .

عليه، وكفى دليلاً على فساد قول إجماعها على تخطئته . " (١)

فقول مجاهد - رحمه الله - لا دليل عليه بل الآية على الإخبار بخلافه ؛ لأن الظاهر يجب إعماله ، والذهاب إلى مدلوله .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم... [وقال في سند قول مجاهد] وهذا سند جيد عن مجاهد ، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره ، قال الله - تعالى - : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية . " (٢)

والفصل في تضعيف القول : أن إجماع المفسرين على خلافه ، وكفى به دليلاً :

قال القرطبي - رحمه الله - : بعد ذكر ما قاله مجاهد : " ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم " (٣) .

وقال الرازي - رحمه الله - : " وإذا جاز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها ، ولم يكن لنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد ، وإن كان ما ذكره مستبعد جداً . " (٤)

وقال الألوسي - رحمه الله - : " وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة ، وعلى ذلك جمهور المفسرين ، وهو الصحيح . " (٥)

وفي قوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢] قال - رحمه

(١) جامع البيان (٣٧٣/١) ، وتحقيق شاکر (١٧٣/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠١/١) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٤٣/١) .

(٤) التفسير الكبير (جزء ٣/١١٩) .

(٥) روح المعاني (٤٤٧/١) .

الله-: "...واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ فقال بعضهم: تأويل ذلك: الله الذي رفع السموات بعمد لا ترونها... وقال آخرون: بل هي مرفوعة بغير عمد...".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: كما قال الله -تعالى-: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا -جلّ ثناؤه- . ولا خير بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه. (١)

ففي هذا المثال تلاحظ تفسير الآية على ظاهرها دون التكلف في تحميلها غيره. قال ابن كثير رحمه الله-: "روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية (٢): السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله -تعالى-: ﴿وَتُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرْوَاهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة. (٣)

وفي قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦] قال -رحمه الله-: "يعني بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ﴾: ثم أحييناكم. وأصل البعث: إثارة الشيء من محله، ومنه قيل: بعث فلان راحلته: إذا أثارها من ميركها للسيير... ويعني بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم، وقوله: ﴿لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول:

(١) جامع البيان (٧/٣٢٨-٣٢٩)، وتحقيق شاكر (١٦/٣٢٣).

(٢) هو أبو وائلة، إياس بن معاوية بن قرة المزني الليثي، قاضي البصرة، ضرب به المثل في الذكاء والدهاء والسؤدد والعقل، وثقه ابن معين والذهبي، وقال الذهبي: قلما روي عنه، توفي سنة اثنتين وعشرين ومائة. انظر المعارف صفحة (٤٦٧)، وحلية الأولياء (٣/١٢٣)، وشذرات الذهب (١/١٦٠)، وميزان الاعتدال (١/٢٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٨٠-٤٨١).

فعلنا بكم ذلك ؛ لتشكروني على ما أوليتكم من نعمتي عليكم ، بإحيائي إياكم استبقاء مني لكم ؛ لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم ، بعد إحلال العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم ، فأما تتكم بعظيم خطفكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربكم . وهذا القول على تأويل من تأول قوله : ﴿ تُمْ بَعَثْتُمْ ﴾ ثم أحييناكم . وقال آخرون : [كالسدي] معنى قوله : ﴿ تُمْ بَعَثْتُمْ ﴾ أي : بعثناكم أنبياء... قال أبو جعفر : وتأويل الكلام على ما تأوله السدي : فأخذتكم الصاعقة ، ثم أحييناكم من بعد موتكم ، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم ، ثم بعثناكم أنبياء لعلكم تشكرون . وزعم السدي أن ذلك من المقدم الذي معناه التأخير ، والمؤخر الذي معناه التقديم... وهذا تأويل يدل ظاهر التلاوة على خلافه ، مع إجماع أهل التأويل على تخطئه . والواجب على تأويل السدي الذي حكيناه عنه أن يكون معنى قوله : ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تشكروني على تصييري إياكم أنبياء .^(١) وحمل البعث على جعلهم أنبياء ليس هو ظاهر معناه في اللغة ، مع كونه مخالفاً لقول المفسرين ، وإنما الظاهر في البعث بعد الموت : هو إخراج الأموات حقيقة من قبورها إرجاع بعد خروج أرواحها .

(١) جامع البيان (١/٣٣٠) ، وتحقيق شاکر (٢/٨٤) .

المطلب الثاني : ضوابط استعمال الأظهر وحدوده :

بعد بيان نص قاعدة تفسير السياق بالظاهر من الخطاب ، سأعرض ضوابط استعمال الظاهر والتفسير به ، وأن لذلك حدوداً تجعل هذا أولى من غيره ، وأن الظاهر قد يتعدّد ، فيرجح أعلاها مرتبة في الظهور ، ومن هذه الضوابط :

١- يقدم المصريح به دون ما لم يجر له ذكر : فقد يكون المتبادر قد جرى له ذكر في الكلام تصريحاً ، وقد يكون ذكره جرى بالمعنى لا بالتصريح ، فيقدّم المصريح به في السياق على الذي لم يوجد له ذكر :

ففي قوله -تعالى- : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيَّمْ فِيهَا أَنْ نَفْسَ الْفَيْسِ وَالْعَيْتِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنِ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٥] قال أبو جعفر : "...اختلف أهل التأويل في المعنى به : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ فقال بعضهم : عني بذلك الجروح وولي القتل... وقال آخرون : عني بذلك الجراح ، وقالوا معنى الآية : فمن تصدّق بما وجب له من قود أو قصاص على من وجب ذلك له عليه فعفا عنه فغفوه ذلك عن الجاني كفارة لذنب الجاني المجرم ، كما القصاص منه كفارة له ، قالوا : فأما أجر العافي المتصدّق فعلى الله..."

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عني بقوله : فمن تصدّق به فهو كفارة له الجروح ، فلأن تكون الهاء في قوله : ﴿ لَّهُ ﴾ عائدة على : "من" أولى -من أن تكون من ذكر من لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح- وأخرى ، إذ الصدقة هي المكفرة ذنب صاحبها ، دون المتصدّق عليه في سائر الصدقات غير هذه ، فالواجب أن يكون سبيل هذه سبيل غيرها من الصدقات"^(١).

فالضمير عادة يعود إلى أقرب مذكور -وهو الصريح دون غيره- ، والصدقة

(١) جامع البيان (٤/٦٠٢) ، وتحقيق شاكر (١٠/٣٦٢) .

تَكْفُرُ ذَنْبَ صَاحِبِهَا ، دُونَ مَنْ تُصَدِّقُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَالْكَفَّارَةُ مِنْ جِنْسِ الصَّدَقَاتِ ، فَثَوَابُ التَّكْفِيرِ لِمَنْ فَعَلَهَا لَا لِمَنْ فُعِلَتْ لَهُ .

- ٢ - ومن ضوابط التفسير بالظاهر :

أن يكون المعنى الظاهر مما يفيد المخاطب: ففي قوله -تعالى-: ﴿وَأَتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأُ

أَبْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَفْتُنَّكَ^١ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ^٢﴾ [المائدة: ٢٧] ذكر أبو جعفر - رحمه الله - اختلافهم في المقرَّبين مَنْ هما؟ فقال: "...وكان المقرَّبان ابني آدم لصلبه أحدهما: هايل، والآخر: قاييل^(١)... وقال آخرون [كالحسن]: اللذان قرَّبَا قرباناً وقصَّ الله -عزَّ ذكره- قصصهما في هذه الآية، رجلان من بني إسرائيل لا من ولد آدم لصلبه...^(٢)

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، أن اللذين قرَّبَا القربان كانا ابني آدم لصلبه، لا من ذريته من بني إسرائيل. وذلك أن الله -عزَّ وجلَّ- يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن تقرب القربان لله لم يكن إلا في ولد آدم دون الملائكة والشياطين وسائر الخلق غيرهم. فإذا كان معلوماً ذلك عندهم، فمعقول أنه لو لم يكن معنياً بـ ﴿أَبْنَىٰ آدَمَ﴾ اللذين ذكرهما الله في كتابه ابناه لصلبه، لم يفدَّهم بذكره -جلَّ جلاله- إياهما فائدة لم تكن عندهم. وإذا كان

(١) هما ابنا آدم لصلبه، كان يولد لآدم -عليه السلام- في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هايل دميمة، وأخت قاييل وضيفة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هايل، ولم يتقبل من قاييل، فكان من أمرهما ما قص الله في هذه الآية. انظر المعارف صفحة (١٧-١٨).

(٢) إسناد هذا القول إلى الحسن ضعيف، فالراوي عن الحسن عند ابن جرير هو عمرو بن عبيد شيخ القدرية والمعتزلة، قال حميد: يكذب على الحسن، وكذا قال ابن عوف، وقال أحمد: ليس بأهل أن يحدث عنه، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، وفي الإسناد أيضا: سهل بن حنيف عن عمرو، ولم يسمع منه. انظر تهذيب الكمال ١٢٣/٢٢، وتاريخ بغداد ١٦٦/١٢، وسير أعلام النبلاء ١٠٤/٦، والإجماع في التفسير للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيرى صفحة (٢٩٠).

غير جائز أن يخاطبهم خطاباً لا يفيدهم به معنى ، فمعلوم أنه عنى بـ ﴿أَبْنَىٰ آدَمَ﴾ [ابني آدم لصلبه] ، لا بَنِي بنيه الذين بَعُدَ منه نسبهم ، مع إجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل على أنهما كانا ابني آدم لصلبه ، وفي عهد آدم وزمانه ، وكفى بذلك شاهداً .^(١)

فحين تقرأ الآية تعرف أن المراد من ذكر : ابني آدم أنهما لصلبه ؛ لأن عدم القول بذلك يوحي بأن جملة ﴿أَبْنَىٰ آدَمَ﴾ لا فائدة منها فهي تحصيل حاصل ؛ لأن من المعلوم أن القربان كان في المكلفين من بني آدم ، وهذا لا يقال به ، أضف إلى ذلك ما ورد في السياق من أن الرجل القاتل لم يعرف كيف يوارى سوءة أخيه في قوله -تعالى- عنه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَوْا حَصْبًا وَأَنْتُمْ لَا تعلمون﴾ [المائدة: ٣١].

وقد نصّ على ذلك ابن جرير -رحمه الله- فقال : " وهذا أيضاً أحد الأدلة على أن القول في أمر ابني آدم بخلاف ما [روي]... عن الحسن ؛ لأن الرجلين اللذين وصف الله صفتهم في هذه الآية ، لو كانا من بني إسرائيل ، لم يجهل القاتل دفن أخيه... " ^(٢)

٣- ومن ضوابط التفسير بالظاهر : إذا كانت الآية نازلة على معيّن أن ينظر إلى ما يفهمه المعين من ظاهر اللفظ حين إطلاقه :

ففي قوله -تعالى- : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنٌ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : فقال بعضهم : معناه : انبجس الماء من وجه الأرض ، ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ : وهو وجه الأرض... وقال آخرون : هو تنوير الصبح ، من قولهم : نور الصبح تنويراً... وقال آخرون : معنى ذلك : وفار أعلى الأرض وأشرف مكان فيها بالماء . وقال : ﴿ التَّنُّورُ ﴾ : أشرف الأرض... وقال آخرون : هو التنور

(١) جامع البيان (٤/٥٣٠) ، وتحقيق شاکر (١٠/٢٠٢) .

(٢) جامع البيان (٤/٥٣٧) ، وتحقيق شاکر (١٠/٢٢٤) .

الذي يختبئ فيه... وكان ابن عباس يقول في معنى: ﴿وَقَارَ﴾: نبع...

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿التَّنُورُ﴾ قول من قال: هو التنور الذي يخبئ فيه؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها، وذلك أنه -جل ثناؤه- إنما خاطبهم بما خاطبهم به؛ لإفهامهم معنى ما خاطبهم به. ﴿قُلْنَا﴾ لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي وعدنا نوحاً أن نعدّهم به، ﴿وَقَارَ التَّنُورُ﴾ الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا بيننا وبينه لهلاك قومه، ﴿أَجْمَلُ فِيهَا﴾ يعني: في الفلك...^(١)

- ٤ - ومن ضوابط التفسير بالظاهر: أن لا يقال بتقديم الكلام بعضه على بعض إلا أن يمتنع فهمه على ترتيبه: ففي قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] قال أبو جعفر: "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معناه: فلا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال: معنى ذلك: التقديم وهو مؤخر... عن قتادة قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ قال: هذه من تقديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة... عن ابن عباس، قوله: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه... الحسن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله...

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، التأويل الذي ذكرنا عن الحسن [القول الثاني]؛ لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصرف تأويله إلى ما دلّ عليه

(١) جامع البيان (٧/٤٠-٤١)، وتحقيق شاکر (٣١٨/١٥).

ظاهره أولى من صرفه إلى باطن لا دلالة على صحته ، وإنما وجه من وجه ذلك إلى التقديم وهو مؤخر ؛ لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا وجهاً يوجّهه إليه ، وقال : كيف يعذبكم بذلك في الدنيا ، وهي لهم فيها سرور ، وذهب عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه : إلزامه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيب النفس ، ولا راجح من الله جزاء ، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً ، على ضجر منه وكرهه .^(١)

فتفسير كلام الله -تعالى- يكون على الترتيب الذي يكون في الآية نفسها ، هذا هو الأصل والقاعدة ، إلا أن يصعب فهمه على هذا النحو فيقال : حينئذٍ بالتقديم والتأخير ، وظاهر الآية تعذيب المنافقين بأموالهم وأولادهم في الدنيا ، فينظر المفسر إلى أوجه ذلك التعذيب ، فإن ظهر له وجهٌ قال به ويكون الكلام على ظاهره ، وإلا قال بالتقديم والتأخير -والله أعلم - .

وقد أنكر ابن القيم -رحمه الله- على من قال بالتقديم والتأخير ، وذكر اختيار ابن جرير ، ووافقه على أن الكلام على ترتيبه ، ولكنه حمل معنى العذاب على التعب والنصب في طلب الدنيا ؛ لأن العذاب هو الموجه المؤلم الشاق ، ولا أتعب ممن جعل الدنيا أكبر همهم .^(٢)

- ٥ - ومن ضوابط استعمال الظاهر : النظر إلى استعمالات القرآن في مواضع

أخرى بعد جملة على الظاهر : ففي قوله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥] قال -رحمه الله- : " اختلف أهل التأويل في معنى قوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ فقال بعضهم : معنى ذلك : ماتت... وقال آخرون : بل معنى ذلك : وإذا الوحوش اختلطت... وقال آخرون : بل معنى ذلك : جمعت... "

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : جمعت فأميتت؛

(١) جامع البيان (٦/٣٩٠-٣٩١) ، وتحقيق شاکر (١٤/٢٩٥) .

(٢) انظر إغائة اللفهان (١/٤٦) وما بعدها .

لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر : الجمع ، ومنه قول الله : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص: ١٩] يعني : مجموعة ، وقوله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ [النازعات: ٢٣] ، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله ، لا على الأنكر المجهول .^(١)

ولا شك أن القرآن الكريم تعاد المواعظ فيه والقصاص ، فيكون فيها تفسيراً لمبهمها ونحوه ، وله عادات في استعمال بعض الأساليب والألفاظ ، متى ما اعتني بها استفيد منها .

٦ - ومن ضوابط استعمال الظاهر : الدلائل اللفظية الدالة عليه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ. ﴿١٦﴾ ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] قال -رحمه الله- : " وقوله : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ اختلف أهل الرواية في معنى ذلك : فقال بعضهم : معناه : بل للإنسان على نفسه شهود من نفسه ، ولو اعتذر بالقول مما قد أتى من المآثم ، وركب من المعاصي ، وجادل بالباطل... وقال آخرون : بل معنى ذلك : بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة ولو تجرد... وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب... وقال آخرون : بل معنى ذلك : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ لم تقبل... وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : معناه : ولو اعتذر ؛ لأن ذلك أشبه المعاني بظاهر التنزيل ، وذلك أن الله -جل ثناؤه- أخبر عن الإنسان أن عليه شاهداً من نفسه ، بقوله : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ فكان الذي هو أولى أن يتبع ذلك ، ولو جادل عنها بالباطل ، واعتذر بغير الحق ، فشهادة نفسه عليه به أحق وأولى من اعتذاره

(١) جامع البيان (١٢/٤٥٩-٤٦٠) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٢٧) ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَىٰ مِيثَاقِهِ وَيَقْلُطُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُقِيدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية جامع البيان (١/٢٢١) ، وإبراهيم (٩) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَدْيِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩] الآية جامع البيان (٧/٤٢٣-٤٢٤) ، والنور (٣٦) ﴿ فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءَ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿٣٦﴾ جامع البيان (٩/٣٣٠) .

بالباطل." (١).

وفي هذا المثال يتضح استفادة معنى جديد بالنظر إلى الجملتين المتتابعين ، فقوله: ﴿وَلَوْ أَلْفٌ مَّعَاذِرُهُ﴾ يحمل على اعتذار الإنسان بلسانه ؛ لإثبات الله عز وجل - قبل ذلك أن الإنسان شاهد على نفسه في قوله : ﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ .

- ٧ - ومن ضوابط استعمال الأظهر في الألفاظ أنه : إذا كان اللفظ له استعمال أغلب حمل عليه دون غيره : ففي قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧ وغيرها] قال رحمه الله - : " يقول - تعالى - ذكروه - : ولقد سهّلنا القرآن ، بيناه وفصلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ ، وهوناه... وقوله : ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ يقول : فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر . وقد قال بعضهم في تأويل ذلك : هل من طالب علم أو خير فيعان عليه ، وذلك قريب المعنى مما قلناه ، ولكننا اخترنا العبارة التي عبرناها في تأويله ؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه على ظاهره... " (٢)

وتفسير كلام الله عز وجل - على مقتضى ظاهر المعاني ، وأغلب الاستعمالات: يكون في الحروف والكلمات :

-أ- فمثال الظاهر في الحروف : قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] قال رحمه الله - : " وأمّا قوله : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فإن معناه : فلا تعصوا الله فيها ، ولا تحلوا فيهنّ ما حرّم الله عليكم ، فتكسبوا أنفسكم ما لا قبل لها به من

(١) جامع البيان (٣٣٧/١٢-٣٣٨) . وانظر مواضع أخرى في : المعارج (١١) ﴿يَبْصُرُونَهُمْ بِرُءُوسِهِمْ لَوْ يَفْقَهُوْنَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَبْتَدِعُوا﴾

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ جامع البيان (٢٣٠/١٢) ، والمزمل (١) جامع البيان (٢٧٨/١٢) .

(٢) جامع البيان (٥٥٥/١١-٥٥٦) .

سخط الله وعقابه... ثم اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه الهاء والنون في قوله : ﴿فِيهِنَّ﴾ : فقال بعضهم : عاد ذلك على الاثني عشر الشهر ، وقال : معناه : فلا تظلموا في الأشهر كلها أنفسكم... وقال آخرون : بل معنى ذلك : فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرم أنفسكم ، والهاء والنون عائدة : على الأشهر الأربعة... وقال آخرون : بل معنى ذلك: فلا تظلموا - في تصييركم حرام الأشهر الأربعة حلالاً وحلالها حراماً - أنفسكم...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب ، قول من قال : فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها . وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في تأويله ؛ لقوله : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ فأخرج الكناية عنه مخرج الكناية عن جمع ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وذلك أن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة إذا كُنْتُ عنه : فعلنا ذلك لثلاث ليال خلون ، ولأربعة أيام بقين ، وإذا أخبرت عما فوق العشرة إلى العشرين ، قالت : فعلنا ذلك لثلاث عشرة خلت ، ولأربع عشرة مضت . فكان في قوله -جل ثناؤه- : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وإخراجه كناية عدد الشهور التي نهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فيهن مخرج عدد الجمع القليل من الثلاثة إلى العشرة ، الدليل الواضح على : أن الهاء والنون من ذكر الأشهر الأربعة ، دون الاثني عشر ؛ لأن ذلك لو كان كناية عن الاثني عشر شهراً لكان : فلا تظلموا فيها أنفسكم . فإن قال قائل : فما أنكرت أن يكون ذلك كناية عن الاثني عشر ، وإن كان الذي ذكرت هو المعروف في كلام العرب ، فقد علمت أن من المعروف من كلامها إخراج كناية ما بين الثلاث إلى العشر بالهاء دون النون... قيل : إن ذلك وإن كان جائزاً فليس الأصح الأعرف في كلامها ، وتوجيه كلام الله إلى الأفضح الأعرف أولى من توجيهه إلى الأنكر . " (١)

(١) جامع البيان (٦/٣٦٦-٣٦٧) ، وتحقيق شاكر (١٤/٢٣٧) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٣١) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) جامع البيان (١/٢٥٢-٢٥٤) ، والأنعام =

-ب- ومثال الظاهر في الكلمات : قوله -تعالى- : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ [يس: ٢٨] قال -رحمه الله-: "...واختلف أهل التأويل في معنى الجند الذي أخبر الله أنه لم ينزل إلى قوم هذا المؤمن بعد قتلهموه : فقال بعضهم : [كمجاهد] عُني بذلك : أنه لم ينزل الله بعد ذلك إليهم رسالة ، ولا بعث إليهم نبياً... وقال آخرون : بل عُني بذلك : أن الله -تعالى- ذكَّره - لم يبعث لهم جنوداً يقاتلهم بها؛ ولكنه أهلكتهم بصيحة واحدة..."

وهذا القول الثاني أولى القولين بتأويل الآية ، وذلك أن الرسالة لا يقال لها : جند ؛ إلا أن يكون أراد مجاهد بذلك : الرُّسل ، فيكون وجهاً ، وإن كان أيضاً من المفهوم بظاهر الآية بعيداً ، وذلك أن الرُّسل من بني آدم لا ينزلون من السماء ، والخبر في ظاهر هذه الآية عن أنه لم ينزل من السماء بعد مهلك هذا المؤمن على قومه جنداً ، وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم .^(١)

وهذا المثال واضح في صرف معنى : الجند الذين نفى الله نزولهم ، من : بني آدم ، إلى الملائكة بسبب التعبير عن وصولهم إلى المكلفين بالإنزال وهو ظاهر في الملائكة ، أما البشر فلا ينزلون ، بل يرسلون ويبعثون .^(٢)

(٢٨) ﴿ بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ ﴾ الآية جامع البيان (١٧٥/٥) ، وطه (١٤) ﴿ إِنَّمَا أَنَا قَائِمٌ وَإِنِّي أَخْلِقُ أَفْئِدَةً مِّمَّنْ يَشَاءُ لِيُؤْمِنَ بِآيَاتِي وَلِيَقُولَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ وَإِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافِثٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ، والمؤمنون (٦١) ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ يَحْكُمُوا بِهِمْ وَلَا يَتَمَتَّعُوا بِهِمْ وَلَا يُحْيُوا فِيهِمْ نَجَاتٍ لَّهُمْ وَلَا يُبْشِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠١] .
جامع البيان (٢٢٦/٩) .

(١) جامع البيان (٤٣٧/١٠-٤٣٨) .

(٢) وقد كان تقدم الظاهر في التفسير كثيراً جداً ، ومنه في : آل عمران (١٧) ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، جامع البيان (٢٠٨/٣-٢٠٩) ، و(٢٨) ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٣] ، و(٢٢٩/٣) ، و(١١٣) ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا تَوَلَّى سَوَاءُ لَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١١٣] ، و(٤٠٢/٣) ، والنساء (٤٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٣] الآية جامع البيان

(١٢٦/٤)، و(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٩/٤-٢٧٠)،
 و(١١٧) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّدَنَا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ الآية جامع البيان (٢٧٩/٤-٢٨٠)،
 و(١٣٥) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِالْأَسْوَطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الآية جامع البيان
 (٣٢٣/٤)، و(١٥٣) ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية جامع البيان (٣٤٦/٤)، والمائدة
 (١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ الآية جامع البيان
 (١٣٣-١٣٢/٥)، والأنعام (٦٥) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُرِيَكُمْ بِعَمَتِكُمْ
 بَأْسَ بَعْضٍ﴾ الآية جامع البيان (٢١٨/٥)، و(١٤١) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ حَنْظَلًا
 أَكَلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّرْعَ مَتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مَتَشَكِّبٍ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٩/٥)، والأعراف (٢) ﴿كَيْتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ
 فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِذُنُوبِكُمْ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ الآية جامع البيان (٤٢٦/٥)، و(٣) ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الذِّكْرِ وَلَا
 تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية جامع البيان (٤٢٧/٥)، و(٤) ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾
 جامع البيان (٤٢٧/٥)، و(٤٦) ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ الآية جامع البيان (٥٠٢-٥٠١/٥)،
 و(١٠١) ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ الآية جامع البيان (١٣-١٢/٦)، والتوبة (٣) ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَسُؤْلِهِ إِلَى
 النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية جامع البيان (٣١٦-٣١٧/٦)، و(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
 زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَاؤْرَضُوا خَلْقَكُمْ يَخَوِّذُكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَكُمْ﴾ الآية جامع البيان (٣٨٤-٣٨٤/٦)، و(١٢٢)
 ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْفِرُوا كَأَنَّهُ﴾ الآية جامع البيان (٥١٦-٥١٧/٦)، وهود (٤٣) ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِفُ
 مِنْهُ الْأَمْوَالُ﴾ الآية جامع البيان (٤٥٧-٤٦/٧)، و(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
 شَاءَ رَبُّكَ﴾ الآية جامع البيان (١١٨/٧)، ويوسف (٨٠) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَاكَمُوا فِيهَا﴾ الآية جامع البيان
 (٢٧٠-٢٦٩/٧)، و(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَانَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ قَالُوا لَنَا الْكَيْلُ وَنَصَدَقْ
 عَلَيْنَا﴾ الآية جامع البيان (٢٨٩-٢٩٠/٧)، وإبراهيم (٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَيُرْوَى لِلَّهِ الْفَهَارُ
 ﴿٤٨﴾﴾ الآية جامع البيان (٤٨٣-٤٨٢/٧)، والحجر (٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِتْنَةٍ لِهْمًا وَمَنْ شِئْنَا لَمْ يَرْزُقْنَا﴾ الآية جامع البيان
 (٥٠٣-٥٠٢/٧) والنحل (٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآفَ اللَّهُ بِئِنَّهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ
 فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الآية جامع البيان (٥٧٧-٥٧٨/٧)، والإسراء (١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
 بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ الآية جامع البيان (٦-٥/٨)، و(١٦) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
 نُهْلِكَ قَوْمًا أَمْزَأْنَا مَرَاتِبَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ الآية جامع البيان (٥٢/٨-٥٣)، و(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

وقد يكون المعنى الظاهر الذي حمل عليه النص : قاعدة أصولية في فهم النص :
 كالأمر للوجوب : ففي قوله -تعالى- : ﴿وَلَيْسَتَفِي الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِنَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَّنْتَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَكَنْتُمْ لَهُمْ خَيْرًا مِمَّا لَاللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا

يَوْمَ عِلْمٍ ﴿ الآية جامع البيان (٨٠/٨-٨١) ، و(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ الآية جامع البيان (٨٠/٨-١١٥) -
 (١١٦) ، والكهف (١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ الآية جامع البيان (٢٠٢/٨-٢٠٣) ، و(٨٢) ﴿وَأَمَّا
 الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ الآية جامع البيان (٢٦٨/٨-٢٦٩) ، ومريم
 (٦٤) ﴿وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٠/٨-٣٦١) ، وطه (٨) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ
 ﴿٨﴾ جامع البيان (٣٩٤/٨-٣٩٥) ، و(١٥) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُتَجَرَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ الآية جامع
 البيان (٤٠٤/٨) ، والحج (٤٠) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الآية جامع البيان (١٦٥/٩-
 ١٦٦) ، و(٧٨) ﴿وَحَلِّهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الآية جامع البيان (١٩١/٩) ، والنور (٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
 عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِ كُفْرًا﴾ الآية جامع البيان (٣٥٢/٩-٣٥٤) ، والشعراء (٢١٨-٢١٩)
 ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ جامع البيان (٤٨٥/٩-٤٨٧) ، والنمل (٦٦) ﴿بَلِ ادْرَاكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ جامع البيان
 (٨/٩-٩) ، ولقمان (٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عَلَيْهِمْ وَيَخَذُهَا هُزُوًا﴾ الآية جامع
 البيان (٢٠٢/١٠) ، والسجدة (٥) ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنْ أَيْنِ شَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ بِأَيِّهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ
 ﴿٥﴾ جامع البيان (٢٣٢/١٠) ، و(٧) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾﴾ جامع البيان
 (٢٣٤/١٠) ، ويس (٥٢) ﴿قَالُوا يَا بُولَلَاءَ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ الآية جامع البيان (٤٥١/١٠-٤٥٢) ، والجنانية (٢٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ
 مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَسَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَحَمَّ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَحَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٢/١١) ،
 والذاريات (١٧) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَا يَهْتَمُّونَ﴾ جامع البيان (٤٥٤/١١-٤٥٥) ، والواقعة (١٧) ﴿يَلُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
 مُّخَلَّدُونَ﴾ جامع البيان (٦٢٨/١١-٦٢٩) ، و(٧٥) ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْجِعِ الْجُبْرِ﴾ جامع البيان (٦٥٨/١١) ، و(٨٩)
 ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَيْبِهِ﴾ جامع البيان (٦٦٧/١١) ، والقيامة (٢) ﴿وَلَا أُنِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَارِثَةِ﴾ جامع البيان (٣٢٧/١٢) ،
 والإنسان (٢٧) ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّمَاتٌ جَاهِلَةٌ يُدْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا﴾ جامع البيان (٣٧٤/١٢) ، والأعلى (٦-٧) ﴿سُقْرُبًا
 فَلَا تَسْمَعُ﴾ الآيتين جامع البيان (٥٤٥/١٢) ، والفجر (٧) ﴿إِذْ دَنَاتِ الْوَعْدُ﴾ جامع البيان (٥٦٨/١٢) ، و(١٠) ﴿وَرَوَّعُونَ
 ذِي الْأَرْئَادِ﴾ جامع البيان (٥٧١/١٢) ، والمسد (٤) ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ جامع البيان (٧٣٦/١٢-٧٣٧) .

تَكْرَهُوا فَنَبِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَا نَحْصِنَا لِنُبْنِغُوا عَرْضَ الْحَيَرَةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ [النور: ٣٣] قال -رحمه الله-: "...واختلف أهل العلم في وجه مكاتبة الرجل عبده الذي قد علم فيه خيراً ، وهل قوله : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ على وجه الفرض ؟ أم هو على وجه الندب؟. فقال بعضهم : فرض على الرجل أن يكتب عبده الذي قد علم فيه خيراً إذا سأله العبد ذلك... وقال آخرون : ذلك غير واجب على السيد ، وإنما قوله : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ : ندب من الله سادة العبيد إلى كتابة من علم فيه منهم خيراً لا إيجاب... قال مالك بن أنس: الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع بأحد من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده . وقد سمعت بعض أهل العلم إذا سُئل عن ذلك فقبل له : إن الله -تبارك وتعالى- يقول في كتابه : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يتلو هاتين الآيتين : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] قال مالك : فإنما ذلك أمر أذن الله فيه للناس ، وليس بواجب على الناس ولا يلزم أحداً . وقال الثوري : إذا أراد العبد من سيده أن يكتبه ، فإن شاء السيد أن يكتبه كاتبه ، ولا يُجبر السيد على ذلك..."

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : واجب على سيد العبد أن يكتبه إذا علم فيه خيراً ، وسأله العبد الكتابة ، وذلك أن ظاهر قوله : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ظاهر أمر ، وأمر الله فرض الانتهاء إليه ، ما لم يكن دليل من كتاب أو سنة على أنه ندب...^(١)

ثم قال -رحمه الله-: " وقوله : ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] يقول -تعالى ذكروه -: وأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم . ثم اختلف أهل التأويل في المأمور بإعطائه من مال الله الذي أعطاه : مَنْ هو ؟ . وفي المال : أي الأموال هو ؟ . فقال بعضهم: الذي أمر الله بإعطاء المكاتب من مال الله هو مولى العبد المكاتب ، ومال الله الذي أمر

(١) جامع البيان (٩/٣١٢-٣١٣) .

بإعطائه منه هو مال الكتابة ، والقدر الذي أمر أن يعطيه منه الربع . وقال آخرون : بل ما شاء من ذلك المولى... وقال آخرون : بل ذلك حصّ من الله أهل الأموال على أن يعطوهم سهمهم الذي جعله لهم من الصدقات المفروضة لهم في أموالهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة: ٦٠] قال : فالرّقاب التي جعل فيها أحد سُهمان الصدقة الثمانية هم المكاتبون ، قال : وإياه عنى -جل ثناؤه- بقوله : ﴿ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : أي : سَهْمَهُم من الصدقة...

وأولى القولين بالصواب في ذلك عندي : القول الثاني ، وهو قول من قال : عنى به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة . وإنما قلنا ذلك أولى القولين ؛ لأن قوله : ﴿ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ أمر من الله - تعالى ذكره - بإيتاء المكاتبين من ماله الذي أتى أهل الأموال ، وأمر الله فرض على عباده الانتهاء إليه ، ما لم يخبرهم أن مراده النذْب... " (١)

وكما هو واضح من المثالين المتتاليين أن سبب الترجيح هنا قاعدة أصولية معلومة من خطابات الشارع بالاستقراء والتتبع ، وهذه القاعدة صارت ظاهر خطابات الشارع الحكيم ، والأدلة على أن الأمر للوجوب كثيرة (٢) ، فإذا ورد أمر في خطاب فالواجب والأصل حملة على الوجوب ؛ لأنه الظاهر ، إلا إذا دل الدليل على صرفه عنه إلى الاستحباب أو الإباحة .

- ٨ - ومن ضوابط استعمال الظاهر اللفظية : إذا كان اللفظ الظاهر عامّاً فلا يجوز لأحد تخصيصه إلا بدليل : ففي قوله -تعالى- : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ

(١) جامع البيان (٩/٣١٥-٣١٧) .

(٢) ومن الأدلة على أن الأمر إذا أطلق فهو للوجوب : قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] فالأمر مطلق ، والتحذير بالفتنة والعذاب الأليم ، دال على وجوب فعل الأمر . انظر الأصول من علم الأصول لابن عثيمين صفحة (١٦) الطبعة الثالثة لجامعة الإمام ١٤٠٥ هـ .

رَبِّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [المائدة: ٨٩] قال أبو جعفر: "...اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله: ﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ﴾ على ما هي عائدة، ومن ذكر ما؟ فقال بعضهم: هي عائدة على "ما" التي في قوله: ﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾...

قال أبو جعفر: فمعنى الكلام على هذا التأويل: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارة ما عقدتم منها: إطعام عشرة مساكين. وقال آخرون: الهاء في قوله: ﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ﴾ عائدة على اللغو، وهي كناية عنه. قالوا: وإنما معنى الكلام: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم إذا كفرتموه، ولكن يؤاخذكم إذا عقدتم الأيمان، فأقمتهم على المضي عليه بترك الحث والكفارة فيه، والإقامة على المضي عليه غير جائزة لكم، فكفارة اللغو منها إذا حثتم فيه: إطعام عشرة مساكين...

قال أبو جعفر: والذي هو أولى عندي بالصواب في ذلك: أن تكون الهاء في قوله: ﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ﴾ عائدة على "ما" التي في قوله: ﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾؛ لما قدمنا فيما مضى قبل أن من لزمته في يمينه كفارة وأوخذ بها، غير جائز أن يقال لمن قد أوخذ: لا يؤاخذ الله باللغو، وفي قوله -تعالى-: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ دليل واضح أنه لا يكون مؤاخذ بوجه من الوجوه من أخبرنا -تعالى- ذكره أنه غير مؤاخذ. فإن ظنَّ ظانُّ أنه إنما عني -تعالى- ذكره -بقوله-: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بالعقوبة عليها في الآخرة إذا حثتم وكفرتهم، إلا أنه لا يؤاخذهم بها في الدنيا بتكفير، فإن إخبار الله -تعالى- ذكره وأمره ونهيه في كتابه: على الظاهر العام عندنا... دون الباطن العام الذي لا دلالة على خصوصه، في عقل، ولا خير، ولا دلالة من عقل ولا خير، أنه عني -تعالى- ذكره -بقوله-: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بعض معاني المؤاخذة دون جميعها. وإذا كان ذلك كذلك، وكان من لزمته كفارة في يمين حث فيها مؤاخذاً بها بعقوبة في ماله عاجلة، كان معلوماً أنه غير

الذي أخرجنا -تعالى ذكُّره - أنه لا يؤاخذ به. (١).

فتحديد اليمين التي فيها كفارة بيمين اللغو مخالف لظاهر الآية التي فيها نفي المؤاخذة، ولا شك أن الكفارة إذا قيل بلزومها في لغو اليمين فهي مؤاخذة مثبتة لا منفية، وهذه المؤاخذة مطلقة فلا يصح تخصيص عدم المؤاخذة في الدار الآخرة وإثبات المؤاخذة في الدنيا بغير دليل على هذا التخصيص؛ لأنه لفظ عام ظاهر، والتخصيص خلاف الظاهر.

- ٩ - ومن ضوابط استعمال الأظهر: إذا قيل بأن هذا القول في الآية هو الأظهر فلا يعني أن غيره يكون بالضرورة خطأ، وإنما له حظٌّ من النظر ووجه في القبول والصحة: ففي قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ وَمِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الطور: ٢١] قال -رحمه الله-: "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معناه: والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذريتهم المؤمنين في الجنة، وإن كانوا لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم، تكرمة لأبائهم

(١) جامع البيان (١٧/٥)، وتحقيق شاکر (٥٢٥/١٠). وانظر مواضع أخرى في: المائدة (٩٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ﴾ الآية جامع البيان (٤٤/٥)، والأنعام (٣٩) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّمٌ بِمَا كُنْتُمْ﴾ الآية جامع البيان (١٨٧/٥-١٨٨)، و(١٥١) ﴿قُلْ تَكَلَّأْنَا أَنفُسَنَا بِمَا حَرَّمَ رَبِّي كُنَّا بِهَا شُرَكَاءَ وَكُنَّا بِهَا ضَالِّينَ﴾ الآية جامع البيان (٣٩٢)، والأعراف (١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الصَّوْتِ وَالسَّيِّئَاتِ سَبِيلًا لَّهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية جامع البيان (٧٠/٦-٧١)، و(١٥٨) ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي وَأَنَا مِنَ الْذَّاكِرِينَ﴾ الآية جامع البيان (٨٨/٦)، و(١٧٥) ﴿وَأَتْلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ فَآتَيْنَاهُ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِبِينَ﴾ الآية جامع البيان (١٢١/٦-١٢٢)، و(١٨٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَدٍ وَجَمَلٍ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الآية جامع البيان (١٤٣/٦-١٤٤)، والأنبياء (٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ يَمْسِكَ بِهِمُ وَأَجْعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا مَسْبُكًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الآية جامع البيان (٢٢/٩)، والفرقان (٢٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ الآية جامع البيان (٣٨٢/٩)، والسجدة (١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الآية جامع البيان (٢٣٩/١٠). (٢٤٠).

المؤمنين ، وما ألتنا^(١) آباءهم المؤمنين من أجور أعمالهم من شيء... وقال آخرون : بل معنى ذلك : والذين آمنوا وأتبعناهم ذريّاتهم التي بلغت الإيمان بإيمان ، ألحقنا بهم ذريّاتهم الصغار التي لم تبلغ الإيمان ، وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء... وقال آخرون نحو هذا القول ، غير أنهم جعلوا الهاء والميم في قوله : ﴿الْمَنَّا بِهِمْ﴾ من ذكر الذرية ، والهاء والميم في قوله : ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الثانية من ذكر الذين . وقالوا : معنى الكلام : والذين آمنوا واتبعتهم ذريّتهم الصغار ، وما ألتنا الكبار من عملهم من شيء... وقال آخرون : بل معنى ذلك : الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِ آبَائِهِمْ ، وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء... وقال آخرون : إنما عني بقوله : ﴿الْمَنَّا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٢) : أعطيناها من الثواب ما أعطينا الآباء...

وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ عليه ظاهر التنزيل... والذين آمنوا بالله ورسوله ، وأتبعناهم ذريّاتهم الذين أدركوا الإيمان بإيمان ، وآمنوا بالله ورسوله ، ألحقنا بالذين آمنوا ذريّتهم الذين أدركوا الإيمان فأمنوا في الجنة ، فجعلناهم معهم في درجاتهم ، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم ، تكرمنا من آبائهم ، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئاً . وإنما قلت : ذلك أولى التأويلات به ؛ لأن ذلك الأغلب من معانيه ، وإن كان للأقوال الأخر وجوه ."^(٣)

فقضية الظاهر لا شك أنها مقوية للقول ، ولكن يبقى للأدلة الأخرى حظها ووجهتها في مواضع أخرى ، مما يعني احتمال رجحانها ، وسيأتي قريباً الحديث عن ترك

(١) أي : ما أنقصنا ، بمعنى أن الله عز وجل - أدخل الأبناء بفضيلة الآباء ، وما أنقص الآباء من أجورهم شيئاً . انظر تفسير غريب القرآن لابن الملقن ، صفحة (٤١١) ، تحقيق سمير طه المجذوب .

(٢) قرأ بالجمع بألف وكسر التاء أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب ، وقرأ بالإفراد بدون ألف ورفع التاء : ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف . انظر كتاب السبعة في القراءات صفحة (٦١٢) ، والمبسوط في القراءات العشر صفحة (٣٥١) .

(٣) جامع البيان (١١/٤٨٧-٤٨٩) .

الظاهر لأسباب عديدة ، منها على سبيل المثال : إجماع المفسرين على القول بغير الظاهر .

- ١٠ - ومن ضوابط استعمال الظاهر : أن الظاهر قد يشمل أقوالاً عديدة : ففي

قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُهِ يَكُونُ فَاَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال - رحمه الله - : "... ثم اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليله - صلوات الله عليه - ، فقال بعضهم : هي شرائع الإسلام ، وهي ثلاثون سهماً... وقال آخرون : هي خصال عشر من سنن الإسلام... وقال بعضهم : بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال ، بعضهن في تطهير الجسد ، وبعضهن في مناسك الحج... وقال آخرون : بل ذلك : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ في مناسك الحج... [وروي] عن أبي صالح مولى أم هانئ في قوله : ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُهِ يَكُونُ فَاَتَمَّهُنَّ ﴾ قال منهن : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، ومنهن آيات النسك : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ [البقرة: ١٢٧]... [وقال] مجاهد في قوله : ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُهِ يَكُونُ فَاَتَمَّهُنَّ ﴾ قال الله لإبراهيم : إني مبتليك بأمر ، فما هو ؟ قال : تجعلني للناس إماماً . قال : نعم . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين . قال : تجعل البيت مثابة للناس ، قال : نعم . [قال:] وأمناً ، قال : نعم . [قال:] وتجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، قال : نعم . [قال:] وترينا مناسكنا وتتوب علينا ، قال : نعم . قال : وتجعل هذا البلد آمناً ، قال : نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم ، قال : نعم... [وقال] مجاهد : ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُهِ يَكُونُ فَاَتَمَّهُنَّ ﴾ قال : ابتلي بالآيات التي بعدها : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾... [وقال] الربيع في قوله : ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُهِ يَكُونُ فَاَتَمَّهُنَّ ﴾ فالكلمات : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، وقوله : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، وقوله : ﴿ وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ [البقرة: ١٢٥] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية ، قال : فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم... [وقال آخرون : بل ذلك مناسك الحج

خاصة... وقال آخرون : هي أمور منهن الختان... وقال آخرون : بل ذلك الخلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التي ابتلي بمن فصر عليهن... وقال آخرون... عن السدي : الكلمات التي ابتلي بمن إبراهيم ربه : ﴿ رَبَّنَا قَبَلْنَا مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٧٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٧٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿١٧٩﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله - عز وجل - أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه ، وأمره أن يعمل بمن فأتهمن ، كما أخبر الله - جل ثناؤه - عنه أنه فعل . وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل الكلمات ، وجائز أن تكون بعضه ؛ لأن إبراهيم - صلوات الله عليه - قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك ، فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه . وإذا كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عني الله بالكلمات التي ابتلي بمن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ، ولا عني به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها ، من خبر عن الرسول - ﷺ - ، أو إجماع من الحجة ، ولم يصح فيه شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته... ولو قال قائل في ذلك : إن الذي قاله مجاهد ، وأبو صالح ، والربيع بن أنس ، أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً ؛ لأن قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ، وسائر الآيات التي هي نظير ذلك ، كاليان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلي بمن إبراهيم .^(١)

- ١١ - ومن ضوابط استعمال الأظهر : قد يكون القولان في الآية وجهين

محتملين ، ويذكر لأحدهما سياق الآية دليلاً ، ويبقى للقول الآخر حظ من النظر :

ففي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّأَنَّهُ كَانَ ذَكْرًا وَمُنْثَىٰ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا

(١) جامع البيان (١/٥٧٥-٥٧٦) ، وتحقيق شاکر (٧/٣) .

عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ [النساء: ٤٠] قال -رحمه الله-: " يعني بذلك -جل ثناؤه- : وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، فإن الله لا يبخس أحداً من خلقه أنفق في سبيله مما رزقه من ثواب نفقته في الدنيا ، ولا من أجرها يوم القيامة . ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي : ما يزنها ويكون على قدر ثقلها في الوزن ، ولكنه يجازيه به ويثيبه عليه . كما :... [روى عن] قتادة أنه تلا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ قال : لأن تفضل حسنتي في سبيلي بمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا... وبنحو الذي قلنا في ذلك صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ... [حيث] قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ »^(١) ... وقال آخرون في ذلك... [كابن مسعود-رضي الله عنه-] : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم نادى مناد من عند الله : « أَلَا مَنْ كَانَ يَطْلُبُ مَظْلَمَةً ، فَلِيَجِيءَ إِلَى حَقِّهِ فَلْيَأْخُذْهُ ! » قال : فيفرح -والله- المرء أن يذوب^(٢) له الحق على والده أو ولده أو زوجته ، فيأخذ منه وإن كان صغيراً . ومصداق ذلك في كتاب الله -تبارك وتعالى - : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيقال له : « انت هؤلاء حقوقهم » أي : أعطهم حقوقهم . فيقول : أي رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله للملائكته : أي ملائكتي : انظروا في أعماله الصالحة ، وأعطوهم منها ! . فإن بقي مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَةٍ ، قالت الملائكة -وهو أعلم بذلك منها- : يا ربنا أعطينا كل ذي حق حقه ، وبقي له مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَةٍ . فيقول للملائكة : ضَعُفُوا لِعَبْدِي ، وَأَدْخُلُوهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِي الْجَنَّةَ ! . ومصداق ذلك في كتاب الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ : أي : الجنة يعطيها ، وإن فنيت حسناته وبقيت

(١) ورد نحوه عند مسلم في صحيحه وغيره ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، حديث (٢٨٠٨) (٤/٢١٦٢) .

(٢) يذوب أي : يثبت .

سيئاته ، قالت الملائكة - وهو أعلم بذلك-: إلهنا فنيت حسناته وبقي سيئاته، وبقي طالبون كثير! . فيقول الله : ضعّفوا عليها من أوزارهم ، واكتبوا له كتاباً إلى النار! . قال صدقة^(١): « أو صكاً إلى جهنم » ، شكّ صدقة أيتهما قال^(٢)... قال أبو جعفر: فتأويل الآية على تأويل عبد الله هذا : إن الله لا يظلم عبداً وجب له مثقال ذرّة - قبّل عبداً له آخر في معاده ويوم لقائه - فما فوقه ، فيتركه عليه فلا يأخذه للمظلوم من ظالمه ؛ ولكنه يأخذه منه له ، ويأخذ من كل ظالم لكل مظلوم تبعته قبّله . ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا ﴾ يقول: وإن توجد له حسنة يضاعفها ، بمعنى : يضاعف له ثوابها وأجرها . ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يقول : ويعطيه من عنده أجراً عظيماً . والأجر العظيم : الجنة على ما قاله عبد الله ، ولكلا التأويلين وجه مفهوم، أعنى التأويل الذي قاله ابن مسعود ، والذي قاله قتادة . وإنما اخترنا التأويل الأوّل ؛ لموافقته الأثر عن رسول الله - ﷺ - مع دلالة ظاهر التنزيل على صحته ، إذ كان في سياق الآية التي قبلها ، التي حثّ الله فيها على النفقة في طاعته ، وذمّ النفقة في طاعة الشيطان ، ثم وصل ذلك بما وعد المنافقين في طاعته بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . " (٣)

(١) هو صدقة بن أبي سهل ، ترجم في تعجيل المنفعة ولم يذكر فيه جرحاً فهو ثقة . انظر تعجيل المنفعة صفحة (١٢٥) ، وتحقيق شاكر (٣٦٣/٨) .

(٢) ورد في الإسناد أبو عمرو ، قال : الشيخ أحمد شاكر بمعناه : ولم أتمكن من التعرّف عليه بالتحديد ، وقد نقل ابن كثير إسناد ابن أبي حاتم وهو : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن عنترة عن عبد الله ابن السائب قال : سمعت زاذان يقول، قال عبد الله بن مسعود... وهذا الإسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ، ومثل هذا له حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال فيه بالرأي ، وابن مسعود لا يأخذ عن أهل الكتاب ، ولا يقبل الإسرائيليات انظر تحقيق شاكر (٣٦٣-٣٦٤/٨) ، وقال ابن كثير بعد ذكره ، وبعد ذكر إسناد ابن جرير : " ولبعض هذا الأثر شاهد في الصحيح" . انظر تفسير القرآن العظيم (٤٧١/١) .

(٣) جامع البيان (٩١/٤-٩٣) ، وتحقيق شاكر (٣٥٩/٨) . وانظر مواضع أخرى في المائدة (٨٣) ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَعَجًا مِمَّنْ قَبْلِهِمْ قَبِيضٌ مِنْ أَلْدَمِيعِ وَمَا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ ﴾ الآية جامع البيان (٧/٥-٨) ، والرحمن (٣) ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ جامع البيان (٥٧٢/١١) .

فكلا القولين له وجه ، ولكن أحدهما : اجتمع له ظاهر اللفظ ، وموافقة الحديث النبوي ، وسياق الآية ، فكان أولى .

وهناك ما توقّف الإمام -رحمه الله- في جملة على أحد ما يحتمله ظاهر الكلام : ففي قوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ [الرحمن: ٣] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى- ذِكْرُهُ -: خلق آدم وهو الإنسان في قول بعضهم... وقال آخرون : بل عنى بذلك الناس جميعاً ، وإنما وحّد في اللفظ؛ لأدائه عن جنسه ، كما قيل : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] والقولان كلاهما غير بعيدين من الصواب ؛ لاحتمال ظاهر الكلام إياهما . " (١)

فهذه الضوابط وغيرها : تظهر أن تحديد الظاهر في السياق يعني أنه الأولى ، ولكن مع مراعاة حال المخاطب ، وما يفيد الخطاب ، ومراعاة ترتيب الكلام على سياقه دون تقديم ولا تأخير ، وحمل معنى اللفظ على الأغلب من معانيه في الاستعمال ، وهذه الأولوية ليست مطلقة ، بل قد تحتل الأوجه الأخرى الترجيح ، وقد تدخل جميعها في المعنى ؛ لأنه لا مرجح لأحدهما على الآخر ، ولكن كلما قوي جانب أحد الأقوال بمجموع أدلته فاق الأقوال الأخرى قوة . -والله أعلم- .

(١) جامع البيان (١١/٥٧٢) .

المطلب الثالث : أحوال يترك فيها القول بالظاهر في التفسير :

سبق الحديث عن وجوب استعمال الظاهر في فهم كلام الله - عز وجل - ، ولكن هناك حالات يترك القول فيها بالظاهر في الآية ؛ لأدلة أقوى ، وقد نص على ذلك الإمام الطبري - رحمه الله - في مواضع : منها :

قوله - تعالى - : ﴿ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦] قال - رحمه الله - : معقباً على قول : "...وأما الذي قال في تأويل ذلك: ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ يعني : الحيتان ، عقوبة لما بين يدي الحيتان من ذنوب القوم وما بعدها من ذنوبهم ، فإنه أبعد في الانتزاع ، وذلك أن الحيتان لم يجر لها ذكر فيقال : ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ فإن ظنَّ ظاناً أن ذلك جائز وإن لم يكن جرى للحيتان ذكر ؛ لأن العرب قد تكني عن الاسم ولم يجر له ذكر ، فإن ذلك وإن كان كذلك ، فغير جائز أن يترك المفهوم من ظاهر الكتاب ، والمعقول به ظاهر في الخطاب والتنزيل إلى باطن لا دلالة عليه من ظاهر التنزيل ، ولا خبر عن الرسول - ﷺ - منقول ، ولا فيه من الحجة إجماع مستفيض... " (١)

فقد نص الإمام الطبري - رحمه الله - في هذا الموضوع على بعض الأدلة التي يترك الظاهر لها وهي :

- ١- إذا دل دليل من النص القرآني على أن هذا الظاهر غير مقصود ، وهو دليل من سياق الكلام ، أو فهم لاستعمالات العرب .
- ٢- إذا دل الحديث النبوي الصحيح على أن المعنى غير ما يظهر في الكلام ، والسنة هي المفسرة والموضحة للقرآن كما قال - تعالى - : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] .

(١) جامع البيان (١/٣٧٦-٣٧٧) ، وتحقيق شاكر (٢/١٨٠) .

٣- إذا أجمع العلماء على قول دون غيره ^(١)، وقد قال النبي - ﷺ - : "... سألت الله عز وجل - أن لا يجمع أممي على ضلالة فأعطانيها .." الحديث . ^(٢)

وكذلك نص الإمام الطبري - رحمه الله - : على أسباب أخرى منها :

٤- الضرورة أو الحاجة الماسة : فهي سبب الانتقال من الظاهر إلى غيره : قال - رحمه الله - : " ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام ، المستعمل في ألسن العرب ، دون الأقل ما وجد إلى ذلك سبيل ، ولم يضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني . " ^(٣)

٥- ترك الظاهر والأخذ بالخفي من المعاني إذا حُسن كما في المثل لا الخبر :

والمثل في قوله - تعالى - : ﴿أَزْكَطَلْمَنِي فِي بَحْرٍ لِيَجِيَّ يَشْسُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طَلْمُنْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَأُرْ يَكْدُ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠] قال - رحمه الله - : " فإن قال لنا قائل : وكيف قيل : لم يكد يراها ، مع شدة هذه الظلمة التي وصف ، وقد علمت أن قول القائل : لم أكد أرى فلاناً ، إنما هو إثبات منه لنفسه رؤيته

(١) انظر موضعاً آخر نص فيه على هذه الأشياء في : آل عمران (٢٠٠) ﴿يَأْتِيهَا الذَّبَابُ عَامُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٦٣) .

(٢) رواه أحمد بهذا اللفظ عن أبي بصرة (٣٩٦/٦) حديث (٢٧٢٦٧) ، وبألفاظ أخرى عند أبي داود عن أبي مالك الأشعري في كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٥٢/٤) حديث (٤٢٥٣) ، وابن ماجه عن أنس ، في كتاب الفتن ، باب السواد الأعظم (١٣٠٣/٢) حديث (٣٩٥٠) ، والترمذي عن ابن عمر ، في كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤٠٥/٤) حديث (٢١٦٧) ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وروى الدارمي في المقدمة عن عمرو بن قيس نحوه " ولا يجمعهم على ضلالة " باب ما أعطي النبي - ﷺ - من الفضل (٤٢/١) حديث (٥٤) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي مالك الأشعري (٢٩٢/٣) حديث (٣٤٤٠) ، وقال الزركشي في المتبر في تخریج أحاديث المنهاج والمختصر صفحة (٦٢) : " واعلم أن طرق هذا الحديث كثيرة ، ولا يخلو من علة ، وأوردت منها طائفة ؛ ليتقوى بعضها ببعض "، وصححه الألباني: في آداب الزفاف صفحة (١٦٨) .

(٣) جامع البيان (٣/٢٤٩) عند الآية (٣٩) ﴿فَنَادَتُ الْمَلَكَةَ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِصَلَى فِي الْحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَبْتَرِكُ بَعْضَ مَصْرَفَاتِكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَسَيَذًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمَكَلِّينَ ﴿٣٩﴾﴾ الآية .

بعد جهد وشدة ، ومن دون الظلمات التي وصف في هذه الآية ما لا يرى الناظر يده إذا أخرجها فيه ، فكيف فيها ؟. قيل : في ذلك أقوال نذكرها ، ثم نخبر بالصواب من ذلك : أحدها : أن يكون معنى الكلام : إذا أخرج يده رائيًا لها لم يكدها ، أي : لم يعرف من أين يراها . والثاني : أن يكون معناه : إذا أخرج يده لم يرها ، ويكون قوله : ﴿ لَمْ يَكْدُ ﴾ في دخوله في الكلام ، نظير دخول الظنّ فيما هو يقين من الكلام ، كقوله : ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّجِيبٍ ﴾ [فصلت: ٤٨] ونحو ذلك . والثالث : أن يكون قد رآها بعد بطء وجهه ، كما يقول القائل لآخر: ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه ، ولكن بعد إياس وشدة . وهذا القول الثالث : أظهر معاني الكلمة من جهة ما تستعمل العرب «أكاد» في كلامها . والقول الآخر الذي قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يرها : قول أوضح من جهة التفسير ، وهو أخفى معانيه . وإنما حسُنَ ذلك في هذا الموضوع ، أعني أن يقول: لم يكدها مع شدة الظلمة التي ذكر؛ لأن ذلك مثل لا خبر عن كائن كان...^(١).

وإليك بعض من أمثلة ترك الظاهر للحديث النبوي ، أو إجماع المفسرين ، أو

كثرة القائلين :

بعد عرض الأسباب التي يترك الظاهر لغيره عند الإمام الطبري رحمه الله - : سأمثل على ترك الظاهر للحديث النبوي ، أو لإجماع المفسرين أو لكثرة القائلين ، يترك السياق من أجل الحديث النبوي إذا كان صحيحاً فقط :

ففي قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال أبو جعفر: "...واختلف في قوله : ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ فقال السديّ : هو خبرٌ من الله عن نفسه وملائكته ، أنه - جل ثناؤه - قال هو وملائكته ، إذ أقرّ بنوا آدم بربوبيته حين قال لهم : ألسن بربكم ؟ . فقالوا : بلى . فتأويل الكلام على هذا

(١) جامع البيان (٩/٣٣٦) .

التأويل : وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ . قالوا : بلى . فقال الله وملائكته : شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . وقد ذكرت الرواية عنه [أي : السدي] بذلك فيما مضى [وهي قوله : وذلك حين يقول-تعالى ذكروه-: ﴿وَلَهُ اسْتَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] ، وذلك حين يقول : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٩٩] [الأنعام: ١٤٩] يعني : يوم أخذ منهم الميثاق ، ثم عرضهم على آدم -عليه السلام- [والخبر الآخر الذي روي عن عبد الله بن عمرو ^(١) عن النبي - ﷺ - بمثل ذلك] قال : «أخِذُوا مِنْ ظَهْرِهِ كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمِشْطِ مِنَ الرَّأْسِ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ^(٢)] وقال آخرون : ذلك خبر من الله عن قيل بعض بني آدم لبعض ، حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقالوا: معني قوله: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك...
قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك بالصواب : ما روي عن رسول الله - ﷺ -

(١) هو عبد الله بن بن عمرو بن العاص السهمي القرشي ، هو وأبوه صحابيان ، أسلم قبل أبيه ، كان اسمه العاص فعيره النبي - ﷺ - إلى عبد الله ، قيل : لم يكن بينه وبين والده إلا ثنتي عشرة سنة ، كان كثير العبادة والفضائل ، روى أحاديث كثيرة ، توفي سنة خمس وستين ، وقيل غير ذلك . انظر حلية الأولياء (٢٨٣/١) ، وسير أعلام النبلاء (٨٠/٣) ، والإصابة (١١١/٤) ، وشذرات الذهب (٧٣/١) .

(٢) وإسناده هو : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، قال : حدثنا أحمد بن أبي طيبة ، عن سفيان ، عن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك ، وعن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله الحديث ، قال ابن كثير -رحمه الله - : أحمد بن أبي طيبة هذا : هو أبو محمد الجرجاني ، قاضي قومس ، كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب ، وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو ، وكذا رواه ابن جرير عن منصور به ، وهذا أصح -والله أعلم - . فصحح كونه موقوفاً دون رفعه إلى النبي - ﷺ - . انظر تفسير القرآن العظيم (٢٥١/٢) ، وسيأتي حكم ابن جرير -رحمه الله - في النص بقوله : "ولا أعلمه صحيحاً" ، وانظر تحقيق شاكر (٢٣٣-٢٣٢/١٣) .

إن كان صحيحاً ، ولا أعلمه صحيحاً ؛ لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم وإتقانهم حدثوا بهذا الحديث عن الثوري ، فوقفوه على عبد الله بن عمرو ولم يرفعه ، ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه . وإن لم يكن ذلك عنه صحيحاً ، فالظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بني آدم بعضهم لبعض ؛ لأنه -جل ثناؤه - قال : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ ﴾ فكانه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقرّوا ، فقالوا : بلى شهدنا عليكم بما أقررتم به على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . (١)

وكذا قد يترك الأغلّب في اللغة إذا صحّ الحديث : كما في قوله -تعالى- : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۗ ﴾ [الحج: ٢٩] حيث ذكر أقوالاً في معنى العتيق ، ورجح : معنى القديم ؛ لأنه الأغلّب في اللغة ، ما لم يكن الحديث المروي عن النبي -ﷺ- : "إنما سمي البيت العتيق ؛ لأن الله أعتقه من الجابرة فلم يظهر عليه قط" صحيحاً (٢).

فامتنع من القول بالأغلّب في اللغة إذا كان الحديث النبوي صحيحاً ، أما لو كان ضعيفاً فالمعول عليه الأغلّب في اللغة . (٣)

ومثال ترك الظاهر من الخطاب لكثرة القائلين به من السلف :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ۗ ﴾

(١) جامع البيان (١١٧/٦) ، وتحقيق شاکر (٢٤٩/١٣) .

(٢) وإسناده عند ابن جرير : حدثني محمد بن سهل البخاري ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : أخبرني الليث ، عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن الزهري ، عن محمد بن عروة ، عن عبد الله بن الزبير ورفع . جامع البيان (١٤١/٩) - (١٤٢) ، وفي التقريب عبد الله بن صالح صدوق كثير الغلط (٤٢٣/١) ، ورواه الترمذي في تفسير سورة الحج ، وقال حديث حسن غريب ، ومن وجه آخر مرسل عن الزهري (٣٠٤/٥) ، وقال ابن أبي حاتم : لا يجتمل أن يكون مرفوعاً عن النبي -ﷺ- ، وهو موقوف على عبد الله بن الزبير أشبهه . انظر علل الحديث (٢٧٤/١) .

(٣) ومثله في الإخلاص (٢) ﴿ اللَّهُ الصَّكُدُ ﴾ جامع البيان (٧٤٤/١٢) .

وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦] قال -رحمه الله-: اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، وفي من نزلت ، فقال بعضهم : نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري^(١) ، وكان مسلماً فارتدَّ بعد إسلامه... وقال آخرون : [كالحسن] عنى بهذه الآية أهل الكتاب وفيهم نزلت...

قال أبو جعفر : وأشبه القولين بظاهر التنزيل : ما قال الحسن ، من أن هذه الآية معني بها أهل الكتاب على ما قال ، غير أن الأخبار بالقول الآخر أكثر ، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن ، وجائز أن يكون الله -عزَّ وجلَّ- أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام ، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآيات ، ثم عرّف عباده سنته فيهم ، فيكون داخلاً في ذلك كل من كان مؤمناً -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يبعث ، ثم كفر به بعد أن بعث ، وكل من كان كافراً ثم أسلم على عهده -صلى الله عليه وسلم- ثم ارتدَّ وهو حي عن إسلامه ، فيكون معنياً بالآية جميع هذين الصنفين وغيرهما ، ممن كان يمثل معناهما ، بل ذلك كذلك -إن شاء الله-^(٢) . فذكر -رحمه الله- أولاً الأظهر من الآية ؛ ولكنه أحجم عنه لكثرة القائلين بخلافه ، ثم جمع بينهما .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ [ق: ٤٠] قال -رحمه الله- : "وقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ اختلف أهل التأويل في التسبيح الذي أمر به من الليل : فقال بعضهم : عنى به صلاة العتمة... وقال آخرون : هي الصلاة بالليل في أي وقت صلى... :

(١) هو الحارث بن سويد بن الصامت ، أخو الجلاس ، فيه خلاف في تعيينه وهذا هو المشهور ، ارتد على عهد رسول الله ولحق بالكفار فنزلت هذه الآية ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ [آل عمران ٨٦-٨٩] ، فحمل رجل هذه الآيات فقرأهن عليه ، فقال الحارث : والله ما علمت لك إلا صدوقاً ، وإن الله لأصدق الصادقين ، فرجع وأسلم ، وحسن إسلامه ، قيل : إنه قُتل بعد قتلته المجذّر في أحد . انظر الإصابة (١/٢٩٣) ، وأسد الغابة (١/٣٩٦-٣٩٧) .

(٢) جامع البيان (٣/٣٣٩-٣٤٠) . وانظر مثله في : المدثر (٥) ﴿ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ﴾ جامع البيان (١٢/٢٩٩-٣٠٠) .

عن مجاهد : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ قال : من الليل كله .

والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب : وذلك أن الله -جل ثناؤه - قال : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فلم يحدّ وقتاً من الليل دون وقت . وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل ، وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا ، فهو بأن يكون أمراً بصلاة المغرب والعشاء ، أشبه منه بأن يكون أمراً بصلاة العتمة ؛ لأكما يصلّيان ليلاً .

[وقال أيضاً -رحمه الله-:] " وقوله : ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ ... واختلف أهل التأويل في معنى التسييح الذي أمر الله نبيه أن يسبحه أدبار السجود : فقال بعضهم : عُني به الصلاة ، قالوا : وهما : الركعتان اللتان يصلّيان بعد صلاة المغرب... عن ابن عباس ، قال : قال لي رسول الله ﷺ - : " يا ابن عباس ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " (١)... وقال آخرون : عني بقوله : ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ : التسييح في أدبار الصلوات المكتوبات ، دون الصلاة بعدها ... وقال آخرون : هي النوافل في أدبار المكتوبات... قال ابن زيد في قوله : ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ : النوافل .

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال : هما : الركعتان بعد المغرب ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه ، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد ؛ لأن الله -جل ثناؤه - لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة ، بل عمّ أدبار الصلوات كلها ، فقال : ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ ، ولم تقم - بأنه معنيّ به : دبر صلاة دون صلاة - حجةٌ يجب التسليم لها من خبر ولا عقل . " (٢)

(١) وسند ابن جرير قال : حدثنا : أبو كريب قال : ثنا أبو فضيل عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس ورفع ، وفيه رشدين بن كريب ، قال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حجر في التقريب ضعيف . انظر تقريب التهذيب (٢٤٠/١) ، والكاشف للنهي (٣٩٧/١) . وقال ابن حجر في فتح الباري (٥٩٨/٨) : إسناده ضعيف .

(٢) جامع البيان (٤٣٦-٤٣٥/١١) . وانظر بقية المواضع في وجوب التفسير بالظاهر وأنه لا يترك إلا للأدلة الماضية: في البقرة

(٣٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الآية جامع البيان (٢٤٦/١) ، و(٤٥) ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخٰشِعِينَ ﴾ جامع البيان (٢٩٩/١) ، و(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَلَكًا تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦)

فقد ترك الإمام الطبري -رحمه الله- القول بالعموم ؛ لإجماع الحجة من المفسرين ، فقال : بأهما الركعتان بعد المغرب .

وقال القرطبي -رحمه الله-: " قال ابن زيد : هو النوافل بعد الصلوات ، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة ، قال النحاس^(١) : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر ، ولا سيما وهو صحيح عن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-^(٢) . وقال أبو الأحوص^(٣) : هو التسبيح في أدبار السجود . قال ابن العربي^(٤) : " وهو الأقوى في النظر " ^(٥) . وفي صحيح الحديث : أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة : «لا إله إلا الله وحده لا

جامع البيان (٣٣١/١) ، و(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبِكُمْ وَبَعْدَ ذَلِكَ فَعِيْلٌ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ الآية جامع البيان (٤٠٩/١) ، و(١٠٢) ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا النَّبِيُّ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمٍ ﴾ الآية جامع البيان (٥١٣/١) ، و(١٦٧) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرْنَا مِمَّنْ كَبَّرُوا مِنَّا ﴾ الآية جامع البيان (٧٩/٢-٨٠) ، وآل عمران (٢٧) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَنَزِّلَةِ إِذَا مَنَ تَنَزَّلَتْ وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ تَحْتِهَا وَتُفْرِغُ مِنْ تَحْتِهَا وَتُزِيلُ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٥/٣-٢٢٦) ، وفصلت (٢٠) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ وحزق إذا سَيِّئَةٌ يَنْزِلُهَا ﴾ الآية جامع البيان (١٥٦/١) .

(١) هو أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري ، النحوي المفسر ، له مصنفات كثيرة ، زادت عن خمسين ، منها : معاني القرآن ، والناسخ والمنسوخ ، توفي غرقاً ، سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك . انظر إنباه الرواة (١٠١/١) ، وبغية الوعاة (٣٦٢/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٦٧/١) .

(٢) الناسخ والمنسوخ (٢٣/٣-٢٤) .

(٣) هو سلام بن سليم الكوفي الخنفي مولاهم ، الإمام الثقة الحافظ ، قال العجلي : كان ثقة صاحب سنة واتباع ، وكان حديثه نحو أربعة آلاف ، توفي سنة تسع وسبعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٢٨١/٨) ، وشذرات الذهب (٢٩٢/١) .

(٤) هو أبو بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي القاضي ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة ، له مؤلفات كثيرة ، منها : أحكام القرآن ، وعارضة الأحوذى على كتاب الترمذي ، وكتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن ، ألفه في ثمانين ألف ورقة ، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقيل ست وأربعين . انظر الديباج المذهب (٢٥٢/٢) ، وشذرات الذهب (١٤١/٤) .

(٥) أحكام القرآن (١٧١٦/٤) .

شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد^(١) وقيل : إنه منسوخ بالفرائض ، فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة . " (٢)

وقال ابن كثير - رحمه الله - : ﴿وَأَدْبَرَ الْكُفْرَ﴾ " قال ابن أبي نجيح^(٣) عن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : هو التسيح بعد الصلاة^(٤) . ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه -^(٥) أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « وما ذاك؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال - صلى الله عليه وسلم - : « أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ . تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال : فقالوا : يا رسول الله : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال - صلى الله عليه وسلم - :

(١) رواه البخاري ، في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة ، حديث (٨٤٤) صفحة (١٦٨) ، ومسلم ، في كتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفة ، عن المغيرة بن شعبة ، حديث (٩٥٣) ، (٤١٤/١-٤١٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦/١٧) .

(٣) هو أبو يسار ، عبد الله بن أبي نجيح يسار المكي ، مولى بني مخزوم ، صاحب التفسير ، قال الذهبي : هو من أخص الناس بمجاهد ، قال ابن حجر : ثقة رمي بالقدر ، وربما دلّس ، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة . انظر ميزان الاعتدال

(٤) (٥١٥/٢) ، وتقريب التهذيب (٤٥٦/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٥٨/١) ، وشذرات الذهب (١٨٠/١) .

(٥) رواه البخاري عن مجاهد عن ابن عباس : أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها . عند سورة "ق" حديث (٤٨٥٢) صفحة (١٠٤٠) .

(٥) هو أبو هريرة ، عبد الرحمن - علي الصحيح - بن صخر الدوسي اليماني ، أسلم عام خيبر ، أكثر من روى الحديث النبوي ، وقد وعده النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يحفظ إذا ضم نمرة إليه فضمها ، روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة شخص ، إمام فقيه مجتهد حافظ ، توفي سنة سبع وخمسين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٥٧٨/٢) ، والإصابة (١٩٩/٧) ، وشذرات الذهب (٦٣/١) .

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

والقول الثاني: أن المراد بقوله -تعالى- : ﴿وَأَذْبَنَرُ الشُّجُورِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وروى ذلك عن: عمر، وعلي، وابنه الحسن، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة^(٢) -رضي الله عنهم- وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي^(٣)، والنخعي^(٤)، والحسن، وقتادة، وغيرهم. " ^(٥)

وقال الألويسي: " وفيه احتمال العموم لصلاة العشائين، والخصوص بالتهجد وهو الأظهر. " ^(٦)

- (١) رواه البخاري، في كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، حديث (٨٤٣) صفحة (١٦٨)، ومسلم، في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، عن المغيرة بن شعبه، حديث (٥٩٥)، (٤١٦/١-٤١٧).
- (٢) هو صُدَيِّ بن عجلان بن والبة الباهلي، صاحب رسول الله ﷺ، نزيل حمص، روى علماً كثيراً، كان عمره حجة الوداع ثلاثين سنة، توفي بالشام سنة ست وثمانين، وقيل إحدى وثمانين. انظر تهذيب الأسماء واللغات (١٧٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٥٩/٣)، والإصابة (٢٤٠/٣)، وشذرات الذهب (٩٦/١).
- (٣) هو أبو عمر، عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، الإمام العلم، ولد لست سنين خلت من خلافة عمر، أدرك خمسمائة من الصحابة، وروى عنهم، ورأى علياً، وصلى خلفه، يقول: ما أودعت قلبي شيئاً فخانني، وكان مزاحاً، توفي سنة ثلاث ومائة، وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء (٢٩٤/٤)، وشذرات الذهب (١٢٦/١).
- (٤) هو أبو عمران، إبراهيم بن يزيد اليماني النخعي -قبيلة أو بلدة باليمن-، فقيه العراق بالاتفاق، عدّه ابن قتيبة من الشيعة، توفي سنة خمس وتسعين، وله ست وأربعون. انظر المعارف صفحة (٤٦٣ و٦٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٥٢٠/٤)، وشذرات الذهب (١١١/١)، واللباب في تهذيب الأنساب (٤٧٣/٥).
- (٥) تفسير القرآن العظيم (٢٣١/٤).
- (٦) روح المعاني (٢٩١/١٤).

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة : تفسير السياق بالظاهر من الخطاب:

تبين مما تقدم في هذا المبحث شأن الاهتمام بالظاهر من السياق ، وأن الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- أكثر من الاهتمام به ، ولكن هناك مواضع قليلة يظهر أنها لم تطبق فيها هذه القاعدة ومنها :

تفسيره الكرسي بالعلم خلاف ظاهر آية الكرسي : ففي قوله -تعالى- : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال أبو جعفر : "...اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي الذي أخبر الله -تعالى- ذكره في هذه الآية أنه وسع السموات والأرض : فقال بعضهم : هو علم الله -تعالى- ذكره -... [قال] ابن عباس : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ قال : كرسية : علمه... [وفي رواية قال] ابن عباس مثله ، وزاد فيه : ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾؟^(١) وقال آخرون : الكرسي: موضع القدمين ، وقال آخرون : الكرسي: هو العرش نفسه...

قال أبو جعفر : ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب ، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ ، [وفيه] قال : «إِنَّ كُرْسِيَّ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ مِقْدَارُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ» ثم قال بأصابعه فجمعها : « وَإِنَّ لَهُ أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ إِذَا رُكِبَ مِنْ ثِقَلِهِ »^(٢) [وذكر أسانيد

(١) سيأتي تخريجه بعد قليل في التعقيب على النقل .

(٢) رجال السننهم : شيخ الطبري عبد الله بن أبي زياد القطواني ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة ، قال : أتت امرأة النبي - ﷺ - ، فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة! ، فعبد الله بن

أخرى ثم قال : [وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس... هو علمه ؛ وذلك لدلالة قوله - تعالى ذِكْرُهُ - : ﴿ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا ﴾ على أن ذلك كذلك ، فأخبر أنه لا يؤوده حِفْظ ما علم ، وأحاط به مما في السموات والأرض ، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] فأخبر -تعالى ذِكْرُهُ - أن علمه وسع كل شيء ، فكذلك قوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ^(١).

والصواب ما قال ابن عباس - رضي الله عنه - " إنه موضع قدمي الله - عز وجل - " ^(٢) وليس

الحكم ، شيخ الطبري ثقة ، انظر تهذيب التهذيب (٣/١٢٥-١٢٦) ، وعبيد الله : ثقة صدوق حسن الحديث ، وأثبت رواة إسرائيل عن إسرائيل . انظر تهذيب التهذيب (٤/٣٥-٣٧) ، ومدار الحديث على عبد الله بن خليفة ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له في التهذيب ، قال ابن كثير -رحمه الله- : " وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما ، والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي إسحاق السبيعي ، عن عبد الله بن خليفة ، وليس بذلك المشهور ، وفي سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفاً ، ومنهم من يرويه عنه مراسلاً ، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ، ومنهم من يحذفها . وقال : وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك ، وعندني في صحته نظر ، والله أعلم . " تفسير القرآن العظيم (١/٢٩٣) ، وانظر جامع البيان تحقيق شاکر (٨/٤٠٠) .

(١) جامع البيان (٣/١١-١٢) ، وتحقيق شاکر (٥/٣٩٧) .

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة أثر (٥٨٦) (١/٣٠١) ، وابن أبي شيبة في كتاب العرش صفحة (٤٤٣) ، وابن خزيمة في التوحيد (١/٢٤٨) ، والحاكم في المستدرک (٢/٢٨٢) ، وقال صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ورواه الدارقطني في كتاب الصفات (٣٦) ، عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح (٦/٣٢٦) ، وقال الألباني في مختصر العلو صفحة (٤٥) : صحيح موقوف . وانظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين تخريج سعد الصميل (١/١٧١-١٧٢) .

وأما الأثر المروي عن ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم واحد : وهو مروي عن أبي جعفر بن أبي المغيرة عن ابن جبير عن ابن عباس . وأما سائر الروايات عنه وعن غيره فهي تدل على أن المراد بالكرسي ، هو الكرسي المشهور المذكور مع العرش ، قال أبو منصور الأزهري : والصحيح عن ابن عباس ما رواه الثوري وغيره عن عمار الدهني ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال : " الكرسي موضع القدمين ، وأما العرش فلا يقدر قدره " وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها ، قال : والذي روى عن ابن عباس في الكرسي أنه العلم فليس مما يثبت أهل المعرفة بالأخبار . انظر

الكرسيّ هو العرش ، بل العرش أكبر المخلوقات ، حيث روى أبو ذر - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة " .^{(١) (٢)}

وبعد هذه الدراسة للظاهر في التفسير ، تبينت حدود الظاهر وماهيته ، والحالات التي يقدم الظاهر فيها على غيره ، ومتى يترك الظاهر ، ومتى يحمل معنى الكلام على ظاهره ، وما قد ندد وخرج من المواضع عن الظاهر عند الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - ، والأولى أن تحمل على ظاهرها في المعنى . - والله الموفق للصواب - .

تهذيب اللغة (٥٤/١٠) ، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي (١٣٤/٢-١٣٥) ، وذكر محمود شاكر - رحمه الله - أنه إذا كان أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم صحيح الإسناد ، فإن الخبر الآخر صحيح على شرط الشيخين ، وقال أيضاً : والاستدلال في الآية على أن الكرسي العلم ضعيف جداً ؛ فلا يلزم من هذا القرب القرب في المعنى ، فلم لم يجعل قوله : ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَرَحْمَةُ وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] الكرسي هو الرحمة ، وقوله : في الأعراف (١٥٦) ﴿ عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مَنْ أَنشَأَ ذَرْعًا مِّنِّي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ انظر تحقيق شاكر (٤٠١/٥) . ومما أنبه عليه هنا : أن الخلاف في معنى الكرسي في الآية ليس قولاً مبتدعاً إذا كان صاحب القول يثبت الكرسي لله عز وجل ، فقد ثبت الكرسي في أحاديث أخرى .

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات (١٤٩/٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩) ، وقال : إنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة العرش إلا هذا الحديث . انظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين تخريج سعد الصميل (١٧٢/١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٥١/١) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٢٢٢) ﴿ وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ ﴾ الآية جامع البيان (٤٠٣/٢) ، والنساء (٢٥) ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْصَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ جامع البيان (٢٤-٢٣/٤) ، و(١٦٢) ﴿ لَنْ كُنَّ الرَّسَّخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٥/٤) ، والرحمن (٤) ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ جامع البيان (٥٧٢/١١-٥٧٣) ، والتحريم (١٢) ﴿ وَمَرْيَمَ إِتَتْ بِعَمْرِئَ آلِهَا فَجَاءَتْ بِزَكَاةٍ مِّنْ رَبِّهَا وَكُنْتُمُ الْكَاذِبِينَ ﴾ جامع البيان (١٦٣/١٢) ، والمطففين (١٥) ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَّحَبِيرُونَ ﴾ جامع البيان (٤٩٢/١٢) ، والبلد (١٧) ﴿ تُدْرِكَانِ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾ جامع البيان (٥٩٧/١٢) ، والتين (١) ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّبْطُونَ ﴾ جامع البيان (٦٣٣/١٢) .